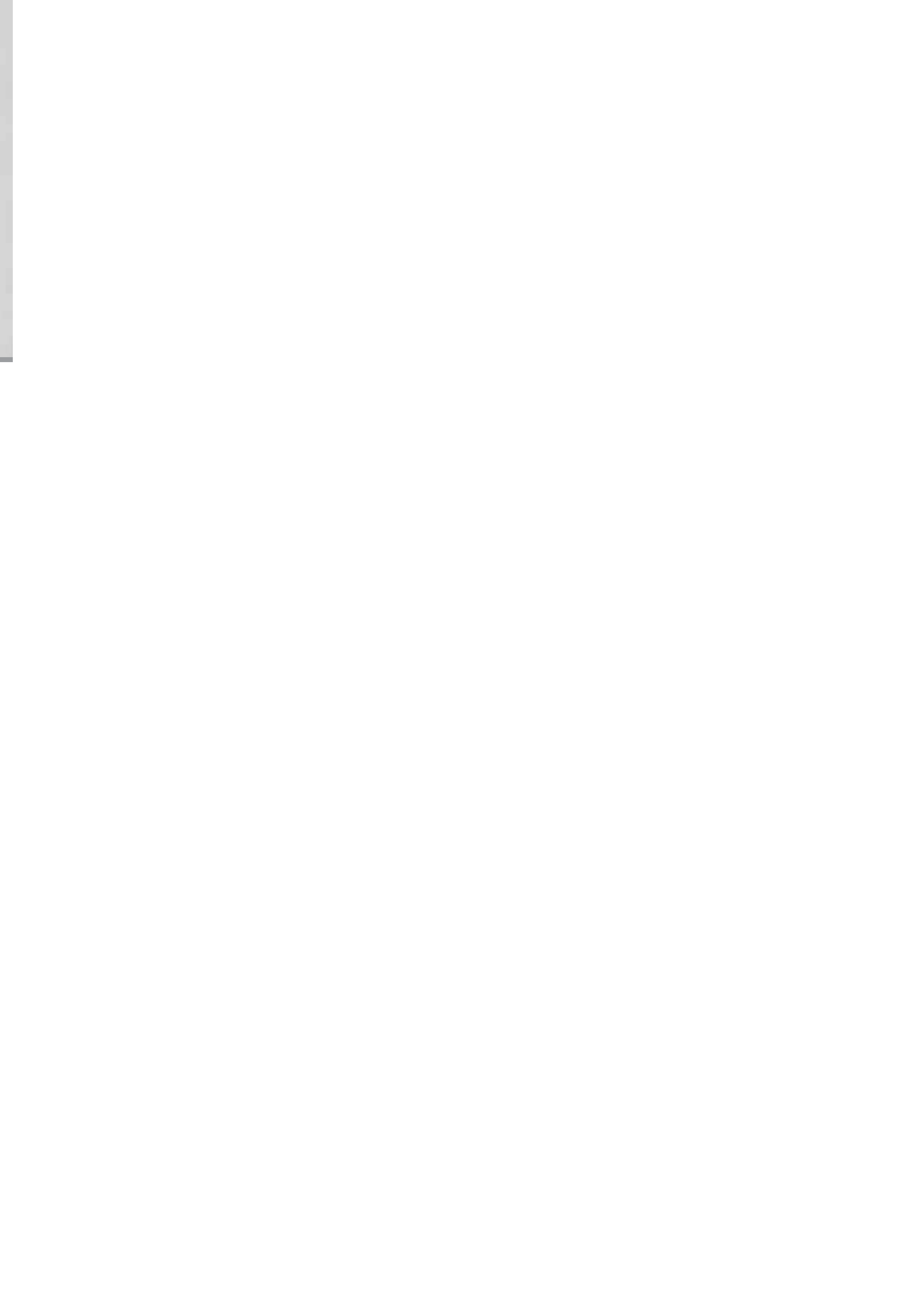

كتاب الدوحة
مختارات من
الأدب
السوداني
علي المك





# مختارات من
# الأدب السوداني

علي المك

كتاب الدوحة 45

يوزع مجاناً مع العدد 88 من مجلة الدوحة فبراير 2015

# مختارات من
# الأدب السوداني

علي المك

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف: راشد دياب - السودان
التصميم والإخراج : علاء الألفي - مجلة الدوحة

# المحتويات

## الباب الثالث: القصص

# مقدمة

... ما تنكَّبت فيما انتخبت من الأدب السوداني لهذا الكتاب نهجاً ، وإنما آثرت أن أقدِّم للقارئ الكريم ما يستهويني من شعر وقصة ومقالة، ولست في مقام من يدّعي أنه قد اطّلع على كلّ ما كتب أدباء السودان المعاصرون، ولكني قد نظرت في قسم كبير منه، في مراجعه التي توافرت لديّ وأنا أعدّ مادّة هذا الكتاب. وعكفت زماناً على ما انتخبت من الأدب السوداني، وأمعنت النظر فيه ما استطعت، وأراني به راضياً بعض الرضا، وأعلم أنه سيُرضي قوماً ويُسخِط آخرين، وكلّ الرضا في باب المستحيل أدخل.

ويضمّ الكتاب بعضاً من الإنتاج الأدبي الذي ظهر أخريات العشرين وبداية الثلاثين، ومنه ما قد نُشِر في مجلَّتَي (النهضة)

و(الفجر) بخاصة، وكانتا تمثِّلان بواكير نهضة فكرية سودانية (Sudanese Renaissance)، تتَّسم بالدعوة الإصلاحية، وتبشِّر بما يمكن أن يُسَمّى أدباً سودانياً، وله روح ونكهة ومزاج، فيه المفاخرة السودانية القومية، وتنبيه الأذهان إلى ما نملك من قوّة وأصالة لا نكاد نتبيَّنها، لكي تكون لنا سنداً يعين على التقدُّم والظهور المستقلّ.

يستنهض أحمد يوسف هاشم الهمم حين يقول:

«يجول الإنسان بنظره في أنحاء العالم طرّا فلا يجد أمّة من الأمم، شرقية كانت أو غربية، لها من المرافق الحيوية والاستعداد الفطري مثل ما لنا، ثم هي في الحضيض العمراني والاجتماعي والمالي الذي نرسف في أغلاله»[1] ويردّ هذه النواقص كلّها إلى ما يسمّيه «الترف الكاذب». ومحمد عشري الصدّيق في مقالته «ماذا وراء الأفق؟» يدور حول موضوع قريب من هذا فيقول: «وهذا وطننا الذي ننعم بالعيش فوق أرضه وتحت سمائه، ونشرب ماء نيله القديم كقِدَمه، ونأكل نبت أرضه، ونشقى بما يشقي ضميره ويكرب نفسه الحزينة، أليس من عرفان الجميل أن نحترم هذا الوطن المقدّس؟ وهذا الوطن الجاثي طوال خمسة آلاف سنة، يرمق شمس سعادته ولما ينشقّ عنها الشروق، ودموعه تتحدَّر على خدوده الكئيبة، وآلامه تقرّح كبده

1 - راجع مقالة «الترف الكاذب» لأحمد يوسف هاشم.

الحرّى، يطلب منّا، في توسُّل وبكاء، أن نزيل ما به من ضير، وأن نقيمه على قدميه. إنه عظيم في بؤسه العظيم لأنه غالب كرور الأيام والعصور، يحتضن أمله الخالد في بنيه الفانين»[1].
ففي هذه وتلك دعوة للإصلاح، وتبصير للناس بهذا الوطن النبيل، القديم، العريق، الخالد، ألا هبّوا، وأصلحوا من شأنه وليس أكثر من هذا.. من الذي أسال دموع الوطن على خديه تجري؟ ما الذي أوردنا الحضيض العمراني والاجتماعي والمالي الذي عنى أحمد يوسف هاشم؟ إن ذلك ليس سببه الاستعمار ووجوده وسياسته، إذ الكاتب يرى أن ذلك كله قد حصل بسبب الترف الكاذب! وجليٌّ أن الكلام المنشور لم يكن لتبيح له القوانين آنذاك أن يفصح بأكثر مما أفصح، ولكننا نستطيع أن نقول إن في هاتين ما يبشِّر بنوع من الأدب السوداني، جديد في فكرته وفي أسلوبه.
وحمل لواء نشر هذه النهضة الفكرية السودانية في الأساس مجلّتا (النهضة) و(الفجر)، وكان العصر في شرقنا العربي عصر نهضة فكر، فمصر، منذ أن أنذر القرن الماضي بزوال، نعمت بعهد من الشعر جديد، هو بعث جديد في لغته وفي أغراضه، وكان محمود سامي البارودي فارسه المقدَّم وإمامه، وكان مما يرى أن الشعر «لمعة خيالية يتألّق وميضها في سماوةِ الفكر،

1 - راجع مقالة «ماذا وراء الأفق؟» لمحمد عشري الصديق.

فتنبعـث أشـعّتها إلـى صحيفـة القلـب».[1]

ولا ريـب أن البـارودي قـد جدّد الشعر العربـي وأعلـى منزلتـه بعـد أن نالـت منـه عصـور الانحطـاط الأدبـي علـى نحـو مـا تعرفـون، وبعـد البـارودي ظهـر حافـظ وشـوقي والرافعـي وزكـي مبـارك والعقـاد وطـه حسـين ومدرسـة أبوللـو. ولقـد بصـر أدبـاء السـودان فـي ذلـك الزمـان بهـذا الضـوء الباهـر فـي شـمال الـوادي فوصلهـم منـه قبـس:

«والتفَـتَ الجيـل الجديـد إلـى مصـر، يـروم منهـا مـا أعيـاه فـي السـودان، وكانـت صحافتهـا آنئـذ قـد بلغـت شـأوا بعيـداً مـن الجـودة، وكان يكتـب فيهـا رجـال ينظـر الشـرق العربـي كلّـه إليهـم بعيـن الإكبـار، ويلتمـس مـن عندهـم المعرفـة والمثـل العليـا»[2].

فهـذا معاويـة محمـد نـور يبلـغ مصـر، وينشـر مقالاتـه فـي صحفهـا، وينـال حظّـاً كبيـراً مـن الاحتـرام بمـا كان يكتـب مبصِّـراً القـارئ العربـي بالفكـر الغربـي والثقافـة الغربيـة، وكتـب معاويـة بمـا يشـير إلـى ثقافـة عاليـة واطّـلاع عميـق فـي الفكـر الأوروبـي، فكتـب فيمـا كتـب عـن الأدب الألمانـي، والحـب فـي الأدب الإنجليـزي، والذوق الأدبـي، والدرامـا والقصـص الروسـي، وغيـر هـذا.

أمـا الشـاعر محمـد سـعيد العباسـي فقـد تعلَّـق بمصـر، وظهـر هـذا فـي كثيـر مـن شـعره، فهـو يحـنّ إليهـا، وإلـى مجالسـها وذكريـات

1 - ديوان البارودي: دار المعارف مصر- 1971 ، ص5

2 -عبدالله الطيب «محاضرات في الاتجاهات الحديثة في النثر العربي في السودان» معهد الدراسات العالية: القاهرة (1959) ص36.

شبابه فيها:

مصرُ وأيامُ الشبا ... بِ الغَضِّ من لي بهمَا
وفتية سامرتهم ... فاقوا الزمانَ همَمَا
وعزمة صادقة ... تنطحُ أبراج السما
زينُ شباب حملوا ... من السيوفِ القلمَا

وغير العباسي هناك التيجاني، وإن لم يُقَدَّر له بلوغها، إذ عاجله الموت، يقول:

كيف يا قومنا نُباعدُ من فكْـ ... ـرينِ شدَّا وساندَ البعضُ إزرا
كيف، قولوا، يُجانبُ النيلُ شطّيْـ ... ـه ويجري على شواطئ أخرى؟
كلما أنكروا ثقافة مصر ... كنتُ من صنعها يراعاً وفكراً
جئتُ في حدّها غِراراً فحيّا اللـ ... ـه مستودع الثقافة مصِرا
نضَّر الله وجهَها فهي ما تز ... دادُ إلا بُعداً عليَّ وعُسرا

وقد لا تُظهِر هذه الأبيات ماذهبنا إليه، غير أنها في بعض مقالاته، تُبْدِي ما قد قصدنا إليه، فمقالته «في سبيل التعارف الأدبي بين مصر والسودان» فيها إشارات إلى وُجوب الاهتمام بأدباء السودان وما يكتبون:

«قلنا ما ينقصنا قوّة في الأدب ولا سموّ في التفكير ولا شيء من مؤثِّرات العظمة الأدبية إلا أن تبرز هذه الأقلام المجهولة حتى في مصر، ولعلها، إن أتيح لها أن تتنفَّس قليلاً، أن تكون

أبلغ أثراً مما نعدّه حلماً أبعد شيء عن الواقع».[1]
أو قوله في المقالة ذاتها يدعو إلى النّدّيّة والمساواة:
«كلّنا في الشرق ـ أيّها المصريون ـ معقد رجاء الشرق. فمثل واجبنا نحوه واجبكم له، ومثل حظّنا فيه حظّكم منه، فنحن سواسية فيه، سواسية في أسمى ما يفتخر به الشرق وفي تحمّل تبعة كل ما يضيق به الشرق».
لقد كانت مصر ـ إذاً ـ كائنة بصفة دائمة في وجدان الشعب السوداني، قد يعلو صوتها، وقد يخفت أثر ذلك الصوت ، ولكنه لا يزول، والأمر في مصر كذلك، فالسودان ماثل في السياسة المصرية كما يروي التاريخ، وكنحو ما تعلمون.
ولعل من أسباب النهضة الأدبية في السودان بداية التعليم وإنشاء كلّيّة غردون وقيام المعهد العلمي، وقد هيَّأ الأخير لمن جلسوا في حلقات علمه معرفة باللغة والأدب والفقه والشريعة الإسلامية، بينما أتاحت الأولى لطلّابها دراسة اللغة الإنجليزية. فأطلّ من تعلَّموا فيها على عالم من الثقافة زاخر وجديد، ثم تلا ذلك ما كان من أمر صدور الصحف والمجلّات، وأهمّها مجلّة (النهضة) التي كان يحرِّرها محمد عباس أبو الريش، وكان أوّل صدور عام 1931، وجاءت بعدها مجلة (الفجر) عام 1934، وكان يقوم بتحريرها عرفات محمد عبدالله. وقد كتب

1- راجع مقالة «في سبيل التعارف الأدبي بين مصر والسودان» للتيجاني يوسف بشير

محمـد عشـري الصدّيـق يصـف ذلـك العهـد:

«الفتـرة التـي كُتبـت فيهـا هـذه المقـالات يسـمّيها الأدبـاء (الثلاثينيـات)، وهـي الفتـرة التـي اتَّسـمت بإرهاصـات النهضـة الحاضـرة بجميع مظاهرهـا مـن أدبـي واجتماعـي وتاريخـي ودينـي وسياسـي وفلسـفي، وبالطبـع لـم تكـن المبـادئ فـي تلـك الأيـام مبـادئ محـدَّدة، ولا الأهـداف واضحـة، بـل كانـت مُثُـلاً عليـا تحلِّـق فـي فضـاء الأمـل وتـدور فـي محيـط الأحـلام.

وكنـت أنـا واحـداً مـن زملائـي الكثيرين الذين تلقّـوا تعليمـاً ثانويـاً في كلّيّـة غـردون التذكاريـة، وقـد درسـنا مـع مـا درسـنا اللغـة الإنجليزيـة واللغـة العربيـة، ووعينـا قواعـد هاتيـن اللغتيـن وعيـاً سـليماً، وكذلـك النحـو والإعـراب والصـرف والبلاغـة بفروعهـا.

تخرَّجنـا فـي الكلّيّـة، ولـم نكتـفِ بمـا حصلنـا عليـه فيهـا، فكنّـا نجتمـع فـي منازلنـا، ولـو تباعـدت بهـا المسـافات، ونسـتعيد أيـام الدراسـة وذكرياتهـا التـي لا تـزال حبيبـة إلـى نفوسـنا، ونقبـل علـى الاطّـلاع علـى فـروع المعرفـة لتزيـد حصيلتنـا مـن العلـم ومـن تجـارب الحيـاة»[1].

ويـرى محمـد أحمـد محجـوب[2] أن ذلـك الجيـل قـد تعـرَّض إلـى تجربـات جسـام أهمّهـا تجربـة ثـورة 1924. ومـن بعدهـا أيقـن أبنـاء

1 - محمد عشري الصديق «آراء وخواطر»، لجنة التأليف والنشر وزارة الإعلام والشؤون الاجتماعية، الخرطوم- 1969 ص5.

2- محمد أحمد محجوب «نحو الغد» دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم - 1970 - ص(4).

ذلـك الجيـل أن الحركـة القوميـة السياسـية تحتـاج، لكـي تنمـو وتشـتدّ، ثقافـة حقّـة، وأن الاطّـلاع والدراسـة همـا أفضـل السـبل لنيلهـا، يقـول:

«إن كان هنـاك خيـر تمخَّضـت عنـه حركـة التثقيـف التـي بدأهـا بعـض أبنـاء هـذا الجيـل فهـو أنهـا قـد فتحـت عيونهـم علـى النقـص الثقافـي المتفشّـي فـي بلادهـم فأخـذوا بتلافيه فـي أنفسـهم أوّلاً. وها هـم قـد بـدأوا يشـخِّصون الـداء ويقدِّمـون الـدواء لغيرهـم. وأخـذوا يقـدِّرون مطالـب هـذه الفتـرة، فتـرة الانتقـال، ومـا تحتاجـه مـن هـدم وبنـاء ومـن حفـاظ علـى الأخـلاق والعقائـد، وقـد اتّخـذوا لـكل شـيء أهبتـه، وحملـوا المعـول والفـأس يهدمـون البائـد المتداعـي ويقطعـون الأعشـاب والطفيليـات مـن النباتـات، ليضعـوا الأسـاس للنهضـة المقبلـة.».

ويتَّفـق الكاتبـان علـى أن القـراءة والتحصيـل كانـا مـن أهـمّ مـا انشـغل بـه أولئـك الـروّاد فأثمـر ذلـك عـن نَهضـة فكريـة ذات خطـر وأثـر، وإن نظرنـا إلـى المقـالات التـي اخترناهـا لأدبـاء الثلاثيـن وجدنـا فيهـا نقـداً لذلـك العصـر، بالتلميـح والتصريـح جميعـاً، فأحمـد يوسـف هاشـم فـي مقالتـه «التـرف الـكاذب»، يـرى فـي التـرف الـكاذب عامـلاً أساسـياً فـي تأخيـر الأمّـة، فنحـن ننفـق أكثـر ممـا نملـك، ونتمسّـك بالقشـور دون اللبـاب، بـل هـو يشـير بتكويـن

جمعية قوامها الشباب المتعلِّم لمقاومة جرثومة هذه الخصلة. [1] وتبرز دعوة الإصلاح والتسامي للمثل العليا عند محمد أحمد محجوب حين يشير في مقالته «مثل عليا» إلى أن الأسرة إنما هي نواة الحياة الاجتماعية، وينبغي أن ينشأ أفرادها على التضحية وإدراك الواجبات قبل الحقوق والتسامي بالمشاعر للمثل العليا.. وأساس الأسرة عنده المرأة فهو يدعو لتعليمها بما هو غير بعيد عن قول حافظ إبراهيم:

الأمُّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيِّب الأعراق

يريد للمرأة التعليم لكي تكون زوجاً مدبِّرة وأُمّاً، وليس لتعمل في الأسواق أو لتدخل في ميدان الوظائف الكتابية.. ونحن نرى أن تعليم المرأة إن لم تكن غايته العمل، فلن يحقِّق المرجو منه لتقدُّم أيّة أمّة من الأمم. وفي هذه المقالة يعيب محجوب على شباب عصره أخذَهُم من مَدَنيّة الغرب القشور فآثروا منافعهم الشخصية على منفعة البلاد. ويتّسم أدب المحجوب ـ بصفة عامةـ بالأصالة الفنية والفكرية معاً «أما الأصالة الفنية فما كان يحاوله من صياغة جديدة تجمع بين فصاحة العربية وترسُّل الإنجليزية، وأما الأصالة الفكرية فماكان يلتمسه من المثل العليا بمجتمعه السوداني الناشئ في الأدب والسياسة والفن».[2]، وإن

1- مجلة «النهضة السودانية»: عدد 17، المجلد الأول، 24 يناير - 1932، ص(4).

2- عبدالله الطيب: المصدر نفسه ص47.

لـم يكـن فـي مقالـة محمـد عشـري الصدّيـق «مـاذا وراء الأفـق؟» حماسـة محجـوب الخطابيـة وألفاظـه، أو ثـورة أحمـد يوسـف هاشـم علـى التـرف الـكاذب وسلاسـة تعبيـره، انظـر: «يهجـر الرجـل قريتـه، ويحـوم فـي القـرى والأمصـار متاجـراً ناهـكاً قـواه، متغرّبـاً عـن وطنـه الأصغـر هاجـراً لزوجـه وأولاده، مضيِّعـاً لشـطر كبيـر مـن حياتـه...» إلـخ، هـذه الألفـاظ التـي يبـدو وكأن الكاتـب قـد انتخبهـا بعنايـة، مثلمـا هـو يخاطـب أناسـاً يسـتمعون إليـه لايقرأونـه، كلمـات قصـد منهـا أن تـدرَك بـالآذان وليـس بالعيـون، والموضـوع نفسـه يُهيّـيء مـادة حسـنة لخطبـة أكثـر منهـا مقالـة مكتوبـة. نقـول إن مقالـة عشـري «مـاذا وراء الأفـق؟» تشـترك وسـابقتها فـي دعـوة الإصـلاح ، ونقـد أَوْصـابِ المجتمـع ، وفيهـا صراحـة مـن يُواجـه الواقـعَ بـلا خـوف غيـر أن أسـلوبَها مختلـف جـدّاً، وقـد ذكـر عبداللـه الطيـب أن فـي أسـلوب محمـد عشـري رويّـة وعنايـة بمـا يكتبـه، وأن لـه اسـتقلالاً بالـرأي مـع روح أشـبه بـروح العلمـاء المتوافريـن علـى الـدرس والتحصيـل[1]، انظـر: «نحـن ـ إلـى الآن ـ لـم نكـن أمّـة كمـا يقـول لنـا الكثيـرون مـن الغربييـن وغيـر الغربييـن، ولا تـزال بلادنـا مجهولـة لـدى العالـم، ولانـزال فقـراء فـي الـروح مهازيـل مسـنين عجافـاً جائعيـن ضائعيـن بـلا مـال أو كيـان، ولا تاريـخ لنـا ولا فنـون ولا آداب ولا علـوم ولا صناعـات ولا حِـرَف، ولايـزال

1- المصدر نفسه: ص64.

عظماؤنا هم عظماء الفتك والحروب والتدمير، فلا شاعر ولا فيلسوف ولا كاتب ولا فنّان ولا مصلح يُلاقيك في تاريخ هذه البلاد، وليس بيننا من يُعَدّ من رجال العلم أو من رجال العمل، وليس للسلم عندنا انتصارات كما للحرب، وأرضنا سهلة واسعة جدباء ليس عليها من آثار العبقرية والنبوغ إلا النذر اليسير»[1]، ثم يستطرد في تلك المقالة داعياً للعمل، إذ هو طريق النهضة والإصلاح، وأن لا شيء يعدل العمل الصامت والنظام.

وليس هناك من شكّ في أن هذه النهضة قد ساعدت في إذكاء الشعور القومي، ومهَّدت لقيام المؤتمر [2] وكان في قيامه انصراف أكثر هؤلاء إلى العمل السياسي المباشر.

وإذا نظرنا في المقالات الأخرى وجدنا أنها موضوعات متباينة، وتناقش أموراً متنوِّعة، كذكريات أحمد الطيب عن قريته وأهلها، أو حديث منصور خالد عن حال السياسة بالسودان أخريات الستين، أو ما كتب جمال محمد أحمد عن العرب في شرق إفريقيا.. وهلمّ جرّا.

ولعل الشعر هو أكثر فنون الأدب السوداني وفرةً وتطوّراً، وهذا يفسِّر أنه استأثر بالقسم الأوفى من محتويات هذا الكتاب، وعرف السودان منذ العقد الأول لهذا القرن شعراء كثيرين

---

1 - محمد عشري الصديق: المصدر نفسه، ص47.

2 - المؤتمر هو تجمُّع للمثقفين السودانيين الذين كانوا يعملون بدواوين الحكومة، واشترك معهم بعض التجار، وقد بدأ فكرةً في الحلقات الأدبية، ثم صار إلى هيئة ذات أهداف اجتماعية وثقافية وسياسية، وشهد فبراير 1938 مولده.

مجيديـن، ولقـد درج نفـر ممـن كتبـوا عـن الشـعر السـوداني علـى تقسـيم الشـعر إلـى مذاهـب ومـدارس، كقولهـم الشـعر التقليـدي والشـعر والواقعـي والشـعر الرومانسـي.. إلـخ ونؤثـر أن نسـمّي الشـعر شـعراً مهمـاً اختلفـت مذاهبـه، فهـذا أوقـع، ولا نميـل إلـى وصـف الشـعر بالشـعر العمـودي أو الشـعر الحـرّ، فالشـعر الجيِّـد يطربـك وتستحسـنه، إن كان لشـاعر محـدث أو قديـم، وقلّمـا ينظـر قـارئ الشـعر المثابـر إلـى شـكل كتابتـه.

وأسـهم الشـعر السـوداني ـ ربمـا أكثـر مـن النثـر ـ فـي تلـك النهضـة الأدبيـة التـي سـبق وذكرناهـا، فالعباسـي والبنّـا اللـذان عُرِفـا بجزالـة اللفـظ وبإطالـة النظـر إلـى ديـوان الشـعر العربـي فـي عصـوره المزدهـرة، طلعـا علينـا بشـعر لـه مـن السّـمات والصفـات مـا يـدلّ علـى منبتـه السـوداني، وكذلـك كان حـال مـن جـاء بعدهمـا، فمـن هـؤلاء مَنْ غشـيته الموجـة الرومانسـية التـي عـلا شـأنها مـن جديـد، وبقـي بعضهـم وفيّاً لهـا حتـى بعـد انحسـارها، وظهـور موجـات أُخـر. والعيـب فـي مثـل هـذا التقسـيم الـذي أشـرنا إليـه يكمـن فـي عـدم دقّتـه، فقـد تطـرأ أعـراض الرومانسـية التقليديـة والواقعيـة والرمزيـة جميعـاً علـى شـاعر واحـد، وربمـا كانـت هـذه هـي القاعـدة وليـس الاسـتثناء. إننـا لا نرفـض هـذه المـدارس الفنيـة فـي الأدب، لكننـا نـرى ألّا نعتمـد عليهـا وحدهـا؛ ذلـك أنهـا تحصـر الكاتـب فـي إطـار محـدود، فلـو أنـك نظـرت فـي قصيـدة عبداللـه الطيـب «الـكأس التـي تحطّمـت» لجـاز لـك أن تضعهـا فـي بـاب مـا يُسـمّى الشـعر

الحديث، في موضوعها ومذهبها، حتى إذا جئت فوقفت عند قصيدته «طريق سمرقند» التي نظمها بعد تلك بنيِّف وعشرين سنة وجدت الاختلاف بينهما ينأى بالشاعر أن يُعدّ في مدرسة الشعر الحديث.

إن قصيدة «شاعر» لمحمد أحمد محجوب وفيّة لصورة الشاعر التي تلاقينا عند علي محمود طه وإيليا أبي ماضي والتيجاني يوسف بشير وإدريس جماع، فالشاعر عند هؤلاء جميعاً هو المخلوق الأسمى، أقرب مخلوقات الله إليه، الشاعر هو ذلك الرقيق المُبدع، المتحدِّثُ بالحكمة، من يرى في الوجود والكائنات ما لا يراه الآخرون، وهو مُكلَّفٌ بِحمل الهموم والأوزار، وشاعر محمد أحمد محجوب:

شاعرٌ فجَّرَ الرّيّاض غناءً ... والرّوابي أثارَهُنَّ وَثارا
سار في مَهْمهِ الحياة مُجدّاً ... في ظلام الوجود يَهدي الحَيارى
عندليبُ الرّياض إمّا تغنَّى ... وجفاه الصِّحابُ أكدى وطارا
مَدْرجُ الحبِّ والصِّبا والأماني ... أنكرَ العيشَ عندهُ والجوارا
وطَروبُ الغناء أضحى نُواحًا ... زادَه البعْدُ حرقةً وأُوارا
يا نجيَّ القلوب حسبُكَ همْسًا ... لا يطيبُ الغناءُ إلا جَهارا

أو هو في قول أبي ماضي:

لِلَّهِ دَرُّكَ شاعِراً لا يَنتَهي ... مِن جَيِّدٍ إلا صَبا لِلأَجوَدِ
مَرَحُ الأَزهارِ في غِنائِك وَالشَذى ... وطَلاقَةُ الغُدران وَالفَجر النَّدي

وَكَأَنَّ زَورَكَ فيـهِ أَلْـفُ كَمَنجَـةٍ وَكَأَنَّ صَـدرَكَ فيـهِ أَلْـفُ مُـرَدِّدِ
كَم زَهـرَةٍ في السّفحِ خـادِرَةِ المُنى سَكَنَت عَلى يَأسٍ سُكونَ الجَلمَدِ
غَنَّيتَهـا فَاسـتَيقَظَت وَتَرَنَّحَـت وَتَأَلَّقَـت كَالكَوكَـبِ المُتَوَقِّـدِ

أم الشـاعر هـو صوفـيّ التيجانـي يوسـف بشـير المعـذَّب الـذي عـن نفسـه يقـول:

أسـمَـعُ الخَطـرة فـي الـذَرْ رِ وَأَستَبطِـن حـسّـه
وَاضطَـرابُ النُـور في خَـفْـ قَتِـهِ أَسـمَـعُ جَرَسـه
وَأَرى عِيـد فَتـى الـوَرْ دِ وَأَستَقـبِـل عُـرسَـه

أم هـو ذلـك الضعيـف احتشـد الأنـام عليـه فمـا تركـوا لـه منفـذاً ولا فضـاء فيحلِّـق حـرّاً، يقـول التيجانـي:

مـن لهـذا الأنـامِ يحميـهِ عنـي قلمـي صارمـي وطرسـي مجنّـي
هـو فنّـي إذا اكتهلـتُ، ومـا زا لَ علـى رَّيـقِ الحداثـةِ فنّـي
حشـدَتْ جندَهـا الحيـاةُ وزجَّـتْ فيـه مـن مُفـزع القـوى كل قـرن

وعـزاؤه أنه ليس كالآخرين، فهو الذي:

يفـرحُ الطيـن فـي يـديَّ فألهـو جاهـداً أهـدمُ الحيـاة وأبنـي
كم أشيدُ الحصى قصوراً وكم أُكْـ ـبرُ مـن شـأنها وأقـدرُ شـأني

الشـاعر هـو الـذي يمشـي فـي مواكـب الليـل هَيِّنـاً وقويـاً فـي آن، أسـوان وفَرِحـاً . هكـذا تعـود صـورة الثنائيـة الرومانسية عنـد إدريـس

جماع:

| | |
|---|---|
| هيّنٌ تستخفّه بسمةُ الطفلِ | قويّ يصارعُ الأجيالا |
| حاسرُ الرأس عند كل جمال | مستشفٌّ من كل شيءٍ جمالا |
| خُلقت طينةُ الأسى وغشّتها | نارُ وجدٍ فأصبحَتْ صلصالا |
| ثم قال القضاء كوني فكانتْ | طينةُ البؤسِ شاعراً مثّالا |

وظهر في أخريات الأربعين وبداية الخمسين شعراء وأدباء درج مؤرِّخو الأدب السوداني على تسميتهم أدباء الواقعية، وهو، لما تقدَّم بيانه من أسباب، تعبير تنقصه الدقّة الصائبة، جاء هؤلاء والموجة الرومانتيكية تؤذن بانحسار وشيك، وبدأت أشعار الشعراء بالظهور حين كان الشاعر المصري كمال عبدالحليم صاحب ديوان «إصرار» هو الشاعر المقدَّم، وكان عبدالرحمن الشرقاوي قد بدأ يشتهر بعد نشر قصيدته الطويلة «من أب مصري إلى الرئيس ترومان».. وغير هذين. هو جيل من الأدباء نهض من خنادق الشعر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فنظر إلى أدباء المقاومة الفرنسية، ثم وصلهم شيء مما كان قد كتب بول إيلوار ولوركا وناظم حكمت وبابلو نيرودا من الشعراء، ومن الكتّاب مكسيم جوركي وبخاصّة روايته «الأم» وأجزاء سيرته الذاتية الثلاثة، وكذلك مؤلّفات هوارد فاست، وريتشارد رايت، وجون شتاينبك، وقد ترجمت روايات الأخير «عناقيد الغضب» و«شارع السردين المعلَّب» و«رجال وفئران» إلى العربية، ثم

اتُّهم من بعد ذلك أنه صبأ، فسار تحت ظلال المنظّمة الأميركية الحاكمة، فخلَّوا شَأنَه، ولم يعد يُحتَفل به كثيراً، ووصل كل هذا الأدب إلى السودان فنشأ عليه جيل من الأدباء والشعراء يختلف اختلافاً واضحاً عمّن من سبقوه، وتَيسَّر للجيل الجديد الاطّلاع على هذا الأدب: المترجم منه وما كان أصله العربية، كشعر عبدالوهاب البياتي وروايات حنامينا وعبدالرحمن الشرقاوي. بينما رغب من سبقهم من الأدباء عن هذه الحركة متمسّكين وقانعين بما كانوا قد احترزوا من معرفة. وبمقارنة عابرة نستطيع أن نلمس الفرق بين أدب الثلاثين مثلاً وقصيدة «الحاجّة» لصلاح أحمد إبراهيم.. ولا تتَّسع هذه المقدمة للحديث عن الأساليب الشعرية المختلفة.

ولقد ظهرت كتب القصّة بعد الشعر، وقد يحمد لعثمان علي نور أنه بدأ بكتابة القصّة السودانية جادّاً وتفرَّغ لها فلم يجرِّب قلمه فنّاً آخر من فنون الأدب، وهو أول من نشر مجموعة قصص قصيرة هي «غادة القرية»، ثم عاد وأصدر مجلّة (القصّة)، ولها ينسب الفضل في تقديم الكثير من كتّاب القصّة السودانية.

وبدأت القصّة السودانية القصيرة في مجلّتي (النهضة) و(الفجر)، ولم تكن لتماثل المقالة أو الشعر في شيء، وفي الخمسين جعل شأن القصّة يعلو حين خصَّصت جريدة (الصراحة) عدداً أدبياً شهرياً، فتحت فيه صدرها لكتّاب القصّة وشجّعتهم، وتطوّرت تطوُّراً ملموساً في زمان وجيز، واستطاع الطيب صالح بمجموعة

«دومة ود حامد» وروايتيه «موسم الهجرة إلى الشمال» و«عرس الزين» أن يخرج بالأدب السوداني إلى الآفاق العالمية. وغَيْر عثمان علي نور والطيب صالح هناك مجموعة منتقاة لكتّاب القصّة السودانية تُظهِر، فيما تُظهِر، أصالة محبَّبة، وتشير إلى مذاهب فنية شتّى.

وبعد..

فهذا الكتاب محاولة لجمع مختارات من الأدب السوداني في صعيد واحد. ونقد هذا وتقويمه، الرضا عمّا فيه أو السخط عليه، كلّها أمور قد تنشأ في أذهان من يطّلعون عليه، وللقارئ الكريم الحرّية كلّها في أن يخرج منه بما شاء واصطفى، وبالله التوفيق.

**علي المك**

برّي، 1980



# الباب الأول

# المقالات

# تمجيد الخالق[1]

عرفات محمد عبدالله

وعدت في مقال سابق أن أبحث هذا الموضوع من حيث إن «الغاية من خلق الإنسان تمجيد خالقه»، ولن أبدو هنا في ثوب الفقيه المفسِّر، فلهذا الجانب من البحث رجال هم ـ بحمد الله ـ أقدر مني على إيفائه حقّه. كما أن الآيات الشريفة التي تشير إلى ذلك مثل قوله تعالى «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ» كثيرة معروفة عند المؤمنين «الذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». فلندرس الموضوع بوصفه قضية فلسفية خاضعة لحكم العقل غير مغفلين علاقتها بالعلم الحديث.

(المجد) لغةً الكرم. و(الماجد) و(المجيد) كريم النفس والأصل، وهما من أسماء الله الحسنى، وله تعالى المثل الأعلى في الصفات. و(التمجيد) التكريم والتعظيم وتمجيد الخالق في عبادته وطاعته وابتغاء مرضاته، والإنسان ـ بحسب الظاهر

1 - نُشِرت في مجلة (النهضة)، العدد 17، بتاريخ 24 يناير - 1932.

الواقع ـ هو المخلوق الرئيسي في هذا الكون الأرضي، أو ـ كما يقول علماء التطوُّر ـ هو الدرجة العليا التي بلغتها «عملية التطوُّر».

وقد عالج كثيرون من الكتّاب والعلماء والفلاسفة مسألة الغاية من هذه الحياة الأرضية، بما فيها من جمال زائل وزخرف باطل وقسوة تبدو في بعض الجوانب. واختلف الباحثون، بحسب تباين وجهات نظرهم إلى الحياة والخليقة؛ فعند المؤمنين منهم بصحّة الأديان السماوية المعروفة، بل عند الكثيرين من أهل الديانات الأخرى، ليس ثمّة صعوبة ولا إشكال؛ فالمسلمون والمسيحيون والإسرائيليون يقولون ـ إطلاقاً وبلا قيد ـ إن الإنسان إنما وجد في هذه الحياة الدنيا كونها مرحلة في طريقه إلى حياة الخلود. وإنه بقدر صلاح سيرته وسريرته في حياته هذه يكون قربه من الفوز بالسعادة الأبدية. ولا يظن أحد أن معنى هذا القول التنفير من الأعمال المؤدّية إلى صلاح المرء في دنياه أو عمران هذه الدنيا والتمتُّع بطيِّباتها، بل ـ على النقيض من ذلك ـ لو صَحَّ ذلك لما رأينا تلك الكتب السماوية لا تفتأ تشرِّع للناس قوانين المعاملات بل والمجاملات، وحتى قوانين الحروب. والقرآن الكريم أوفاها في هذا المجال بما يتَّفق وكونه خاتمتها أو «الأنموذج الأتمّ» الذي انتهى إليه تطوُّر الأديان في تماشيها مع تطوُّر عقول البشر وإدراكهم للحقائق.

والبوذية من أكثر الأديان حضّاً على التأمُّل في الكون،

ومحاولة الصعود بالروح حتى تصلح للاتِّصال بعالم العلويات، وإن فلسفتها لتبدو صعبة ومعقَّدة لأوّل نظرة، شأن جميع الأمور المتعلِّقة بالروحانيات، يصعب إدراكها على من لم يروَّض على مثلها. ولأورد لك قول شاعر الهند وفيلسوفها الكبير «رابندرانات طاغور» في رسالة «سادهانا»:

«يبدو الغرب فخوراً بما يظنّه تغلُّباً منه على الطبيعة، كأننا نعيش في عالم معادٍ لنا، ولا مندوحة لنا من أن نغتصب ما نريد اغتصاباً من يدي نظام أجنبي عنا. وهذا الإحساس ثمرة العادة والتثقيف الذهني في عالم (المدن المسوَّرة)؛ ففي حياة المدن يحصر المرء شعاع بصيرته في حياته وأعماله، وهذا ما يخلق انفصالاً مصطنعاً بينه وبين الطبيعة الشاملة التي يرقد في أحضانها.

أما في الهند فوجهة النظر غير ذلك؛ إذ هي تنتظم الكون والإنسان في حقيقة عظيمة واحدة. والهند تُكبر من شأن التجانس الذي يوحِّد بين الفرد والعموم، وتشعر بأننا لا نستطيع أن نتَّصل أيّ اتّصال بمحيطاتنا إذا كانت هي أجنبية عنا. هناك (الكاياترى) وهي الآية التي تعدّ خلاصة الخلاصة (للفيدا) والتي نستعين بها في محاولة إدراك الوحدة الأساسية للكون وروح الإنسان الواعية، ونتعلَّم كيف نتصوَّر هذه الوحدة تشدّ أجزاءها الروح الخالدة التي خلقت قوّتها الأرض والسماء والنجم. وفي الوقت نفسه تُشِعّ على عقولنا ضوء الإدراك الذي يسير ويبقى ـ باستمرار ـ

غيـر منقطـع مـع العالـم الخارجـي.».

والفكـرة المسـتخلصة مـن فلسـفتهم «اندمـاج الإنسـان بالـروح فـي الكـون أجمـع» اندماجـاً كلّمـا كان تامّـاً كان أوفـى بالمقصـود.

ولا شـكّ فـي أن المدنيـة الغربيـة، بمـا قامـت عليـه مـن أسـاس مـادّي، لا تمـتّ إلـى الفلسـفة الإلهيـة بِصِلـة تُذكَـر، فهـي مدنيـة الليـرة والـدولار، مدنيّـة التنـازع العنيـف فـي سـبيل المطامـع التـي لا حَـدّ لهـا، وهـي ـ لهـذا السـبب ـ لا تبـدو جميلـة ولا جليلـة إلا مـن جانـب واحـد هـو جانبهـا الاصطناعـي، حيـث تتجلّـى ثمـرات العقـول البشـرية فـي الإبـداع وتبـرز فـي ثوبهـا المصقـول الموشّـى تسـحر العيـون وتخلـب الألبـاب، ولكـن لا يوشـك الناظـر الأديـب أن تختـرق عينـه الطـلاء حتـى يجـد اللبـاب نـاراً كامنـة وبـاروداً وديناميتـاً، لـو سـلّطت عليـه شـرارة واحـدة مـن شـرار المطامـع لنسـفت أحشـاء تلـك المدنيـة العظيمـة فـي الهـواء، تذروهـا الريـاح رمـاداً صرفـاً.

وكـم تخيَّـل الفلاسـفة الإلهيـون مجتمعـات تقـوم مدنيّتهـا علـى الحبّ والإخـاء والعـدل والعمـل فـي سـبيل الخيـر العـام، وهـم بذلـك يحاولـون تصويـر الغايـة مـن وجـود البشـر فـي هـذه الدنيـا فـي أن يتعاونـوا ولا يتنازعـوا حتـى لا يفشـلوا وتذهـب ريحهـم. والمثـل الأعلـى للمدنيـات أن تقـوم علـى ثـلاث دعائـم قويمـة مـن العلـم والفـن والفلسـفة قيامـاً صحيحـاً يضمـن لهـا البقـاء علـى عـوادي الأيـام، ولـم يـروِ لنـا التاريـخ تحقيقـاً تامّـاً لهـذه النظريـة فـي الواقـع،

وبعث الله الرسل واختتمت شرائعهم بالشريعة المحمّدية. وهنا أريد أن أوجّه النظر إلى خاصّية بارزة في هذه الشريعة السمحاء ـ إن لم تكن جديدة، فهي أبرز فيها من سواها ـ وهي أنها جاءت لتكفل «سعادة الدارَيْن»، وهذا بيت القصيد في بحثنا، فلنعد إلى سياقه.

لنجعل من موضوعنا قضية فلسفية صحيحة تتلخّص في أن «الغاية من خلق الإنسان تمجيد خالقه»، ولكيلا نخرج عن نطاق بحثنا يجب أن نسلِّم ـ مبدئياً ـ بوجود الخالق وحصول الخلق، لأن موضوعنا هو الغاية من الخلق لا كيفية حدوثه. والخلق والتمجيد ينصبّان على جميع الموجودات، ومنها الإنسان؛ وعلى هذا يمكننا أن نعرِّف التمجيد بأنه الخضوع لشريعة الله وطبيعة الكون التي فطره تعالى عليها والقيام بالقسط اللازم من عمران الدنيا عمراناً صالحاً يؤدّي ـ بحكم صلاحه واستقامته ـ إلى سعادة الدار الآخرة. أما الكائنات الدنيا فهي أكثر قياماً بواجبها هذا من الإنسان وأكثر عبادة لله وأصدق تسبيحاً.

فالعناصر اللاعضوية تمشي في أدوار تغيُّراتها الطبيعية والكيماوية بحسب القوانين الأزلية، والعصيان هنا مستحيل. والكائنات العضوية من أميبا إلى بكتيريا إلى سواها من الحيوانات تقوم بدورها في الحياة خاضعة لنواميسها.

وفي هذا تمام قسطها من عبادة الخالق وتمجيده، ونجد ذلك في جميع الحيوانات حتى نصل إلى صاحبنا الإنسان فنقف

حائريـن!

الإنسـان خليفـة الله فـي أرضـه، هكـذا قيـل لنـا فـي الكتـب المُنَزَّلـة، وهـو صـف بليـغ شـامل لعِظَـم شـأن الإنسـان وضخامـة مهمّتـه فـي الحيـاة. ولمّـا كان الإنسـان هـو المخلـوق الأرضـي الوحيـد الـذي اتَّصـف بالتفكيـر والقـدرة علـى التصرُّف والإبـداع بحكـم الواقـع، وباعتـراف الجميـع مـن مؤمنيـن وماديـيـن، فـلا شـكّ فـي أن قسـطه مـن التمجيـد الـذي وصفنـاه هـو القسـط الأصعـب، فهـو لا يعيـش بمقتضـى غرائـزه الطبيعيـة وحدهـا، بـل يتصرَّف بمقتضـى عقـل مرن يجـري مـع الشـهوة أحيانـاً، ومـع رغبـة الخيـر والإصـلاح حينـاً. ولـو عـاش النـاس كبعـض العجمـاوات لمـا كانـت هنـاك مدنيّـة، ولمـا كان لنـا أن نبحـث قضيـة كهـذه بحثـاً فلسـفياً. فهـذا العقـل الـذي جعـل للإنسـان ميـزة فـي الحيـاة ورفعَـه درجـات علـى المخلوقـات الدنيـا هـو الـذي حَمَّلـه أكبـر قسـط مـن المسؤولية قبـل هـذا الكـون (أعنـي قبـل خالقـه)، ولـم يأمرنـا الديـن بشـيء شـاذّ أو مخالـف للطبيعـة فـي صـدد تأديـة هـذا الواجـب علـى الوجـه الأكمـل. ولأدلِّـل علـى ذلـك لمـن هـو فـي حاجـة إلـى التدليـل:

يأمرنـا للإسـلام بتوحيـد اللـه وتقديسـه والإيمـان بملائكتـه وكتبـه ورسـله واليـوم الآخـر؛ أعنـي أركان الإسـلام وأركان الإيمـان المعروفة التـي بهـا يحـقّ لنـا أن ننتسـب إلـى هـذا الديـن ونُـدرَج فـي أعـداد المسـلمين المؤمنيـن، وهـذه هـي الحلقـة التـي تربطنـا بالحقـوق والمسـؤوليات المترتِّبـة علـى كوننـا مؤمنيـن بشـريعته، ثـم يفصِّـل لنـا

ما حَرَّم وما حَلَّل، ويذكر ـ بصريح العبارة ـ أنه ـ تعالى ـ حَلَّل لنا الطيبات، وحَرَّم علينا الخبائث، ويشرِّع دستور الحياة الذي إن اتبعناه أمِنّا من الوقوع في مهاوي الضلالة، وفزنا بالسعادة في الدارين. وليس من اختصاص بحثنا اليوم تفصيل هذه الحقوق والواجبات والتدليل على صوابها ومنطقيتها، فلذلك بحث آخر طويل.

كما أنني ذكرت الإسلام هنا بوصفه مكمِّلاً ومتمِّماً للأديان السماوية التي سبقته؛ فما ينطبق عليه في هذا البحث ينصبّ عليها أيضاً، إنما أردت أن أنفي من بعض العقول فكرة خاطئة هي أن «تمجيد الخالق» معناه الصلاة والصوم والمناسك الأخرى لا أكثر. فليس أكثر من هذا إمعاناً في الضلال؛ فالصلاة والصوم والحج مثلاً، بصفتها أعمالاً بدنية مجرّدة عن كل شعور روحي بالغاية منها، وحكمتها لا تمتّ إلى التمجيد بِصِلة، بل ربما جُعِلت من باب النفاق أو على الأقل من باب إرهاق البدن بما لا طائل تحته. ولكن للمناسك جميعاً حكمة بالغة تتخلَّل تفاصيلها وجزئياتها، وشعور النفس بالقنوت وتحقُّق الحكمة هو الذي يجعل لتلك الصور والأشكال قيمة حقيقية. كما أن الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات ان لم تقترن بالسير على منهاج الشريعة الغراء في السرّ وفي العلن، وتحليل ما حَلَّل الله وتحريم ما حَرَّم، إن لم تمتزج بذلك كانت غير وافية بفكرة التمجيد السامية.

أمرنا الله بالتحلّي بالفضائل وقد عرَّفها لنا،بالابتعاد عن الموبقات والرذائل، وقد شرحها، ولم يذَرْ كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، فإذا كنت مسلماً مؤمناً وصفاً ومعنًى وعملاً وراقبت الله في كل شؤونك وأدَّيت واجبك نحو أهلك وعشيرتك وأمّتك والناس أجمعين فقد أصبحت قميناً بالسعادة والسلامة في هذه الحياة الدنيا، وبالفوز فيما أعَدّه الله لعباده الصالحين في الحياة الخالدة، وبصفة كونك من (عباده الصالحين) كنت ـ أيضاً ـ قد قمت بقسطك الكامل من تمجيد خالقك الذي تمجِّده الكائنات جميعاً، كلّ على طريقتها (أو قل بلغتها) التي لا نفهم عنها إلا نزراً دون اليسير.

والآن اسمح لي ـ أيّها القارئ الفطن ـ أن أسألك: أيّ فرق بين هاتين الكلمتين (تمجيد الخالق) وبين ما يسوقه المادّيّون من تعابير مطوَّلة عن التجانس أو الملاءمة أو التجاوب بين الطبيعة والحياة؟ نعم أيّ فرق سوى أنك تقول «الخالق عز وجل»، وتفهم ما تقول بقدر ما يستطيع ذهنك البشري أن يدرك، وهم يقولون «الطبيعة الخالقة، قاموس التطوّر، قاموس الارتقاء، قانون الانتخاب الطبيعي.. إلخ.. إلخ» ويأتونك كل يوم بتعريف جديد؟ وخلاصة القول إن الإنسان وجد في هذا الكون كراكب سفينة، ولا مناص له من تأدية الواجب عليه بدفع أجرة سفره، وأن يسلك، قبل السفينة وربّانها ونوتيتها وراكبيها، المسلك الذي يضمن له السلامة والسعادة بينهم في أثناء السفر وبعد وصولهم

إلـى «أرض الموعـد» التـي تنتظرهـم فـي نهايـة السـفر وإلا سـاءت حالـه بينهـم أولاً وآخـراً. والله يهـدي مـن يشـاء إلـى صـراط مسـتقيم.

# الترف الكاذب [1]

أحمد يوسف هاشم

يجول الإنسان بنظره في أنحاء العالم طرّاً فلا يجد أمّة من الأمم، شرقية كانت أم غربية، لها من المرافق الحيوية والاستعداد الفطري مثل ما لنا، ثم هي في الحضيض العمراني والاجتماعي والمالي الذي نرسف في أغلاله، ويحار المفكِّر في أمرنا كيف يعلِّل هذا الخلل الذي نخر عظامنا وأبلاها وحال، في الماضي والحاضر- وأخشى أن يحول في المستقبل - بيننا وبين التقدُّم في هذه الحياة.

إننا أمّة قديمة، ولو إلى حَدّ محدود، كَدَّ آبناؤنا وأجدادنا وسعوا سعياً حثيثاً للرفاهية والسعادة، وها نحن -على أثرهم- نكدّ ونكدح لهذه الغاية نفسها، وبالأسف ضاعت تلك الجهود وهذه بلا جدوى، وما زلنا -رغم زعمنا التقدُّم- واقفين عند نقطة الابتداء. فما هو السرّ الذي حرمنا نعمة التقدُّم والسير إلى الأمام أسوةً بالأمم الأخرى، ونحن -كغيرنا- متذرِّعون بالأسباب نفسها أو بأسباب أقوى من أسباب البعض من أولئك الغير، ومع ذلك فهم متحرِّكون ونحن جامدون، وهم منعَّمون ونحن متحسِّرون؟.

---

1- نشرت - في العدد (17) من مجلة (النهضة)، في 24 يناير، - 1932.

يقول البعض إن هذا راجع إلى طبيعة البلاد الجوية، وإن الطقس الحارّ يفقد الإنسان كثيراً من نشاطه وعقليته. وقد يكون هذا سبباً إذا أردنا أن نقيس أنفسنا بأمم أوروبية، فماذا يكون السبب إذا قارنّا أنفسنا بالأمم الشرقية التي لا يختلف طقس بلادها عن بلادنا؟ فإننا إذا غادرنا وطننا لأية ناحية شرقية لمشاهدة المباني الشاهقة والقصور العالية وأساليب الحياة البهيجة، ومتى عدنا أدراجنا إلى أوطاننا رأينا الركود والاستقرار وأساليب من الحياة بينها وبين البهجة والنضارة مثل ما بين الأرض والسماء، ورأينا تلك الأخواخ تعمر القرى في طول القطر وعرضه. وما أظن أن سيدنا آدم -عليه السلام- كان يسكن أقلّ منها قيمةً عندما هبط هذه الأرض، ومهما قلنا فيها فهي من مخترعات عقل الإنسان الأول، ثم إننا لنجد في غير بلادنا من البلدان الشرقية بضعة أفراد في كل قرية أو مدينة منحهم الله بكدّهم وتبصّرهم نعمة الغنى والجاه، وهؤلاء هم ملجأ الفقراء والمشاريع العامة، ويستطيع الواحد منهم أن يقوم بنفسه بما أجمعنا نحن على القيام به، وما زلنا نتلكّأ في الطريق، ليس عن بخل أو إحجام، كلا، إنما هو العوز المخجل والفقر المدقع، فإلى متى؟

قد يقول قائل إن للثورات الأهلية التي منِيَ بها هذا القطر البائس بعاداته حتى دخول هذه الحكومة دخلاً كبيراً في هذه الضعة الاجتماعية، وما أظن هذا التعليل شافياً لغلّة أو ملزماً لحجّة، فإن الثورات الأهلية مهما حَمي وطيسها لا تضعف قوماً وتقوّي آخرين، وإن أموال هؤلاء تنتقل

إلى أولئك، وهكذا دواليك، وإن كان هذا التناوب سيقلِّل من قيمة الأموال ويسقط منها جزءاً إلا أنه يسيرٌ لا يُعتَدّ به، وعلى كل حال فثروة البلاد بين أهليها لم تلتقطها أيدي الأجانب. وكيفما بالغنا في ضرر الثورات الأهلية فليست نتيجتها وحدها هذا البوار العمراني.

في الماضي كان للنخاسة شأن كبير في إنماء ثروة البلاد، والتجارة كانت أجدى وأنفع مما هي الآن بكثير، وبالرغم من هذا فلست بواجد من الآثار ما يستحقّ أن نعدّه مظهراً من مظاهر العمران الاجتماعي، وإني جدّ مقتنع بأن للثورات الأهلية وطقس البلاد بعض الأثر في هذا التأخُّر المحزن، وبفكري أن هناك سبباً أقوى مفعولاً من هذين العاملين وأقرب إلى الصواب، هذا السبب هو الظهور الكاذب، أو الترف الكاذب، كما أريد أن أسمّيه، وهو خلة طبيعية فينا نحن -السودانيين- دون الأمم الأخرى منذ القدم، وهي التي لازمت أجدادنا وآباءنا، وما زالت متعلِّقة بأهدابنا، وهي التي أعاقتهم وستعيقنا -حتماً- في السير إلى الأمام ما دمنا ننفق أكثر مما نملك، وإنها لوصمة في جبيننا وعنواننا الذي يعرفنا به الأجانب، ولا نستطيع جحدها سواء في الماضي أو الحاضر، فإنها أبرز من أن تجحد، فلا نستطيع محوها ونبصر الحياة بتمعُّن وتفكُّر وندرس أحوالنا بعين ثاقبة وفكر ناضج مبتعدين كل البعد عن الترف والمظهر الكاذبين. إننا إذا وُفِّقنا إلى ذلك، (وهذا ما أرجوه)، فسنقطع طريقنا بدون عناء ونَصَب، وسنرى أو يرى أبناؤنا وأحفادنا أننا أزلنا أكبر صخرة في الطريق حالت بيننا وبين التقدُّم والعمران أمداً طويلاً.

ويجدر بي أن أذكر أن هذه الخلّة هي خصلة شرقية عامة وعربية على وجه الخصوص، وقد تناساها غيرنا، أو على الأقل خَفَّف من غلوائه منها، ونحن ما زلنا عليها، وهي مازالت علينا، وقد آن لنا التخلُّص منها بقليل من الثبات والتبصُّر وقوّة العزيمة.

ما معنى أن الرجل هنا، سواء في الماضي أو الحاضر، يهجر قريته ويحوم في القرى والأمصار متاجراً ناهكاً قواه متغرِّباً عن وطنه الأصغر هاجراً لزوجه وأولاده وأهله وعشيرته مضيّعاً لشطر كبير من حياته، ثم إن كُتِب له التوفيق في رحلته وعاد رابحاً غشي أقرب سوق من بلدته، وسوَّلت له نفسه شراء كلّ ما حواه السوق من ملبس ومأكل ومشرب، ونفض محفظته مما جمعه فيها ببذل النفس والمهجة على أكداس الغرور والظهور الكاذب، ليدخل البلدة دخول الغزاة الفاتحين الذين جمعوا مالاً لا يفنيه الدهر، وليبدِّده تبديد (من لا يخشى الفقر)، فيبذل ذات اليمين وذات اليسار بغير رويّة أو أناة غير ناظر للمستقبل أدنى نظرة ولا إلى ما تجشَّمه من نَصَب في جمعه، وليت بذله هذا يكون فيما ينفع الأهل والوطن! وما هي إلا أيّام قلائل حتى يعيد سيرته الأولى ويرجع إلى العهد الأول عهد الذلّ والهوان، ويولّي راجعاً تاركاً أهله في العراء والفقر، وهو لا يدري ما يخبّئه له القدر من خيبة وفشل. وأذكر أنني أعرف في مصر رجلاً مكث فيها نحو العشرين سنة عدا السنين التي قضاها في جزيرة العرب والشام والعراق والحبشة، خرج من أهله للتجارة كغيره، وكم أثرى وأثرى في هذه المدّة! وكلّما تحسَّنت

حالته بقُطر من هذه الأقطار صاح شيطان تلك الخلّة الخسيسة في نفسه وسَوَّلَ له الظهور. وبِمَ يظهر؟ أبعلمه؟ كلا، فهو ليس بالعالم، أَبِحَسَبه ونَسَبه؟ كلا، فهو ليس بحسيب ولا نسيب عندهم، أبِجاهه وبَذله؟ نعم، هذا هو الذي سيظهر عليهم، ويجعله إماماً لهم. إذاً؛ لابد من البذل والبذخ والترف في غير موضعه حتى يلفت إليه الأنظار، وعندما يصل إلى هذا الهدف يصل حافة الهاوية، ويُضحِي سخرية الساخرين وهزء الهازئين، فيفرّ إلى قُطر آخر.. وهكذا حتى ألقى عصا ترحاله في مصر، وفعل بها فعلته المشؤومة، وبات الأن يستجدي الأكفّ، ويرمي بنفسه تحت أقدام من كان في مقدوره - لولا الترف الكاذب- أن يجعلهم خُدّاماً له لو عَقِل وتَدبَّر. هذه -يا قوم- قصّة واقعية لأحد مواطنينا، تدلّ على مبلغ حبّنا للظهور الكاذب، وأي ظهور أكذب من هذا الذي يريد صاحبه في بلد كمصر أن يظهر بترفه وتأنُّقه في الملبس والمسكن، ويعطي الشحّاذ خمسين قرشاً بدل قرش واحد، ويعتقد أنه، بعمله هذا سيكون من أبرز رجالات مصر؟ وما علم أن هؤلاء لا يضعون مليماً في غير موضعه، أما هو فلا دخل ولا خرج معروف لديه. وهذه القصّة رواها لي صاحبها (وتحقَّقتها من غيره)، فقلت له: إذاً، لماذا لا ترجع إلى أهلك وحالتهم الآن حسنة وفي إمكانك أن تجد بينهم عملاً يحفظك من الاستجداء إلى أن تلقى ربّك وقد علا الشيب ناصيتك، ولم تبق لك إلا سنّ واحدة تداعب بها أصناف المأكولات في مائدتك القديمة، إن سمح لك الدهر بها مرّة ثانية؟ فأجابني بقصيدة غناء طويلة قديمة أحفظ منها هذه الشطرة التي تدل على مبلغ بذخنا، وما

كنا نجلّه من العادات، (ولا زلنا)، ونموت دونه، وهي: «خايف الهزلة قولت ناس فلان شن جاب» وما إن سمعت هذه الشطرة إلا واعترتني هزّة عنيفة هي هزّة الغريزة الفطرية المتغلغلة في دمائنا والتي نثور لها ونهدأ من أجلها، وشعرت -حقيقةً- بحروجة موقفه أن عاد بالخيبة بعد هذه المدة، وستعدّ هذه القصّة -أيها القارئ- مأساة إذا علمت أن لهذا الرجل زوجاً وأولاداً يتّمَهُم وهو حَيّ، ولا يعلمون من أمره شيئاً حتى الآن. نعم، هي مأساة الترف الكاذب. وبهذه الشطرة وأمثالها يبذل العائدون إلى أوطانهم كلّ ما جمعوه من نضار، بما في ذلك الربح ورأس المال... وبها وبأمثالها، منذ القدم، نحن وقوف والناس سائرون. والآن، ونحن في عصر نزعم فيه التقدُّم والعمران، نجد أبرز صفاتنا فينا صفة الظهور الكاذب، فالتاجر مازال على حالته التي أسلفتها، والموظّف يتعاطى مُرَتّباً لو قسته وإحدى بِدَله لأربت قيمتها عليه بكثير، وتأخذك الدهشة والحيرة إن حاولت فهم حياة تستغرق فيها الملبوسات وحدها كلّ الإيراد، ولا تكاد تجد فرقاً بين من يكون راتبه أربعة جنيهات ومن يكون راتبه عشرين جنيهاً من هذه الناحية. فبالله، ماذا يشين المرء منا مستخدماً أو تاجراً أو مزارعاً أو عاملاً إن سكن ولبس وأكل على قدر دخله مع ادِّخار شيء للطوارئ؟ وماذا علينا إن ألّفنا جمعية تحفظ وتستثمر هذا المُدَّخَر؟ ألا ترون معي أننا لو فعلنا ذلك لشيَّدنا القصور وأنشأنا الحدائق وفتحنا المصارف وجعلنا بلادنا جنّة في الأرض نسعد فيها، ونخلب بها الألباب.

وفي الختام أقترح على إخواني الشباب المتعلّمين تكوين جمعية لمقاومة جرثومة هذه الخصلة الذميمة، فهم قدوة إخوانهم من غير المتعلّمين، بل هم قِبلة هذا الشعب التي يولّيها شطره ويعتمد عليها في حاضره ومستقبله. ولا أشكّ في أن مهمّتها ستكون سهلة ما دامت حاجتنا جميعاً تدعو إلى التخفيف من غلواء هذا الظهور الكاذب، وما دام كل فرد منا يشعر بالعبء الثقيل الذي يحمله كارهاً مغموراً بمياه هذا التيّار الجارف، ومتى تقدّمنا نحو هذه الغاية خطوات معدودات فستتمّ من نفسها عندما يلجئنا حبّ الظهور ذاته إلى التقشُّف في حياتنا فنكون انتفعنا من خلّة طالما أضرّت بنا، وعند ذاك تكون المودّة هي البساطة، وحبّ الظهور هو الاقتصاد.

حقَّقَ الله الرجاء وأرانا قبر تلك الخلّة التاريخية البليدة.

# ماذا وراء الأفق ؟[1]

محمد عشري الصدّيق

يقف الإنسان الشاعر في كل مرحلة من مراحل عمره متسائلاً عن غايته في الحياة، وعمّا عمله فيها، وعن وسائله ومؤهِّلاته، وما هي الأمال التي حقّقها أو التجارب التي اكتسبها، وهل اقترب من المثل الأعلى الذي كان يؤثره بالفطرة، وينير له الواقع والظروف والكفاءة والسعي: طرائقه وأساليبه؟ وهل ربح صفقة الحياة، أم عاد منها خاسراً مغبوناً؟

وهو قد يحاسب نفسه حساباً شديداً دقيقاً، وقد يستعرض أمام خياله مواكب أعماله وآماله وآلامه الماضية، وساعات أفراحه الفارطة فيبتسم ابتسامة تنمّ عن الرضى والارتياح، وقد يمازجها شيء من الطرب الكريم والإعجاب البريء لحياة قُضِيت على الوجه الطيِّب، ولماذا لا يطرب لنفسه ويعجب بها وهو يرى تلك الساعات بقعاً من النور ترقص فيها عرائس الفوز والتوفيق، وتمرح فيها وتغنّي جنّيّات الجهد الفاضل؟

وقد يعروه من الوجوم والانقباض والتقزُّز إذا ما رأى فترات الظلام الدامس تصيح فيها شياطين العمل الضائع هباء، وتصرخ فيها أبالسة

1 نشرت في العدد 818 من جريدة حضارة السودان الصادرة في 30 أكتوبر - 1929.

الفرص التي انتهبت اللذات، وفيما لا يفيد، أو يعود بالخسران الأكيد، وقد تغلب الظلمة على النور، أو يطغى النور على الظلام، ولابدّ أن يحكم الإنسان بعد هذه المراجعة والمحاسبة حكماً على الحياة، ولابدّ أن ينطق آلاءه أو نعمه، أو يظل في حالة من التردُّد والشكّ العقلي والحيرة النفسية، ينظر مرة إلى الوراء، ومرة إلى الأمام، يغلب اليأس على الرجاء فيغوص إلى الأعماق حيث الزوابع والأعاصير، وحيث المخاوف والأهوال، وحيث الظلام والموت. وينتصر الرجاء فيعلو باليأس إلى الأعالي حيث الحرّية والقوة والحكمة وحيث العلاقة والإيناس والثقة والطمأنينة.

وهذا المتردِّد الشاكّ الحائر ما دام لا يهلك نفسه، يقول نعم للحياة ضمناً، ولا مشاحة في أن كل الناس يقولون (نَعَمهم) للحياة عملاً، إلا المنتحرين، فأؤلئك الذين لا يستطيعون غير ذلك.

وبعد هذه النتيجة ينظر الإنسان في عُدَدِه وأدواته، وعقله وعضلاته، وظروفه وأوقاته فيصلح منها ما يتطلَّب الإصلاح، ويبني منها ما تهدَّم، ويسنّ منها ما تآكل وصدئ، وينزل -من جديد- إلى معترك الحياة أكثر قوّة، وأكثر معرفة، وأكثر ثقة.

ولكن الأمم أقوى من الأفراد، فليس هناك أمّة تخسر تجارة الحياة تفكِّر في أن تنتحر دفعة. وقد تلمّ بها كل صنوف المِحَن وأنواع الآفات: من حروب ومجاعات وأوبئة، ولكن لها من القوة والمرونة والصبر ما

يجعلها تخرج ظافرة كثيراً، إن لم يكن إلى النهاية.

والحياة جبّارة قاسية لا تعرف للرحمة سبيلاً في أكثر الأحيان. فمن لم يأخذ بسننها، ويجري على منهاجها خلعته وداسته تحت قدميها، فرداً كان أم أمّة، نباتاً كان أم حيواناً، وهي -أحياناً- تقدِّم للأحياء فرصاً فريدة للسموّ والرفعة، فمن تنبَّه إليها، وتنهَّض إليها قادته إلى أعلى، ومن أحسن استثمارها دَلّته على مواطن النجاح والرقيّ، ومن غفل عنها أو تغافلها تركته حيث يندم، ولا ينفعه ندمه شيئاً.

وكما أن الطفل في سنيّه الأولى، وعند تفتُّحه للحياة كالزهر في مطلع الربيع، يكون أصلحُ للتربية والتقويم، وأَسمعُ للإرشاد وأَعملُ به، كذلك الأمم في بدء تكوينها، تتمخّض بأجمل الاحتمالات وأينع الآمال، فإذا قام فيها من يرشدها ويقودها بحزم وبصيرة وتعقُّل، تبعته ونالت الرفعة والمجد.

والآن، يتمخَّض العالم -وخصوصاً الشرق- عن انقلاب خطير عميق في كل المساعي والجهود، فهو ينظر إلى مخلَّفات الماضي بعين الريبة والشكّ، ويحار في حاضره، ويندفع إلى المستقبل. إن أكثر تجاربه الماضية أبانت عن فشل رائع، فنظمه السياسية وتقاليده الاجتماعية وعاداته الأدبية، اليوم، في قِدْر يغلي، وسيتبخّر الفاسد، ويرسب المفيد.

هو الآن في شغل، أكثر من ذي قبل، بالمسائل العالمية، وقضيته الحياة الكبرى، فبينما يصل الغربيون إلى فتوحات واكتشافات في عالم

المادّة تكاد لا تحصى، ويوشكون أن يقبضوا على ناصية الطبيعة، إذا بهم يرون عالم الروح تسوده فوضى شديدة وتناقض عجيب وكساد ماحِق وحيرة سحيقة، فتشتدّ الحرب بين العقل وتلك القوى التي تسيطر على عمل الإنسان ومصيره، والتي نسمّيها النواميس الأزلية، ولا ندرك لها غرضاً، أو نحكم لها تسييراً، وبين المادة الناطقة وذلك الإحساس الروحي الذي يتخلَّل العالم، وبين العقلية القديمة والعقلية الحديثة، وبين الأدب القديم والأدب الحديث، وبين النظام العتيق والنظام الحديث.

وهناك آسيا، تقف -أوّلاً- أمام نفوذ الغرب وحضارته وثقافته موقف الحيرة والتوجُّس والاحتقار، فترى أنها -لا شكّ- فاشلة، فتلبس له سلاحه، وتنازله مدجَّجة متوعِّدة مهدِّدة، وتنافسه في اقتصادياته وصناعياته.

وهذه اليابان والصين والهند والأفغان وتركيا ومصر تتطوَّر تطوُّراً عميقاً، ولابدّ أن تصل إلى ما تطمح إليه من رقيّ وعظمة، وهي جميعها ذات غرض واحد، ولكنها ذات وسائل مختلفة: فبعضها يدخل الأساليب الحديثة برفق وحذر، وبعضها بشدّة وصرامة، وبعضها باعتدال وفهم.

والشرق شرقان: شرق متطوِّر متجدِّد، وشرق جامد لا يتطوَّر. ولا شكَّ أن السودان لا يُحسَب -بحال من الأحوال- في الشرق الناهض؛ فنحن لا نزال نعبد القدماء، ونحترم التقاليد البالية، ولا تزال أساليب السلوك

عندنا هي أساليب القرون المظلمة، وقيم أكثر الأشياء عندنا هي قيم تلك القرون، وطريقة كتابتنا وتفكيرنا طريقة عتيقة لا تتلاءم وتطوُّر العالم السريع، ولا تتماشى وتنازع البقاء الذي يزداد كل يوم احتداماً، وأدبنا -على قلُّته وتخلُّفه - مبالغ فيه متملِّق معقَّد صعب.

فنحن في حاجة إلى الأدب الصادق الجريء البسيط المعقول. ونحن في حاجة إلى نظر جديد ننظر به إلى الشرائع والآداب والفلسفة والأديان وإلى كافة الشؤون، ونحن -إلى الآن- لم نكن أمّة كما يقول لنا الكثيرون من الغربيين، ولا تزال بلادنا مجهولة لدى العالم، ولا نزال فقراء في الروح مهازيل مسنّين عجافاً جائعين ضائعين بلا مال أو كيان. ولا تاريخ لنا ولا فنون ولا آداب ولا علوم ولا صناعات ولا حرف. ولا يزال عظماؤنا هم عظماء الفتك والحروب والتدمير، فلا شاعر ولا فيلسوف ولا كاتب ولا فنان ولا مصلح يلاقيك في تاريخ هذه البلاد، وليس بيننا من يُعَدّ من رجال العلم أو من رجال العمل، وليس للسلم عندنا انتصارات كما للحرب، وأرضنا سهلة واسعة جدباء ليس عليها من آثار العبقرية والنبوغ إلا النزر اليسير.

ولقد كانت بلادنا، منذ ثلاثين سنة، ميداناً واسعاً تدور فيه رحى الحرب الضروس ليلاً ونهاراً، يُنهَب الآمن، ويُشنَق البريء، ويُقتل الأطفال والنساء، ويُشَرَّد الرجال في القفار، وتُهدَّم الدور، ويبلغ الكساد والبؤس درجة ما دونها درجة، ولا تزال ذكريات تلك الأيام السوداء عالقة بالأذهان، ولا تزال بقايا زرائب تجّار الرقيق تدلّ على العدد العديد من

أولئك الأبرياء الذين كانوا يُساقون إلى الشقاء والموت.

قد يقول لنا قائل: إنكم الآن متقدِّمون، وهو محقّ ومخطئ! محقّ إذا قارنّا السودان بماضيه، مخطئ إذا قارنّاه بالأمم التي كانت تقرب من حالته في ماضيها القريب، ولكنها نهضت في فترة وجيزة، فصارت عزيزة الجانب موقَّرة السمعة محترمة الشخصية.

ولكن الوطن هو بيتنا القديم، وهو مهد آبائنا وأجدادنا، وهو قبرهم الذي يضمّ عظامهم، صحبوه في أيام الرخاء وفي أيام البؤس، وحين كان عظيماً، وحين حاقت به الضعة والهوان، وقد ورثناه عنهم كما ورثنا عاداتهم وآمالهم وآلامهم، وقضينا فيه شطراً من الحياة، وألفنا تذكاراته، وانطبعنا بطابعه، وخفق قلبنا لخفوق قلبه، وهو الذكريات المشتركة: العظيمة منها وغير العظيمة، والمشجية المبكية، والسارّة المفرحة.

أليس من الواجب علينا أن نحبّ هذا البيت العتيق، ونحترم ماضيه على ما فيه من عيوب؟ إن الابن البارّ لا يكره أباه لأنه ليس كاملاً، بل يحترمه لذلك. إن الحيوان ليحنّ إلى وطنه الذي نشأ فيه وترعرع، وإن الطير ليهفو قلبه إلى سكنه، ولا يهدأ له بال حتى يرجع إليه.

وهذا وطننا الذي ننعم بالعيش فوق أرضه وتحت سمائه، ونشرب ماء نيله القديم كقِدَمه، ونأكل نبت أرضه، ونشقى بما يشقي ضميره، ويكرب نفسه الحزينة. أليس من عرفان الجميل أن نحترم هذا الوطن

المقدَّس، هذا الوطن الجاثي طوال خمسة آلاف سنة، يرمق شمس سعادته ولمّا ينشقّ عنها الشرق، ودموعه تتحدر على خدوده الكئيبة، وآلامه تقرِّح كبده الحرّى، يطلب منا، في توسُّل وبكاء، أن تزيل ما به من ضير، وأ ن نقيمه على قدميه؟ إنه عظيم في بؤسه العظيم لأنه غالب كرور الأيام والعصور، يحتضن أمله الخالد في بَنِيه الفانين!

إن الإنجليزي ليقول: «أحبك يا إنجلترا، ولا زلت أحبك بالرغم من كل أخطائك» وإن الألماني ليقول: «ألمانيا فوق الجميع» وإن الأرجنتيني ليقول: «إلى الشعب الأرجنتيني الكريم تحيّة وسلاماً» ألا يحقّ للسوداني أن يقول: «إلى بلادي البائسة مني الفداء»؟.

لا يزال كثير مما يجب أن يُعمَل لم يُبدَأ فيه إلى الآن، فعلى من تقع تبعة هذا التكاسل؟ تقع على الشباب الذين يُدعونهم ناهضين، وعلى الشيوخ الذين يسمّونهم حكماء.

إني الآن لأتصوّر هذا السودان طفلاً جبّاراً يغالب النعاس ويتمطّى ويحاول التيقُّظ. ومن قال لنا إنه ليس بأمّة فليس ذلك بمانع أن يكون كذلك في وقت قريب.

فلا اختلاف أديانه، ولا اختلاف عاداته، ولا اختلاف شعوبه، ولا اختلاف أجوائه وظروف المعاش فيه بحائلة دون تحقيق هذه الأمنية العذراء، وليس يمكن أن تكون الأمم في بدء تكوُّنها غير ذلك؛ فالمصالح المشتركة، والتفاهم المتبادل، وأحداث التاريخ، تقرِّب شقّة

الاختلاف، وتصل الأبعدين برباط متين.

وليعلم أبناؤه أنه قد أذنت شمس نهوضه ورقيّه بالبزوغ. وأن لها لفجراً رائعاً، فإذا ما تكاتفوا واتَّبعوا غرائزهم العاقلة ووحي ضمائرهم، وعملوا في سبيل إصلاحه أدبياً ومادياً أوصلوه إلى الذروة العالية من العظمة والمجد. وليعلموا أنهم في زمن فريد وتحت تجربة صارمة، يختلط الأوائل فيها بالأواخر، وينال كلّ ما تؤهِّله له قدرته وسعيه.

فمن ذا يعاهدني باستخدام فكره وقلمه؟ ومن ينزل إلى ميدان الإصلاح مضحّياً براحته وملذّاته ومصلحته في سبيل السودان؟

فلنعمل إذاً، ويجب أن تكون خطّة العاملين وضع الأشياء في مواضعها فإن الظواهر خدّاعة، وكثيراً ما تزيغ البصر عن النظر إلى الأشياء نظراً صحيحاً. ويجب أن يقال للمصيب أصبت، وللمخطئ أخطأت. والحقّ حقّ ولو ثوى بين الأكواخ. والباطل باطل ولو نشأ بين القصور، وإن الباطل قد يعلو الحقّ حيناً، ولكنه لن يعلوه على توالي العصور. وليعلموا أنه في الفوضى يكثر المستبدّون، ويخبط الخابطون، فما يفلحون، وأن النظام يوفِّر علينا كثيراً من الجهد والوقت، وأنه لا شيء كالعمل الصامت، فالأرض تدور حول محورها مرّة كلّ أربع وعشرين ساعة، وحول الشمس مرّة كلّ سنة، وليس لهذا الدوران من جلبة ولا ضوضاء، ولا نسمع أن الأرض تعلن عن نفسها، أو تفخر بإتيان شيئين في وقت واحد، وليعلموا أن محلّ المشاعل والرايات وحرق البخور

وقرع الأجراس ودقّ الطبول ولبس الثياب الحمراء والأيمان الغليظة، لا غرض وراءها غير الشعوذة والتدجيل، ولن تكون سبيلاً إلى عمل أصيل أو نتيجة معقولة، أو مطلب نبيل.

فإلى الأمام يا أبناء «سودان الفتاة».

# في الخرطوم [1]
# خواطر وذكريات محزونة

معاوية محمد نور

الوقت ليل. والكون ساج نائم. فما تسمع نأمّة ولا ترى حركة، ولا تحسّ سوى الركود والإغفاء. والسكون الشامل، والظلام الصافي، والهدأة الناعسة. ولقد تحسّ الحين بعد الحين حركة ضئيلة، أو تسمع صوتاً خافتاً فيزداد إحساسك بذلك الصمت، ويشتد تقديرك لذلك السكون، ويأخذك ذلك السحر، وتستولي على نفسك تلك الهدأة، ويغمرك ذلك الصفاء. فتروح في عالم الأحلام والذكريات، وتدلف إلى عوالم الفكر والعواطف المشجيات. وقد خُيِّل إليّ أن الحياة قد وقفت فجأة، وأن الوجود قد أخلد إلى نومة هادئة، ويعديني ذلك الشجو والسهوم فلا أستطيع أنا الآخر حركة أو قياماً، أظلّ أتبع حركة الماء الدافق أمامي حيناً، وحركة ما يجري في خواطري وأحاسيسي حيناً آخر، وأنا جالس على أحد المقاعد على ضفاف النيل الأزرق في مدينة الخرطوم، والنيل ينساب في مشيته هادئاً كأنه صفحة المرآة

1- نشرت في «السياسة الأسبوعية»، العدد (246) ، 22 نوفمبر/تشرين الثاني - 1930.

المجلوّة، وعلى يميني في النهر بضع سفن بخارية، وأمامي الخرطوم بحري، وجزيرة «توتي»، وعلى شمالي مدينة أم درمان، يخيِّم عليها الصمت ويكسوها الليل ثوباً رقيقاً، ويُخَيَّل إليّ أن ذلك الشجر الحاني بعضه على بعض والذي يظلِّل شارع الشاطئ وذلك النهر الهادئ، بما فيه من قنطرة وأمامه من مدينة وجزيرة وما فوقه من سماء تحسبها لشدة زرقتها وانكفائها على حدود النيل أنها النيل، وأن النيل سماء.. صورة يمكن أخذها ووضعها في إطار التأمُّل فيها واستلهام الوحي منها!.. وخطرت سفينة من تلك المرصوصة، فحسبت -لأوَّل وهلة- أنها -لا شكّ- طامسة أثرَ ذلك الجمال، عابثة بذلك الهدوء الصامت مُتلفة لتلك الصورة الرائعة، ولكنها لم تصنع شيئاً من ذلك، بل أعطت الصورة لوناً، وزادتها حياة وبشراً، وما يُخَيَّل للرائي أنها سفينة تعبر نهراً، وإنما كأنها قلم يرسم خطّاً على صفحة، أو كأنها شهاب يشقّ عنان السماء في اتِّئاد وسرعة! عجباً لمنظر النيل ليلاً! ليس بعده جمال ولا جلال، وما يفوقه منظر مما رأيت سحراً وروعةً. وما تستجيش الخواطر ولا يصفو الذهن ولا يتألق الفكر ولا تكثر الذكريات وتغمر النفس فيضاً وحنيناً، مثل ما تفيض النفس في حضرة النيل، ويحنّ القلب، ويحلو في كلّ ذلك الشجو والحنين.

ظللت الساعات وأنا مأخوذ بسحر ذلك المنظر، في شبه صلاة روحية وخشوع فكري وجلالة تغمر النفس، وتخلع على الحياة شعراً، وتحيطها بالأطياف والأرواح، وتملؤها بأسرار النفوس وخفاياها! ويالقدرة منظر

كمنظر النيل على ابتعاث روافدها وزخر جميع تياراتها من حنين إلى المجهول، وشجو إلى الماضي، وتطلُّع إلى المستقبل المنظور!

ولم يظهر لي النيل في تلك الليلة كالشيء السائل المائي، وإنما هو بالتماسك أشبه، وإلى مادة كالزئبق أقرب، فما تشهد شيئاً من العنف أو من الاندفاق الظاهر، وإنما تشاهد العمق البعيد مُتَّشحاً بثوب الهدوء والسطحية البارزة، وتشاهد العَدْو السريع ولا تلمح شيئاً من آثاره ومظاهره، ولقد تسمع الوسوسة من حين لآخر بين نباتات المياه كأنما اشتدّت بها الوحشة، وكثر عليها الصمت والسكون! ولكن العالم غافٍ، وللعالم حرمة عندها، فتنطق في صوت خافت، وتهمس بدلاً من أن تفصح، ويعود الماء إلى سكونه ووحشته الجميلة، والعين لا تفتأ تنظر إليه ولا تتعب من ذلك، ولا تحسّ إعياءً ولا فتوراً. ولقد يقع حجر في النهر وسط ذلك السكون فيكون للصوت الذي يحدثه موسيقا لا تعثر عليها عند أعاظم أرباب الموسيقى والفنون! وأسأل أحياناً: من أين -يا ترى- تأتي هذه المياه؟ وإلى أين هي ذاهبة؟ أهي لا تفتر من هذه الحركة الدائمة والدائرة التي تنتهي لتبتدئ، وتبتدئ لتنتهي؟ إلى أين أيّتها المياه؟ ومن أين؟ ألا تفترين؟ ألا تسخطين؟ ألا تنتابك عوامل الضجر والسأم؟ فألمحها تسخر بي وتشفق عليّ، وعلى شفتيها ابتسام، وفي نفسها مرارة، وهي تهمس خوفاً من أن تسمع: «هكذا، هكذا، لقد نفذ القضاء، أليس من الحماقة والضيق والتأفُّف مما لا بدّ منه ولا محيد عنه، ونحن أبناء الحياة ولا شيء هنالك غيرها، أليس من

الخير أن نتحمّلها ونكون عند ظنها، ولا نفتر عنها؟ بل نحياها في أناة ورضاء وابتسام وادع مرير: «ذلك أحكم لو كنتم تعلمون». وكذلك تذهب المياه معزِّزة حديثها بالابتئاس والاصطخاب، ونسيانها للشعور بالنفس، وهزئها بشعور الملال والإعياء! والماء في جريه ووسوسته الدائمة يتخطّى المدن والبلدان راكضاً وادعاً، يمثِّل فلسفة الحياة، وكيف يجب أن يكون احتمالها والتغلُّب على شعور الملال ودواعي الإعياء والسخط.

ويأتي النيل الأبيض من الناحية الأخرى وهو أكثر زبداً وصخباً من النيل الأزرق، قد ترى موجه المزبد وآذيه المصطفق يتكسّر في عنف وشدّة على الشاطئ، حتى إذا التقى بالنيل الأزرق عند الخرطوم شَدَّ من أزره وأخذ يساعده، وتكاتف الاثنان معاً في مرحلة الحياة التي ليس لها أول ولا آخر، وهكذا يسيران وقد صارا نيلاً واحداً وقلّت وحشتهما وزاد أُنسهما، فتلمح نجواهما وشعورهما بالرضاء الوادع والحكمة الهادئة، وهما يندلفان في سير سريع ما سار الزمن وبقيت الحياة..!

وهذا الجمال ما شأنه؟ هذا الجمال الساهي الوادع الذي تستمرئه النفس لأوّل نظرة، ويفرح له اللبّ، وتجزل الروح، ماله يميل بذهني إلى خواطر محزونة، وصور مشجية؟ هذه السفن التي تنبسط أمامي أجلُّها في خوف! لعل السبب موت خال لي غريقاً في سفينة بخارية في النيل الأزرق. و«توتي» المنبسطة هي الأخرى أمامي، مالها تثير

في نفسي شجوناً حزيناً؟ وما لشجوها الكئيب الذي لم يبق له إلا أن يدمع؟ وما هذه الوحشة المخيفة؟ وما لرمالها الناصعة تبعث في نفسي الأسى والذكريات الأليمة؟.. وإنني لأذكر «توتي» وأذكر أياماً لي بها، وأذكر زرعها وأذكر مجدها، وأذكر تلك الخضرة ملء العين والبصر نهاراً، وهي الجلال والأطياف والخوف ليلاً. وأذكر، ويالشدة ما أذكر! أذكر أبي، وأذكر بيت أبي، أذكر ذلك البيت القائم وسط الزرع وحيداً لا أخ له، كالشارة الموسومة وسط ذلك الزرع الحافل! أين كلّ ذلك اليوم؟ لقد مات أبي واضمحلّ الزرع وتهدّم البيت، وما بقي منه سوى الجدران والتراب، وصار مأوى حيوانات ضارية، تسكنه الهوام، ويعمره الخراب الماثل للعيان.

وهذا الشارع الجميل المنسّق على ضفاف النيل الأزرق، ماذا يترك في نفسي من إحساس؟ لا تزال صورته التي رأيتها وأنا طفل في أمّ درمان مرسومة أمام ناظري، وهي صورة فيها من الحنين والشوق والقدم ما لا سبيل إلى وصفه. على أن ما الذي يعني العالم بخواطر حالم مثلي؟! وهؤلاء بعض الناس يتحدّثون في شغب،وقد خرجوا من دور السينما، وربما كان هنالك حفلة راقصة! وفي البحر حيتان، وفي الشجر أطيار نائمة، وغير هؤلاء وأولئك من أعمال متباينة، وحالات مختلفة. ماذا يعني كل هذا التناقض سوى طريق الحياة وشمولها وعدم معرفتها للسهولة، بل هي «الشدّة»، وهي القوة الغازية!؟ تلك هي أم درمان وادعة نائمة، ومن يدري ما بداخلها من المتناقضات ومختلف مظاهر

الحركة والسكون، وشتى مظاهر العاطفة والشجون؟ وإنني لأذكر النيل الأبيض وسفرتي فيه وأنا مازلت صبياً حدثاً، كيف نسيت نفسي في مرح وبساطة وأنا على السفين! كلّها ذكريات قويّة واضحة، تتسلَّل إلى ذاكرتي من حيث لا أشعر أنني في حاجة إلى «بروست»[1] آخر ليصف كل ما يجري في وعيي المستتر في تلك اللحظة من الزمان. إنها لتملأ مجلَّداً ضخماً وما تفنى! وإنني لأذكر ليالي المدرسة، وسماعي لذلك «البوري» الذي يهزّ كياني هزّاً، ويلعج نفسي، ويذكِّرها بمن مات من أهلي وأحبابي! ولا أدري أيّ علاقة لذلك الصوت وتلك الذكريات المحزونة! فلربّما لأن خالي كان ضابطاً، وأن ذلك «البوري» يضرب لعشاء الضباط، وخالي قد مات! وأنظر إلى يميني فأذكر ضواحي الخرطوم، وأذكر «برّي» بنوع خاص، لا أذكر «برّي» اليوم وإنما أذكر «برّي» التي لم أرَها بل سمعت عنها، وأصغيت إلى أناشيد الفتيات وأغانيهن في مدحها «بري الطراوة، والزول حلاوة». إن ذكر هذه الجملة ليُمثِل أمامي صوراً من الماضي قوية، حيّة كأشدّ ما تكون حياة وقوّة! يا لصور الماضي! ويا لشجوه وحنينه! أذكر شوقي إلى الماضي، وأذكر حنيني إلى المجهول، وأذكر شعور الاغتباط والجمال الفني الذي أشرف عليه عند مشاهدتي النيل في تلك الليلة، فأقول: يا للعجب! أتراني أودّ أن أعيش الماضي والحاضر والمستقبل في ساعة واحدة. يا لنهم الحياة، وطبع الإنسان، وعطش العواطف!

---

1- الإشارة إلى الكاتب الفرنسي مارسيل بروست مؤلّف «البحث عن الزمن الضائع».

فأنا الآن أذكر كل هذا، أذكر الليلة القمراء بأم درمان وأنا صبيّ ألعب، وأذكر مكاني من الخرطوم ومكان الخرطوم من الكرة الأرضية (إن صَحَّ أنها كرة)، أذكر الخرطوم وجمالها الساهي، وصفاءها الصامت ورونقها وأحلامها وصمتها وما يحيط بها من ضوضاء، وما يتّصل باسمها من أسماء تاريخية وهالات وحروب. وأذكر الحيتان في قعر النيل، وأذكر الشجر في وقفته الكئيبة ووحشته الدامعة، وأذكر عوالم أخرى شهدتها أو قرأت عنها، وأذكر أبي، وأذكر أختي التي فارقت هذه الحياة، وأذكر هؤلاء الراقصين القاصفين، وأذكر الجمال الماثل لعيني، وأذكر غير هؤلاء أشياء كثيرة لا صلة بينها ولا قرابة عندها! فأسأل نفسي: ماذا تعني كل هذه الأشياء؟ وليس من مجيب سوى أننا في هذه الحياة، وسنظل فيها إلى أبد الآبدين، لا نعرف عنها شيئاً يرتاح إليه الضمير، ويسكن عنده الخاطر. وإذ أنا في هذه الخواطر المسائية أشعر برعشة في جسمي، وأحسّ بدمعة في عيني فما أدري: أهذه الدمعة شعور بجذل الحياة، أم هي بكاء عليها؟. غير أنني أعرف أنني أذهب وأعمل بعد ذلك كما يذهب أناس كل يوم ويعملون!.

# مُثُل عليا [1]
# للحياة السودانية المقبلة

محمد أحمد محجوب

إن أمّة اضطربَ فيها سبيل الأدب، فلا فرق بين العارف والجاهل، وعمّت الفوضى حتى كادت تودي بالغثّ والسمين، وضَعُفَ نظام التعليم فيها، وضاق مداه إلى أن قارب الأمّيّة إن لم يندمج فيها، لَحَرِيّةٌ أن تكون هدفاً للويلات الاجتماعية، وأن تشكوها، وتسعى جهدها للخلاص منها ومما يعقبها. فإذا نظرنا إلى نظام الأسرة وجدنا المرأة جاهلة تحوطها جدران من الجهل والتقاليد، وإذا نظرنا إلى أخلاق الشبان هالتنا الهوّة السحيقة التي ينحدرون إليها واعين وغير واعين، وإذا تفقّدنا الكهول والشيوخ وجدناهم لاهين بأعباء الكبر وتكاليف العيش وخوف الموت عمّا تطلبه أمّتهم من جهودهم وما ترجوه من الاستفادة بتجاريبهم، وإذا تطلّعنا إلى المجالس والمنتديات وجدنا المؤمن يأكل لحم أخيه حيّاً، وألفينا الانقسام ينخر في صميم الأمّة ويهدِّد كيانها، ورأينا فتيان الحيّ يشغلهم التفكير في أشخاصهم الفانية عن التفكير في خير هذه الأمّة التي مازالت في سباتها تحاول فتح

1- نُشِرت بمجلة (الفجر)، المجلد الأول، العدد الثاني عشر في 16 نوفمبر - سنة 1934. وهذه المقالة هي القسم الثالث من سلسلة عن رأى المؤلف فيما ينبغي أن تكون عليه صورة الحياة السودانية المقبلة. وعنوان هذه المقالة «في الاجتماع والسياسة».

عينيها، فيروعها ما ترى بنيها عليه من محن تتلوها محن، وانقسام يتلوه انقسام.

ولقد تعاقبت على هذه الأمّة، في الآونة الأخيرة، ثلاث حكومات قبل هذه الحكومة الحالية[1]: أولاها مملكة الفونج. وكان الناس إذ ذاك تغمرهم موجة من الجهل؛ فلا الحاكم قادر على تسيير دفّة الحكم، ولا المحكوم بقادر على مساعدة الحاكم، وكانت ثمة فوضى يؤيِّدها الظلم ويحكم أمرها (إن كان للفوضى أمر فيحكم)، ثم جاء العهد التركي المصري فوقعت البلاد في قبضة الحاكم الأجنبي الذي لا يهمّه من أمرها إلا أن يستغل مالها ورجالها، فجعل الولاة الأتراك ينهبون الذهب نهباً، ويجنِّدون الفيلق تلو الفيلق ليزيدوا عدد جند والي مصر، وليدخلوا إلى جيشه عنصراً فيه من الميزات والقوّة ما يحتاجه ذلك الجيش. وتفشّى الظلم في البلاد، وكثر الضغط على الأهلين فأوهن القوى وأضعف الأخلاق، وعلى الأخصّ لأن ذلك العهد جاء عقب الحروب الأهلية التي أفنت الرجال، وتوتَّرت فيها علاقات القبائل، وتفرّقت الكلمة. ثم جاءت المهديّة لتنقذ الناس من فوضى الأخلاق ومن ظلم الحكّام، فكان لها ما أرادت في عهدها الأول، ولكن الجهل قعد بنيّاتها، وقضى في عهدها الأخير بأن تكون مثاراً للتفرُّق القبلي من جديد، وكان ضغط القائمين بالأمر سبباً في ضعف الأخلاق بعد أن بدأت تقوى، فساد الدسّ، وكثر الرياء، وخفَّتْ أحلام الرجال إلا

1 حكومة الحكم الثنائي.

الذين وُهبِوا قوّة في الإيمان وصبراً على الشدائد، وعرفوا أن ما قُدِّر سيكون، ولن تصيبهم من مصيبة إلا بإذن الله... وهكذا ترى كيف تجمَّعت العوامل واتَّحدت لتجعل من هذه الأمّة طعمة سائغة لكل غازٍ وكل مجتاح، ولتورّثها وهناً في الأخلاق وتفرُّقاً في الكلمة، وهي حكومة مغلوبة على أمرها، والحاكم، مهما حسنت نياته، فليس من الخير له أن ينبّه الأمّة إلى ضعفها فتقوّيه، وإلى تفريق الكلمة فيها لتعمل على اتّحادها!

ومستوى المعيشة ونوعها وملذّات الحياة ومطامعها، هل تلك مما يساعد على قيام حياة اجتماعية سعيدة؟ لا، فإن الفقر المدقع وجفاف الحياة حتى قاربت الكفاف أو هي حياة الكفاف بعينها، وفقدان الجمال الطبيعي والصناعي وعدم التفات الناس إلى النزر اليسير الباقي منه لأنهم في شغل عنه بحاجيات الأكل والشراب واللبس المتواضع، وما تبدهنا به الظروف من الأزمات المالية والأخلاقية، وما نقاسيه من كبت الأفكار لخوفنا حتى من أنفسنا ولفقدان الثقة حتى في الصديق الخلوص بل والأخ الشقيق، ولانعدام روح التعاون وروح التضحية وروح الإقدام بين الشباب، كل تلك العوامل فرادى ومجتمعة لا تزال تعمل على اضطراب الحياة الاجتماعية عندنا وجعلها تعسة غير موفَّقة، لا تنتج سوى الخراب عاجلاً أو آجلاً.

غير أن لهذا الشعب فضائله التي توارثها والتي لولاها ما احتمل عقابيل تلك الأدواء دون أن يفنى، ولأقمنا على جدثه مناحة. فإن الأريحية

العربية الفذّة والصبر على الشدائد حتى كاد ليكون جبناً وتبلُّداً في الشعور ورضاءً بالذلّ، وإن ما تكنّه الصدور من الشجاعة الخلقية والمحافظة على الأعراض وإراقة الدم في سبيل حمايتها، كل تلك الفضائل لاتزال عاملة على مقاومة الأمراض الاجتماعية التي تجتاحنا، وأصبحت تهدِّد مجتمعنا، على أن هذه الفضائل -بدورها- أخذت في النقصان والتدهور، ويُخشى عليها من الانقراض.

فالشبّان لا تجد عندهم من الأريحية والإباء ما عند آبائهم وأجدادهم، فهم يحجمون حتى عن مساعدة ذوي القربى، وقليل منهم من يفكِّر في أن له من الأعراض ما يجب أن يصان، والتقاليد الصالح منها وغير الصالح بدأنا نطرحها جانباً، ولا ننظر إليها إلا كبعض العاديات في زوايا المتاحف.

والآن، بعد أن استعرضنا ما لهذه الأمّة وما عليها، ورأينا العوامل التي اتَّحدت لتعمل على انهيار ركنها، والعوامل التي أخذت تقاوم حتى ضعفت، أو كادت تعجز عن أداء وظيفتها، فَلْنَرَ: ما هي طريق الإصلاح؟ وما المثل الأعلى الذي يحقّ علينا أن نضعه لحياتنا الاجتماعية ونتبعه؟والأسرة، في نظري، هي نواة الحياة الاجتماعية، فإذا كان نظام الأسرة مما يساعد على التعاون وفهم الواجبات قبل المطالبة بالحقوق، وكان مما يدعو إلى المساواة ورفع مستوى الحياة والتسامي بالمشاعر إلى المثل العليا والترفُّع عن الدنايا والمطامع الشخصية، فنحن -لا شكّ- سنظفر بحياة اجتماعية سعيدة تكفلها حياة سياسية مزدهرة.

والأسرة قوامها المرأة، والمرأة كما أسلفنا جاهلة، وفي حاجة إلى التعليم لتعرف واجباتها، ولتعرف كيف تربّي أطفالها وتغرس في نفوسهم حبّ بلادهم وحبّ الخير للإنسانية عامّة. وأنا عندما أقول بتعليم المرأة لا أريدها أن تعمل في الأسواق أو تدخل ميدان الوظائف الكتابية، ولكني أريدها زوجاً مدبِّرة وأمّاً تعنى بتربية الطفل، وترعى جسده وروحه، وتتكفّل بغذائه الجسمي والعقلي والخلقي. ولا أريدها سافرة متبرِّجة، ولكني أقول بمحافظتها على تقاليدها المرعية وعلى تقاليد وتعاليم دينها الحنيف، وأريدها ملاكاً يرفرف في جلسات الأسرة وليالي سمرها، يؤثِّر وجودها على الرجال حتى يكفّوا عن هذر القول ولغو الحديث، وحتى يحصروا همّهم في تخيُّر الألفاظ وتنميق العبارات فلا يجرحوا شعورها. ولأضرب لكم مثلاً على قوّة تأثير المرأة في المجتمعات، فإني أتحدث الإنجليزية مع الإنجليز وغير الإنجليز، وأهتمّ في بعض المواقف بلغتي وأصقلها، ولكني ما تحدَّثت إلى سيِّدة إنجليزية إلا ورأيت ألفاظي وتعابيري تتسامى، ورأيتني حريصاً في القول مقتصداً في الرأي، وشعرت بأني غير ذلك الرجل الذي يتحدّث مع الرجال أمثاله. وبعد البحث والاستقراء علمت أن للمرأة سلطاناً على الرجال يؤثِّر حتى في محادثاتهم وأعمالهم الأدبية.

وإذا تعلَّمت المرأة وقامت بواجبها،فإلى الشبان أسوق الحديث قبل الكهول والشيوخ: إن شبابنا أخذوا من مدنية الغرب القشور دون اللباب فتفانوا في السكر والميسر والفساد فأنساهم الشيطان ذكر ربّهم، وأخذوا

يفكِّرون في منافعهم الشخصية دون منفعة البلاد، وجعلوا يتبجَّحون بأن لهم حقوقاً، ونسوا أن عليهم واجبات. قال «جوزيف مازيني» عندما كان يدعو أبناء «إيطاليا الفتاة» لتحريرها كلمة إذا اتَّبعناها نجحنا في جميع مقاصدنا. وفحوى تلك الكلمة أن كل الثورات التي قامت نادى زعماؤها بِرَدّ الحقوق، ولكنه يقول لأبناء إيطاليا إن عليكم واجبات. «مازيني» لم يقل ذلك اعتباطاً، ولكنه كان يعلم حقّ العلم أن الرجل الذي يعرف واجباته ويؤدّيها على وجهها الأكمل سترد إليه حقوقه غير منقوصة دون أن يطالب بها، ولقد صدّقت الأيام زعمه، فتحرَّرت إيطاليا وغدت ملء العين والأذن، فواجب الشبّان أن يتّحدوا وينسوا أنفسهم وأن يتعمّقوا في المعرفة وأن تتنزّه اجتماعاتهم عن فضول الكلام وسافله، وأن تكون لهم جماعاتهم المنظّمة لمحاربة الفساد والأمّيّة ولرفع مستوى العلوم والفنون والآداب، وواجب الشبّان أن ينقذوا البلاد من ويلاتها، وأن يرفعوا مستوى الحياة الاقتصادية، ويساهموا في تكوين الأعمال الخيرية التي تخفِّف آلام الفقير وتكفل لأبنائه مستقبلاً زاهراً. وواجب الشبان أن ينادوا بمحو القبائل، وأن يقولوا إننا سودانيون، لا فرق بين أسودنا وأبيضنا، ولا فرق بين ساكن الشمال وساكن الجنوب!

وأما الكهول والشيوخ، وهم تراث أجيال مضت، فعندهم من الفضائل ما كاد ينقرض في الشبّان، ولهم من الأمراض ما أورثها لهم تعاقب تلك الحكومات الثلاث من دسّ ورياء يسمّونه دهاء، وما عندهم من

زعم بأنهم قاموا بواجبهم العام، وبقي عليهم أن يفكِّروا في تكاليف العيش، وأن ينشغلوا بأعباء الكبر وخوف الموت عن خدمة بلادهم وإفادتها بتجاريبهم، فإني أقول لهم: أنتم مسؤولون عن مستقبل البلاد وعليكم أن تكونوا مثالاً للشبّان، وأن تورثوهم ما عندكم من الفضائل، وأن تتجرَّدوا من أرائكم فتعملوا مخلصين لوجه الله والوطن، فإن من بلغ الأربعين أو جاوزها أولى بخدمة بلاده من سواه، وهو خليق أن يكفّ عن الدسّ وعن الرياء، فهو إن عمل في وضح النهار وإن جاهر بالحقّ فلن يصيبه أذى لأن له من السنّ شفيعاً، وإذا أصابه أذى من جرّاء تلك الصراحة، ومن أجل قول الحق فهو نعم الأذى وفيه خير العزاء لمن يطمع أن يرى بلاده متمتِّعة بما يرجوه لها من تقدُّم وعمران، فإلى ميدان العمل أيها الكهول والشيوخ، واحملوا علم الجهاد، ولكم من الشبّان خير جند.

أما مستوى المعيشة وملذّات الحياة والالتفات إلى نفحات الجمال وروائعه فهذه من حقِّنا إذا قمنا بواجبنا، وستكون موفورة للجميع إذا زال الانقسام وتمتَّعنا بالثقة فيما بيننا، وسادت بيننا روح التعاون والإخلاص وروح الإقدام والتضحية، وستكون لنا في القريب العاجل منتديات تفي برغائبنا، ونجد فيها مجالاً لتنفيذ خططنا وتحقيق أحلامنا.

والآن، لأجملْ ما فصَّلت فأقول: إن المثل الأعلى للحياة الاجتماعية أن تكون لنا أسرة صحيحة تديرها امرأة متعلِّمة، وأن يعرف الشبّان

واجباتهم قبل أن يطالبوا بحقوقهم وأن تَتَّحد كلمتهم، وأن يفنى نظام القبائل، وأن يتقدَّم الكهول والشيوخ إلى ميدان العمل ويحملوا علم الجهاد، وأن يضحّوا بالبقية الباقية من أيّامهم وحياتهم في سبيل الله والوطن، ولكني أراك -أيّها القارئ- تسألني: ما هو المثل الأعلى للحياة السياسية؟ لأن عنوان المقال يدلّ على أني سأحدّثك في ذلك الشأن، وجوابي هو أن السياسة لم يأتِ الأوان لنتحدث عنها ما دامت مقدِّماتها من تعليم وحياة أدبية واجتماعية ناقصة، وما دمت أنا مكتوف اليدين حبيس اللسان.

ولو أن المجالَ مجالَ سردٍ    لأطلقت اللسانَ بما يزينُ
ولكنّ اللسانَ له قيُود    فمهلًا، سوف تطلقه السنون!

# بين مصر والسودان[1]

# في سبيل التعارف الأدبي

التيجاني يوسف بشير

هذا عنوان استقلَّت به السياسة واستأثرت به الدوائر، فلا يطلق إلا حيث يراد به معالجته هذا الحدث الهامّ بين القُطرين، وإلا حيث يصرف على وجه الحكم والسلطان والرغبة الاستعمارية، ولقد ظلَّ زمناً طويلاً وقفاً على هذه السياسة العابثة بأسمى حرمات العلم والأدب، فما تحسّ له وجوداً في غير دار المندوب.

ولو قد أردنا أن نخلص به من مظان السياسة ومضيق السلطة إلى حيث يتنفّس هواء حرّية (العناوين) لكان هناك متّسع من العلائق الأدبية السامية تفسح له منها مكاناً لا يتطرَّق إلى كرامته فيها شيء من هذا العبث البغيض. وإنا لنرجو أن يكون قد انقضى ذلك الزمن الذي لم يكن يُنظَر إلى السودان فيه إلا من وراء هذه المطامع الفانية وحدها، ولعل مصر نفسها لا تعود تنظر إليه النظرة المحدودة الضيِّقة. ولئن كان السودان، من قبل، بلداً ليس له مكان إلا في صحيفة المستعمرات أو

1- نُشِرت بمجلة (الفجر) المجلد الأول - العدد 16، غرة فبراير 1935 ص (724). وضمت كتاب (التيجاني يوسف بشير السفر الأول: الأثار النثرية الكاملة)؛ والذي اضطلع بإعداده محمد عبدالحي وبكري بشير. ثم نُشِر عام 1978.

سلّة المهملات، فليس هو الآن ذلك البلد الأخرس الذي تدور حوله صفقة الاستعمار وهو يبتسم، ليس لأنه استكمل في نفسه عناصر الثورة، أو استجمع في قوّته مدافع الحروب، ودوارئ الأطماع، ولكنه الشعور بالوجود وكفى، ولكنه الانقلاب التاريخي العظيم الذي تمهِّد له الثقافة، وتشقّ له الآداب في حياة هذا الشعب ليأخذ بحقيقة الحياة. أفليس هذا وحده بكاف أن يحمل السياسة كي تغيِّر من نظرتها إليه، تلك النظرة القاصرة العمياء؟

وما نريد أن نطمس على الاستعمار في كلمة، أو نأتي على السلطان في مقال. ولو قد استطعنا أن نفعل لما أبطأ قلم في تحقيق ذلك، غير أنا لا نكاد نفهم تفسيراً لأن تستغلّ السياسة اسم هذا البلد استغلالاً جامداً مقصوراً على ما تدعو إليه الأطماع وحسب. صحيح، لقد كان في وداعة السودان وجهله من قبل مدعاة لهذا التحيُّف ومجلبة إلى اعتباره شيئاً لا مكان له من الإعراب السياسي المحترم، فهو مبنيّ على غير حركة الانقلاب، جامد لا يتصرّف في منطق الحكم. أما هو اليوم فلقد عرف منزلته من الإنسانية الحرّة المهذّبة، عرف طريقه إلى كل ما ينبغي أن تعرفه الشعوب، فلا معنى لإغفال ناحيته العلمية والأدبية حتى في هذه الأيام التي يعمل جاهداً فيها ليخلق من نوابغ شبابه قادةً للفكر. أفلم تكن هذه الناحية -إذاً- خليقة بالعناية من كل ما تدفع به السياسة من منطق القوّة الغاشمة؟ وإن جهلت مصر ما بينها وبين السودان من علائق أخرى جديرة باهتمامها غير مالها من علائق سياسية بـ «سوداننا

العزيز»، فنحن ما نزال مقدِّرين لهذه العلائق مكبرين مصر وما يربطنا بها من منازع الثقافة وأثر التفكير المصري الذي سيظلّ خالداً في تاريخ أدبنا السوداني الحديث.

فخير لنا ولمصر الأدبية أن نُعنى بهذه الروابط وأن نوثِّق بين هذين البلدين وشائج المعرفة الأدبية الصحيحة. خير لنا ولمصر أن نهيِّئ للتاريخ مادّته من هذه النواحي الخالدة، وأن نعتدّ له بأسمى العناصر الروحية ليتهيّأ بها إلى كتابة ما شاء من فصول. أما مصر السياسية فليس لدينا ما نقوله لها اليوم أو غد أو بعد غد. ولكن، بحسبها أن تعلم أن هذا العَلَم الذي يخفق في قلب العاصمة، والذي مايزال يرفّ ويدفّ في هذه المراكز المتواضعة جاهداً مكدوداً في إطراقته الحزينة ليس هو الآن كما تحسّه مصر، لقد نسيه الناس. أجل لقد نسيه الناس، فخير لنا ولها أن نرفع بجانبه (إن لم نقل في مكانه) عَلَماً آخر من ألوية العلم الخالد. وخير لنا ولها ألا يضيق هذا «العنوان» عن محض الروابط العلمية الخالصة من غواشي الحكومة وشوائب الدولة، وما ينبغي إلا أن يضيق عن كل ما عدا ذلك فلا يتّسع لأكثر من هذه الصلات، على أن مصر، وقد نهضت وقتاً ما بحكم هذه البلاد، فليست هي بأوضح أثراً ولا أثبت علماً إلا في هذه الأجواء الأدبية، إذ إن أثر الثقافة المصرية في السودان هو وحده ما سيحفظ لمصر أثرها فيه يوم لا يبقى إلا هو قوياً واضحاً في مذكِّرة الأيام.

ذلك هو حديث الأدب إلى مصر لا حديث السياسة، فتلك لغة -أي

والله- نحن أشدّ جهلاً بها من كل مخلوق آخر، فإذا استطعنا أن نخلص بهذا «العنوان» إلى ما نريد أن نخلص به إليه، وأن نفهمه صريحاً سهلاً لا تعقُّد فيه ولا التواء، وأن نحرضه بماء «النيل» من كل ما علق به من الأوضار «الرسمية» فقد استطعنا أن نوجد بين القطرين روح التفاهم الأدبي الصحيح الذي لم نكن في ساعة ما أشدّ حاجة إلى غيره منه، فليأخذ أدباء الشباب المصري في سبيل التعارف الأدبي مع إخوانهم أدباء الشباب السوداني، وليتركوا للسياسة طريقها تسلك فيه ما شاءت في موكب من الحرس وكوكبة من حَفَظة النظام.

إن الشباب وحده هو خالق التاريخ، وفي حركة الشباب الآن حياة المستقبل من بعد، وهو الكفيل بتمزيق هذه الفواصل حتى تتوحّد الجهود، وتتكاثف الجهود، وتتكاتف الأقلام، ويفهم كلٌّ أخاه، فلا نعود نرى أو نسمع أن مصرياً مثقّفاً يجهل كم عدد الصحف والمجلّات التي تصدر في السودان، في حين يجرح في وجودنا أن تستفسر عن ذلك مجلّة مصرية نحن أكثر الناس تشجيعاً لها، وهي مع ذلك لا تعرف من صحفنا إلا «الحضارة»، أفيصحّ أن يصل الأمر إلى مثل ذلك يا مصر؟

منذ زمن بعيد ونحن نسعى لنحقِّق من الحياة الأدبية أسمى ما يطمح إليه العصر، ونجدّ لنبتعث من شبابنا أقوى الشخصيات وأخصب العقول، وما كان ليعوزنا كي نخلق هذه الشخصيات إلا أن نساير حركة العالم الفكرية في مثل ما يتطلَّب من نشاط ويستلزم من مرونة ويُفتَرَض

من يقظة. أجل، وما كان لينقصنا شيء مما يكون هذه النفوس إلا أن يُعنى بنا العالم الشرقي وحده فيقرأ ما نكتب، وينقد ما ننتج، وإلا أن تُعنى بنا مصر وصحف مصر خاصة، فتأخذ هذه الأقلام التي تحسب أن صريرها يصمّ آذان العالم، أو تحلم أنه قريب من ذلك، وما يمنعها أن تحسب وأن تحلم؟ ثم ما يمنع أن يكون حقيقة ما تحسب وما تحلم، إذا قُدِّر لها أن تنال نصيبها من عناية الشعوب، وإذا بها لا تكاد تعرف كأنما تعمل في كهف.

قلنا: ما ينقصنا قوّة في الأدب ولا سموّ في التفكير ولا شيء من مؤثِّرات العظمة الأدبية إلا أن تبرز هذه الأقلام المجهولة حتى في مصر، ولعلها إن أُتيحَ لها أن تتنفّس قليلاً أن تكون أبلغ أثراً مما كنّا نعدّه حلماً أبعد شيء عن الواقع، وما الذي يمنع شيئاً من هذا أن يحصل أيضاً؟ بل من الواجب المفروض ألا تبطئ عن اللحاق بأقلام ربّما تكون ذهباً لا قصباً، أو ربّما تكون شيئاً أكرم على الحياة مما يكون النضار، إن كان في مثل هذا عبرة في الإنتاج، وما بها حاجة إلى التزكية والإطراء، ولكن ما يؤلمنا -حقاً- هو أن نظلّ مجهولين هكذا من ناحيتنا الأدبية حتى في الأقطار الشقيقة، وإذا تغاضينا عن كل هذه الأقطار، فما يكون عذر مصر في جهلها بنا جهلاً تاماً؟ ليس من تلك الناحية وحدها بل في كثير من النواحي غيرها، الأمر الذي يقدح في شأنها قدحاً بليغاً لايزكو معه أن تنطلق باسم هذه الأصقاع مرّة أخرى في لهجة الذي ما يفتأ يخفق علمه هنا في صميم البلاد.. ذلك العلم

الذي نسيه الناس بعدما كثرت في هذه البلاد أعلام شيوخ الطريقة.

كلّنا في الشرق - أيّها المصريون - مَعْقد رجاء الشرق. فمثل واجبنا نحوه واجبكم له، ومثل حظّنا فيه حظّكم منه، فنحن سواسية فيه، سواسية في أسمى ما يفتخر به الشرق وفي تحمُّل تبعة كل ما يضيق به الشرق. فلتكن هذه أول مرّة للتعارف الصحيح بين القُطرين، وهو إن قام على ما نرجو أن يقوم عليه فسيؤتي أكله الأدبي طيباً بإذن الله، وإذا استَلْفَتْنا اليوم نظر أدباء الشباب المصري فإنما ندعوهم، قبل كل شيء، لتوثيق الروابط الأدبية بين (مصر والسودان)، وأن يقوم التعارف الأدبي المتين بين شباب القُطرين اللذين نرجو أن يوجد بينهما ذلك التجاوب الأدبي، وهو وحده ما ندعو إليه.

وعفا الله عن ما سلف. فليعلم من في الكنانة الخضراء أن في هذا البلد السحيق المترامي الأطراف الأشعث الأغبر قلوباً كبيرة طموحة، ونفوساً متعطِّشة للعلم والعرفان.

وليعلم من في الكنانة أن في السودان شباباً وفيه أدباً، وفي أدبه لذّة، وفيه متعة، وأنهم لم تعد تتكسّر عنهم الجبال فيخرجون منها، وإنما تدفع بهم السماء فيهبطون منها إلى الأرض لينهضوا برسالة الأدب إلى الأدب، وليفضوا إلى التاريخ بما يجب أن يعرفه عنهم التاريخ.

# من مذكِّرات أغبش[1]

## عبدالله رجب

...وسلَّموا ثلاثتنا خطاباً معنوناً بـ: إلى الميجر جراهام نائب قائد المهندسين الملكيين (سي آر آي) في سنار، وسفَّرونا على لوري تابع للجيش. وفي سنار أوينا إلى أحد معارفنا وجعلنا نذهب إلى ورشة الجيش فلا نجد الميجر جريم (كما ينطقونها)، وبعد تردُّد ثلاثة أيام قيل لنا إنه يأتي في السادسة صباحاً فيوزِّع الأعمال، ثم يذهب إلى أمكنة العمل للتفتيش، فاتَّفقنا على أن نأتي في هذا الموعد الباكر في اليوم التالي، ولكي ننجح في التبكير كان لابدّ أن نتملَّص من الضيافة، فاتَّفق رأينا على المبيت في العراء بجوار كراكات الري المهجورة، مع العدد العديد من المتشرِّدين على مسافة قريبة من ورشة الجيش تلك، وكان مبيتا شعرياً على أكوام الحصى الذي يلمع في ضوء القمر، ويغازل الضلوع!

وبكرنا في الصباح بعد أن صلَّينا بالتيمُّم، وقابلنا الميجر جريم وسلَّمناه

1- هي منكِّرات الأستاذ عبدالله رجب الذي أسَّس جريدة (الصراحة)، وكان رئيساً لتحريرها، وقد عرفت (الصراحة) بالتزامها جانب الشعب، كما كان ينطق شعارها، ولها دور بارز في مجابهة الاستعمار والرجعية وأدواء المجتمع. نشرت هذه الحلقة في (الصراحة) يوم 2 يوليو- 1954.

توصية مفتِّش المركز الإنجليزي التي زوَّدنا بها المأمور السوداني، وكان أحدنا قد كتب خطاباً طويلاً باللغة الإنجليزية، كنا نعيد كتابته، في كل يوم مرَّة أو مرَّتين وضَّحنا فيه استعدادنا لخدمة قوات الديموقراطية التي تطارد الفاشية!

وكان الميجر جريم رجلاً عملياً من نوع فريد، قال لنا: تسافرون اليوم بعد ساعة، فجرينا إلى السوق كي نحضر (هدومنا) من الغسّال ومن بيت الضيافة، وجئنا في الميعاد دون أن نتناول شاياً أو إفطاراً، فحملتنا سيارة «ركوبة» فخمة كانت تعمل بالتاكسي في مدني، واستأجروها في الجيش، حملتنا من سنار إلى الرصيرص وكنا نشعر بعزة لم نألفها من قبل، وكان كل منا يشرد مع خواطره، ويبدو لي أن خواطرنا جميعاً كانت تلتقي في أننا صرنا مع الحكام والناس العظام، وكان أحدنا (ترزيّاً) فلعله في ذلك اليوم كان قد قَلَّلَ حياءه إزاء كل من نبي الله إدريس الذي تقول الأساطير إنه اخترع سمّ الخياط، وشركة ماكينات الفقر في السودان. أما الاثنان الآخران فلاشكّ أن كلاً منهما قد جعل يسبّ التجار والاتّجار، ويهدِّد -من هذا القبيل- بالتنكيل يوم تؤول إليه ملكية الحكم في السودان.

وحينما وصلت العربة إلى الرصيرص ليلاً، واجهنا الواقع برداءته، ولم يكن هناك حكّام ولا طبول في انتظارنا، ولم نجد مطبخاً مفتوحاً في السوق نأكل فيه، أما عن المبيت فقد أوينا إلى المدرسة الأولية، وكانت كرنكاً أو جوسقاً مشيداً من القصب، ونمنا على برش الطلبة،

وجعلنا ننكرش طوال الليل من عضّ النمال خصوصاً، وقد كان البناء على الرمال قد أطار النوم من أجفاننا.

وفي الصباح سلّمنا خطاب الميجر جريم إلى جاويش فرقة المهندسين المسؤول عن العمل بالرصيرص الذي استبقى الزميلين بالرصيرص نفسها لمراقبة العمل في المطار، وبعث بي مع مجموعة من العمّال لإصلاح الطريق المؤدِّية إلى (قبا) في منطقة بني شنقول السودانية التي تقع تحت إدارة الحبشة.

وكانت اللواري التي تحملنا تحمل معنا وقودها من البنزين، ووقودنا من دقيق الذرة، وعشنا في الخلاء أياماً في عزلة لم نجد فيها لبناً ولا سكّراً، ولكن العمال كانوا مستعدّين، وقد وجدت بينهم من يكرمني، ولما فرغ السكّر استطاع بعضهم أن يشتري عسل النحل من الغابة، فكنا نحلّي به الشاي، لا على أنه «كيف» بل على أنه غذاء، وجاءتنا أوامر عسكرية سريعة بالتوجُّه إلى قبا للعمل مع قوة أكبر من قوتنا في إصلاح طريق في داخلية الحبشة نفسها يؤدي إلى «دبرتابور» على مفترح الطرق بين أديس أبابا، وولاية قجام، على مقربة من بحيرة تانا.. وهذه المعلومات الجغرافية التي أخذناها من مهندس الجيش من طبقة الجاويشية والأونباشية لا علم لي بصحتها، ولكنها أنعشت لدينا الآمال في الحصول على النفوذ والبروز.

وفي الطريق عسكرنا لنسوط «بني كربو» وهي العصيدة الخلوية التي

تصنع من دقيق الذرة في صفائح البنزين.

وجلس العمال يسمرون، وبعضهم يضربون الرمل أي يستنطقون الغيب بخطوط سحرية على التراب، فقال ضارب الرمل إننا سوف نقاسي ألوان العذاب في هذه الرحلة ونعود بلا فائدة..

وكان الزميل الثاني قد افترق عني وهو ينتظرني مع القوة الكبرى الموجودة بقبا.. وهناك وجدت زميلاً رابعاً، وعلمت أنه قد وشى بي سلفاً إلى اللفتنانت الإنجليزي وسكرتيره الحبشي - الإغريقي وشيخ العمال التعيشي!

ووصلنا في موعد راحة الغداء وأنزل العمّال صفحائهم، وأوقدوا نيرانهم، بينما أويت إلى الأفندية وأكلت معهم وجبة من النوع نفسه، ولكنها كانت تحتوي على كمية مبالغ فيها من الزيت والعدس والبصل (هذه هي مواد الترف في المعسكرات الخلوية للسودانيين)، ثم شربت كوباً كبيراً من الشاي المحلّى جيداً بسكّر البغيتة.. وكدت أتهالك فأنام لولا أن سمعت لغطاً بين العمال، ونهضت لأرى الشيخ التعيشي يحمل سوطاً وهو يضربهم بلا تمييز آمراً إياهم بالصعود إلى اللواري قبل أن يتغدّوا، فسرت إليه ونازعته السوط، فقال بغضب: «هذه منطقة عسكرية يمكن فيها الضرب بالسوط بل بالرصاص، وقال لي إنه سمع عن مشاغبتي وإني سأعود إلى السودان مقيّداً بالسلاسل، فضحكت وسخرت منه، وركبت مع عمّال إلى معسكرنا الجديد حيث كُلِّفنا

بصنع جسر بدائي على أحد الخيران[1]، وفي الليل تآمر العمال على ضرب الشيخ التعيشي، إذا جرؤ على ضرب أحدهم. وفي الصباح جاء اللفتنانت ومعه التعيشي فوجداني بالكامب- المعسكر- أؤدّي عملاً كتابياً لمصلحة العمل نفسه. فخاشَناني، وقالا إن واجبي أن أقف مع العمال وأخذاني معهما. وفي مكان العمل لم يحافظ الشيخ على وقاره فتقدّم منه جماعة يحملون (الطواري) وكادوا يقتلونه، فهرب الشيخ وخواجته، وبعد ساعة جاءوا بقوّة من دفاع السودان، وأخذوا أربعة من العمّال على الشبهة، وكنت خامسهم، إلى معسكر الجيش، وشكَّلوا لنا مجلساً عسكرياً، وكان حكمهم هو الجلد للعمّال الأربعة مع إيقاف التنفيذ خوفاً من الفتنة. وكان القاضي بمباشي إنجليزي في قوّة دفاع السودان، يجلس معه على منصّة القضاء اللفتنانت التابع للمهندسين الملكيين الذي نعدّه خصمنا، أما حكم المجلس العسكري إزاء الكاتب الذي هو أنا، فهو أن لا أعود إطلاقاً إلى العمّال، وأن أُسجَن في معسكر الجيش حتى يقوم (الكونفوي)، أي قافلة السيارات، إلى الرصيرص فيرجع معها. وفعلاً حبسوني وكان في المعسكر كاتب حبشي أكرمني، وشربت عنده قهوة بُنّ لأول مرّة منذ أسابيع.

وفي المساء توجّهت إلى البمباشي، وقدَّمت إليه طلباً مكتوباً أرجوه فيه السماح لي بالعودة إلى معسكر العمّال كي أستردّ فراشي، فكتب لي - وكانت أمامه زجاجة ويسكي جون هيج - في ورقتي نفسها:

---

1- الجداول

«أرخِّص لك بالتغيُّب ساعتين»، فخرجت منه إلى الظلام، وكانت الغابة ساكنة إلا من أصوات القرود، الوحوش الوحيدة التي رأيناها في المنطقة. ولم يكن معي من سلاح إلا غصن شجرة كسرته وشذَّبت مقبضه فقط.. وتعشّيت مع أصدقائي العمال»، وتباروا في الاحتفال بوداعي حيث شربت أكثر ما يمكن من أكواب الشاي، وأكلت ثمار الغاب ومنها «الجوغان»، كما حمّلوني الزنجبيل الذي كشفوا عروقه تحت الأرض، وهم يمهّدون الطريق أمام الاستعمار، وسلّموني خطاباً مختوماً تلصَّصت فقرأته، وكان يحتوي أني مفصول (دسمسد) دون إيراد أسباب.

وفي الطريق إلى الرصيرص كنت أركب إحدى سيارات الجيش الخالية يقودها سودانيون، وحينما عسكروا للطعام نسوني، فاشتريت من قبا (لوبياء عدسية) صنعت منها بليلة في قرية ود الماحي، حينما عسكرنا للمبيت، ولم تنضج بسرعة حيث سهرت إلى جانبها أنفخ النار إلى منتصف الليل.

# العرب في شرق إفريقيا

## جمال محمد أحمد

إفريقيا السوداء، فالحديث كله هنا، وفي الكتاب[1]، يدور حول إفريقيا جنوب الصحارى، كما كانوا يعبِّرون، تمييزاً لها عن إفريقيا العربية في الشمال.

لو لم تكن لهذا الكتاب حسنة غير إبراز دور العرب في اكتشاف إفريقيا وحياتها، لاستحقّ عناية القارئ العربي، ولاستحقَّ عناء تعريبه، ذلك أننا لا نعرف إلا القليل من هذا الجانب المضيء المشرق من حيوية العرب على عهودهم الزهر. لهم في إفريقيا تاريخ يمتدّ إلى صبا الزمان أوّل الدهر، أشار إليه الرحّالة الإغريقي «Periplus» مؤلِّف كتاب «الكشّاف البحري» في القرن الأول الميلادي، حين كتب يعجب لكثرة السفن العربية على الساحل الشرقي للقارة، ويشيد بقدرة العرب على العيش الجميل مع الأهلين حتى في ذلك الزمان البعيد، يتزاوجون فتختلط الأنساب، ولا يجد الخصام سبيلاً بينهم وبين القوم، يعرفون

1 هذه مقدمة للترجمة العربية لكتاب «بازل ديفسون» «إفريقيا تحت أضواء جديدة»، نشرته دار الثقافة في بيروت (1961). قام بترجمته إلى العربية الأستاذ جمال محمد أحمد.

لغاتهم ويتطلّع هؤلاء للتعرُّف إلى لغتهم التي كانت تفتح لهم آفاق التجارة والثقافة، ويمارسون ما لا يأبون من عادات القبائل، تجيء سفنهم من الجزيرة العربية ومن كل صوب في المحيط الهندي بالخناجر والرماح والزجاج، وتقلع من لدنهم تحمل العاج وقرون الخرتيت وجلود السلحفاة وزيت النارجيل. رأى الرحالة الإغريقي في القرن الأول الميلادي عيشاً رافهاً آمناً بعضه من بعض، ولم يجد الرؤساء في الإقليم الإغريقي حرجاً من التضامن مع كل ملك يحكم الجزيرة العربية، ولم يحسّوا في هذا التضامن غير المتكافئ تبعيةً يكرهونها أو شعوراً بتحقير. عرف التجار من جنوب الجزيرة -إذاً- ساحل القارة وبضعاً طيِّباً من داخلها منذ كانت تجارةٌ وتجّار في الإقليمين، كما عرف رحّالة القرون الوسطى أشطاراً من غرب إفريقيا ووسطها معرفة، هي اليوم نقطة البدء في تاريخ القارة على عهد الوسيط، وقد تصدّى دافدسن لهذا الجانب على نحو جدير بقرّاء العرب أن يتدبَّروه، وأن يتابعوا الذي لم يجد له المؤلِّف فسحة في فصوله.

ويصمت التاريخ كلّه، لا العربي وحده، بعد رحلة صاحب «الكشاف البحري» وتمضي الحياة بالعرب والإفريقيين عن أعين الراصدين، لا يغير أنموذجَ التجارة والحياة فيها شيء، حتى يتدفّق على الساحل المهاجرون العرب بعد وفاة الرسول حين تضطرب الحال بينهم في بلادهم، فلا يقدر عليها إلا المحاربون من أجل شيء عزيز قريب إلى نفوسهم. يفد طلّاب السلامة والأمن والرخاء هؤلاء، ويجدون

لمواهبهم التجارية والثقافية مجالاً أحدث أثره، لا على الساحل وحده بل على الحياة في البلاد العربية: تزخر مثلاً أسواقهم في القرن الثامن بمصنوعات الحديد من زمبابوي في أعماق القارة الإفريقية، تَرِد على الدواب عبر ذلك القفر في روديسيا الحديثة لتحملها مراكب العرب إلى كل مكان في بلادهم البعيدة، ويدلّ على هذا النشاط الجديد بين القارة والجزيرة أيضاً كثرة الزنوج في بلاد العروبة: كان «لا يفقد غائبهم» في الحروب أيام ثورتهم على دهاقينهم في فرات البصرة «كلما قتل منهم قتيل سَدَّ مسدّه غيره، فلا يظهر أثر فقده» كما يقول ابن أبي الحديد في حديثه عن ثورة الزنوج. وتكاثر العرب على الساحل فامتدّ سلطانهم في القرن العاشر من القرن الإفريقي قبالة جنوب الجزيرة حتى إسفالا قرب واق الواق الشهيرة شهرة الأساطير. ولا غرابة، فقد كانت قصص ألف ليلة وليلة تتجمّع في ذلك العهد، وبعضها استوحِيَ -ولا شكّ- من رحلات العرب الجريئة في هذا الإقليم، ويقودك الأهلون حتى يومنا هذا إلى صخرة في مالندي يؤمنون بأنها صخرة السندباد. وفي القرن العاشر هذا الذي نتحدّث عنه وصل على بن الحسين جزيرة كلوا قرب دار السلام الحديثة، وظلَّ خلفاؤه على عرشها حتى القرن السادس عشر حين تغلَّب عليهم البرتغاليون.

وتدخل القارة هنا التاريخ مرة أخرى بعد مؤلّف «الكشاف البحري» على يد الإدريسي في القرن السادس عشر؛ رسم هذا الجغرافي الجليل أول خريطة لإفريقيا عرفها التجّار والملوك في القارّة الأوروبية، لم ير

هؤلاء بطليموس في القرن الثالث، وكانت هذه أدقّ وأشمل، تعزِّزها كتابات عن تعدين الذهب والحديد في إسفالا قرب واق الواق، وفي مدن الداخل، ولم يكن عسيراً على الإدريسي أن يجمع ما جمع من حقائق ألهبت خيال قارئيه. فقد كان الساحل كله آنذاك منازل يقطنها العرب مثل جيدي التي اشتهرت في نهاية القرن الذي كان يكتب فيه الإدريسي، ولم تبقَ نقطة على الساحل لا تنتمي إلى العرب، حين جاءت موجة من مهاجريهم في القرن الثالث عشر، وقد اجتاح المغول دار الإسلام حتى الفرات، لَحِقَ هؤلاء بأهليهم على الشاطئ وجاءوا بدم جديد دافق ظهرت آثاره في عماراتهم الزاهرة وأسواقهم النافقة التي وصفها ابن بطوطة حين جاء الإقليم في الربع الأول من القرن الرابع عشر، وكانت حيوية عصيّة عجزت هجمات البرتغاليين سنة 1498 عن أن تفلّ من حديدها، مضوا يردّون هجمات الواغلين بِيَد، ويبنون باليد الأخرى، كما ترى اليوم من بقاياهم في خليفي وكلوا. ظلّوا على هذه الحال حتى سنة 1521 حين استحال التعمير، وقد قويت يد البرتغال ووهنت يدهم، وما كانت لِتَهِنَ لولا تفوُّق هؤلاء في السلاح، وتنازُع الأمر بين قادة العرب.

ألقت مراكب البرتغاليين مراسيها على الساحل في السابع من إبريل/ نيسان سنة 1498، ولقوا من العرب وأحلافهم الأهلين كلّ عون وودّ إلى أن بان لهؤلاء ما يضمر الواغلون، أدركوا أنهم يريدون الانقضاض على تجارتهم، فتحوَّل الودّ عداءً مسلَّحاً بعد عشرين عاماً من العيش

الخادع، وتمكَّن البرتغاليون من الساحل مئتي عام، آلت إليهم فيها خيراته وخيرات الداخل، وإن لم يسكن العرب على هزيمتهم: كان العمانيون من حين إلى حين يسعون لاسترداد ما كان لهم، حتى نجحوا مرّة في حصار قلعة ممبسا الضخمة، التي تحتلّ قلب المدينة حتى يومنا الراهن. ومضت ثلاثة وثلاثون شهراً على هذه الحال بين 1696 و1698. ولولا خلافهم لاستعادوا أرضهم، ولم يصبروا حتى منتصف القرن الثامن عشر حين استطاعوا، بهجمة عازمة قادرة، إخراج البرتغاليين من الساحل، وإن لم يستطيعوا رأب صدعهم إلا بعد خمسين عاماً من هذا التاريخ. كثر المتطلِّعون إلى السلطات والقياد بعد أن رحل العدو، وكثرت حروبهم الصغيرة حتى جاء عمان السيد سعيد سنة 1804، وقضى على الدعاة والطامحين بشدّة مراسه وبعون أحلافه من الإنجليز، وفي سنة 1832 نقل عرشه إلى زنجبار حيث يحكم أبناؤه اليوم في ظلّ الحليف الذي ملك الأمر كلّه من بعد. وبالسيد سعيد يبدأ عهد جديد في اكتشاف القارة، إذ تيسَّر بعده أن يسافر الأوروبيون إلى الداخل يحرسهم أمنه الذي نشره في الإقليم من جزيرته القريبة.

## العرب في أواسط إفريقيا

هذه قصّة من أروع الصفحات في التاريخ الإفريقي كله أو التاريخ العربي في إفريقيا، وليس بعيداً أن يتفرَّغ لها، يوماً من الأيام، طلّاب هذا أو ذاك من شباب العرب، فيقتفوا آثار هذا الأندلس الإفريقي قبل أن تعفي عليه رمال الأيام، أو تدخل هذه الكتب والمذكِّرات

والرسائل العديدة التي كتبها الرّحالة والمبشِّرون والقناصل الأوروبيون ضمير العالم كله على أنها وحدها هي سجلّ الحوادث هناك، وما هي - حتماً- كذلك. كتبت كلّها بأعينهم، وكان صعباً عليها أن ترى حسنة في العرب، فقد التقوا هناك في زمان جاهَرَ فيه كلُّ جانب أخاه بالعداء، بعد أن عجزت المخاتلة والمداورة بينهما عن أن تحفظا السلم، وما ندري أية جهة سيتّجه هذا الشباب ليكتب هذا التاريخ بعين العرب أيضاً، فقد كانت الأندلس الإفريقية - فيما نعرف الآن - أمّيّة لا تكتب؛ عاش فيها رجال أخطروا أنفسهم أخطاراً، تلوح صورهم خلال كتابات الأوروبيين زاهية مليئة بالألوان تغريك بالبحث، أفراد من الناس اقتحموا هذه المجاهل «من يوغندا في الشمال إلى نياسا في الجنوب»، وأذاعوا الذعر «من نياسا في الجنوب إلى سواكن في الشمال» لا تسندهم حكومة ولا تعضدهم جماعة: سعيد بن جمعة، سالم محمود بن خميس بن بهلول، وعشرات غيرهم من أهل التجارة والسياسة في إقليم يوغندا الحديث، ومحط بن خلفان، وبوانا عمر، والشريف ماجد وعشرات غيرهم من أهل الحذق والمال في نياسا الحديثة وتنجانيقا، وسليمان بن زبير رسول السلطان برغاش في زنجبار الذي كان يقطع القارّة من شرقها إلى غربها للتجارة حيناً، وللنفوذ أحياناً أخر، وسيّدهم كلهم الذي أذاق ليوبولد، ملك البلجيك، مُرّ العذاب، (طبوطب) كما تسمّيه مصادر الفرنجة، الرجل الداهية البصير بكل شبر في الجبال والغاب والبحيرات، تلوح لك منه صورة مثيرة غريبة كأنها إبداع فنّان، تودّ لو لمستها بيدك لتعرف، ولكنها تتأرجح

عن بعد كالسراب، وتخطئها الحواس. ظلّ من الظلال خلال الكتب، كان يعرف مواهبه ويدرك، وهو في غياهبه تلك، مصادر القوة التي تنبع، وأي مسار تسير، توالت عليه الفتوق أواخر أيامه في الكونغو الأعلى، ونكأه ما كان بينه وبين تجّار العرب من عصبية هناك، وخشي أن ينتفخ ليوبولد بهذا الخلاف فخرج يقصد زنجبار، حيث أهله وماله، ولقيه على الطريق عند بحيرة تنجانيقا سنة 1890 مبعوث جمعية من جماعات التبشير، وما نظن إلا أنه لمح الشماتة في عينيه، قال له وهو يحاوره: «الرجل الأبيض أكثر قوّة وعدّة مني. سيبتلع كل الذي اقتنيت كما ابتلعت ما مَلَكَ المجوس في الإقليم. أرى سحباً في الجوّ قائمة، والرعد يقترب. أنا ذاهب». وبعد سنتين اثنتين من هذا استعرت الحرب بين العرب والأوروبيين في الكونغو، وانتهى أمرهم هناك بعد. رجل لطيف، ليت أحداً جمع عظامه ودمه وروحه؛ إذاً لجمع تاريخ إقليم، في حياة رجل.

كان للعرب إيراد الأمور وإصدارها في الداخل البعيد من الساحل حين جاءت طوائف المبشِّرين حداة النفوذ الأوروبي، حملة أعلام الحكومات والشركات، ولكنهم لم ينفسوا عليهم شيئاً بادئ الأمر، فقد كانت تجارة الرقيق والعاج في يدهم لا يشركهم فيها أحد، وكان هؤلاء يسكنون إليهم، فقد كانوا أهل بشر وكرم ومزاج للعيش الجميع، لا يألفه الأهلون الأصليون آنذاك، ولكن الودّ لم يدم طويلاً بين الفريقين، وأصرخ هؤلاء قومهم وراء البحار، واحتدم الصراع حيناً بالسلاح،

وحيناً بالمماكرة، وأوضح من سجلّ الحوادث الذي تركه الأوروبيون أنفسهم أن الغلبة في البدء كانت للعرب، فقد كانت المعركة معركة حذق ودراية ومداجاة، وكان هؤلاء قطّان البلاد، أحلاف الزعامات والقبائل، يعرفون كيف يعمون أمرهم على العدو، حتى ليضيق هذا ويغتاظ حين يفسد أمره وتعلو يد العرب. تساءل القنصل البريطاني في يوغندا عشية الانقلاب العربي في أكتوبر- 1888، في بلاط الملك، وكان يحسب أنه حليفه ضدّ العرب: «هذه حوادث منكرة، علينا أن نقف عندها، وأن نسائل أنفسنا: أي قانون سيسود أواسط إفريقيا: الأوروبي أم العربي؟». وكانت غضبة لها ما بعدها فيما نعرف؛ عوقب العرب أشدّ العقوبة، أما سيّدهم في لندن، فأسلم نفسه لغيظ لا يعين على الأبصار: كانت جمعيات المبشِّرين من كاثوليك وبروتستانت تخوض حرباً عنيدة مع العرب سُمِّيت من بعد «حرب العرب» في نياسا، وكان أنصارهم يلحّون على الحكومة القائمة يومها في لندن كي تعزِّزهم بالسلاح والرجال، ولم تكن هي في وضع يمكِّنها من التجاوب مع المعارضة، فقد كانت مرارة الخصام على إنقاذ غردون في الخرطوم عالقة بكل لسان. قال سالسبري يسوق المعاذير كيلا يفعل: «إننا لن نحسن إلى تلك الجهود العظيمة في تبشير هذه البلاد وتمدينها إن نحن اتَّخذناها سبباً من أسباب الحرب مع قاذورات البشرية التي تنتشر في ذلك الإقليم العريض الطويل الذي يحكمه -أساساً- عرب عالجنا نماذج منهم في السودان، يجمعون إلى القسوة التي لا ترحم عصبية دينية لا تبصر. إنه جيش فظيع من الخبث لن يقضي عليه سوى انتشار

المسيحية وذيوع المدنية بينهم بالتدريج». 6 يوليو- 1888.

وكان غير عادل في الذي قال، ذلك لأن العرب، وإن كان من حقّ التاريخ أن يصم تجارتهم للرقيق أقبح الوصم، تركوا حيث حلّوا أسواقاً نافقة، وطرائق للتجارة مطروقة، ونواة للإدارة والحكم، وسبلاً للزرع والحصد، بنى عليها الأوروبيون حين تسلموا الأمر من بعد. ما عَدَل حين سمّاهم «قاذورات البشرية» فقد أثبت البحث الحديث أن «العرب تركوا أثراً حقيقياً على وجه تلك الأرض: أزالوا فدادين من الغاب، وزرعوا فوقها محاصيل متنوِّعة»، إلى آخر ما يقول الأب سلمانز في كتابه عن «المسألة العربية والكنغو» حين يتحدَّث عن الآثار الاقتصادية التي خلَّفَها العرب في الإقليم، وعن أثر «العنصر العربي» في تقسيم القارة بين القوى الأوروبية، ولم تكن تجارتهم للرقيق، وقد اتّخذت تكأة لرميهم بكل منقصة بأبشع من تجارة الأوروبيين فيها كما يبين لك كتابنا هذا الذي بين يديك بالأرقام، ولعل من محامد العرب في هذا الباب أن العلائق بينهم وبين رقيقهم كانت إنسانية إلى حَدّ بعيد. كتب ديورات باربوسا سنة 1518، وتجارة الرقيق لا تجارة غيرها آنذاك: «حال الرقيق في ممبسا تدلّ على ما لأسيادهم العرب هنالك من إنسانية، يعجز الواحد أحياناً أن يميِّزهم عن أسيادهم، إذ يبيح هؤلاء لهم أن يقلِّدوهم في اللباس وفي غيره من شؤون العيش» ولك أن تقابل هذا بأية صفحة أردت من صفحات قصة جوزف كونراد «قلب الظلام» لترى العلائق بين المخاطرين من أوروبا وبين عمّالهم

من الإفريقيين، لا قبل أربعمئة عام، بل في مطالع هذا القرن، والعصبية الدينية التي تحدَّث عنها سالسبري في خطابه الحانق المغتاظ لعبت دوراً، ولا ريب، لكنك إن قرأت السجلّ بإنعام نظرٍ وحيدةٍ، رأيت أن أوروبا هي التي كانت تقذف بالدين في الميدان، لا العرب: أراد كارل بيتر وصحابه من روّاد الاستعمار الألماني في تنجانيقا سنة 1885 أن يكون التبشير «أداة مهمّة من أدوات الاستعمار - الأوروبي المسلّح» فيما يقول رونالد أوليفر صاحب «العنصر التبشيري في شرق إفريقيا»، وكانوا يحثّون حكوماتهم على «أن تمتزج الحركة التبشيرية بالحركة التوسُّعية في ألمانيا»؛ أمور يجزم المؤرِّخون بأنها لعبت دوراً في تحوُّل العرب عن التعاون مع الأوروبيين، وكانوا لا يكرهون التعامل التجاري معهم بادئ الأمر، يشترون سلاحهم ويبيعون لهم العاج، وما كان ممكناً، بعد هذا، أن يقوم التعاون بين الفريقين، كانت «كل محطّة تبشير مقالة في الاستعمار» والاستعمار معنىً من معاني الاحتكار كما كتب رسول الحكومة البريطانية في نيسالاند عام 1890، ولن تجد شيئاً من هذا الانتفاع بالدين في السجلّ العربي في أواسط إفريقيا، ولعلَّهم كانوا أعجز من أن ينظِّموا حركة تبشيرية كالتي نَظّم الأوروبيون.

وكان صراعاً غير متكافئ على أيّة حال، كانت أوروبا، وقد وطّدت الثورة الصناعية أقدامها فيها، واثقة من نفسها معتدية، يؤمن غلاة الناس فيها برسالة قارّتهم السعيدة، ويؤمن أكثر الناس فيها بالبحث عن أسواق لبضائعها، وما تريد من خامات لها عبر البحار بأي سبيل،

يريدون ليعوّضوا بإفريقيا عن أميركا، وقد خرجت من النطاق البريطاني سنة 1783، والثورة الصناعية بنجاحها تغيِّر من كل شيء في حياة الأوروبيين المادّية منها والنفسية، وتوحي إليها بأن سكّانها أفضل الناس وأجدرهم بالقيادة، وأحقّهم بما تنتج الأرض العريقة، ولم تكن صدفة محضة أن تتكوّن الجمعية الإفريقية في بريطانيا بعد خمس سنوات فحسب من هذا التاريخ، وهي الجمعية التي عملت على اكتشاف القارّة الإفريقية في الداخل أكثر مما فعلت جمعية أخرى أو شخص بذاته، وتدفّق القناصل على زنجبار، وقد اتّصلت السبل وأمنت الطرق - كما قلنا - في عهد سلطانها المسقطي السيد سعيد، جاؤوا: الولايات المتحدة سنة 1837، وبريطانيا سنة 1841، وفرنسا سنة 1844 يتنسَّمون الأخبار، ويتطلَّعون للداخل يريدون لسلطانهم أن يمتدّ فيحوز وجدان القارة من ناحية وثروتها من ناحية، وكان العرب قد سبقوهم إلى هذين، فيما أخبرهم لفنجستون في رسائله: كان يجد آثارهم أينما حلّ، حسب نفسه سار طريقاً ما سارها أحد قبله حين عبر القارة من بتشوانا لاند خلال صحراء كلهاري وحول بحيرة نقامي وفوق نهر زمبيزي، فأنغولا، وعَبَرَ القارة مرَّة أخرى إلى إقليمين عند ساحل موزمبيق، بعد سبع سنوات من الإقدام انتهت سنة 1856، ثم عُرِف أن عربياً اسمه سعيد بن حبيب بن سليم اللفيفي، طَوَّف ما طَوَّف هو قبله بشهور قليلة، لا تسنده صحيفة ولا جماعة، ولا تعنى بأمره دولة، كما كانت الحال مع لفنجستون وغيره من الأرواح الجريئة التي كشفت القناع عن القارّة لأوروبا المعتدية الجديدة المصنّعة.

وكان هذا شبيهاً بحال العرب في صراعهم للبقاء آخر الأمر. تأتيهم أخبار الجيوش الخديوية في طريقها إلى أواسط القارة صوب يوغندا، فيتلهّفون، ينصتون لعلهم يجدون حليفاً يعين، وتأتيهم أخبار غزوات الإمام المهدي الموفَّقة، فينصتون مرّة أخرى لعل عَلَماً من أعلام العرب، يأتي لنجدتهم وهم أفراد مبعثرون لا يقيِّدهم نظام ولا يقودهم زعيم، ويتسامعون بنوايا سلطان زنجبار فيتمنّون أن تجيء نجدة منه وهو سيّدهم في الاسم، ولا يقع شيء من هذا. على النقيض تتقدَّم أوروبا الفتية القادرة المنتظمة وتقسم الإقليم كله فتاتاً بينها، ولا يسع السلطان سعيد في زنجبار سنة 1895، وهو يرى الحلقات حوله تكتمل يوماً بعد يوم، ورعاياه يفدون بأخبار الهزائم من الداخل، إلا أن يقول متحسِّراً على نفسه وآله: «لست إلا عصفورة في مخالب صقر».

## العرب في غرب إفريقيا

هذا عن شرق القارة ووسطها البعيد، ولكن الرباط العربي بغربها في القديم لا يقلّ قوة عن هذا الذي رأينا بعضه في الشرق والوسط، اتَّصلت هذه وتلك بجنوب الجزيرة العربية منذ فتح التاريخ عينيه ينظر، واتّصل الغرب بالشمال الإفريقي وشماله الشرقي منذ أحقاب ممعنة في القدم، وكانت الصحراء هنا كالبحر هنا، تتناثر المدن على حوافيه في الشمال والجنوب كالموانئ، تخرج القوافل من فاس ومراكش وقسطنطينية والقيروان، تحمل الملح، وكانت سلعة عزيزة في الجنوب والغرب، لغانا، ومالي، وجن، وجاوا، وتمكبتو، وكانو، وتعود قوافلها

تحمل الذهب والرقيق. عرف الجانبان من الصحراء طرقاً ثلاثة للقوافل: أوّلها غربية تقلع من مراكش متَّجهة إلى المنحنى الشمالي من النيجر، وإلى الإقليم الشاسع غربه صوب المحيط، وثانيها طريق وسط يبدأ عند تونس ويتّجه إلى الإقليم الكبير الواقع بين بحيرة شاد ونهر النيجر، وطريق ثالث من الشرق لدى طرابلس ومصر، يسير إلى الإقليم الواقع حول شاد كله، طرق كلّها تدلّك على ما كان من صلات قديمة قريبة بين الشمال الإفريقي، والإقليم العريض الذي عُرِف من بعد بـ(السودان) حين جاءه الرحّالة العرب. ويقصّ عليك كتابنا هذا الذي بين يديك كثيراً من مفاخرهم في هذه المسالك الوعرة. ظلَّت هذه الصلة تجارية صرفاً حتى كان أوّل العهد المسيحي، حين دفعت التقلُّبات السياسية في الشمال شعوباً عدّة وقبائل مختلفة للنزوح عبر الصحارى إلى لجنوب هرباً من الحروب. توالت هذه الأفواج حتى القرن الثالث عشر، ونشأت معها منازل من المهاجرين العرب والبربر المتهوِّدين، تعيش آمنة وسط أرض الزنج، يتراحمون ويتقاسمون العيش، ويتبادلون ما عندهم من ثقافات، كما فعل أهل جنوب الجزيرة العربية في شرق القارّة، وابتلع بحر الزنج هذه القطرات الوافدة، فلم يعد ما يميِّز قادماً من مقيم، وظلت حياتهم هكذا آمنة لا يروّعها شيء، حتى وجدت أوروبا طريقها إليهم، تتاجر بالرقيق، بادئ الأمر، وتتولّى شؤونها شيئاً فشيئاً منذ القرن الخامس عشر، تمهِّد لاستعمارها في النهاية.

وللعرب في هذه القصّة دور مركزي، فقد اندفعوا بعد الإسلام إلى الشمال الإفريقي على النحو الذي يعرفه القارئ العربي، وكانوا قبلها جماعات لا خطر لها ولا شأن من المخاطرين، فتح الطريق لهم سهلاً معبَّداً بعد فتح مصر (639-642)، فاستولوا على الشمال بعد غزوات موفَّقة معروفة، يقدِّر المؤرِّخون أن ربع مليون من العرب استقرَّت بعدها في الإقليم، واختلطت بأهله البربر، فاتّخذوا الدين الجديد عقيدة، واللغة الغالبة لساناً، وترعرع سلطانهم، وامتدَّ بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر على يد بني هلال وبني حسن، وغيرهما من قبائل العرب، وهي القرون التي شهدت بدايات الإمبراطوريات الإسلامية التي يتحدَّث عنها كاتبنا هذا في اختصار لا يخلّ. كانت هجرات الشمال الإفريقي والشمال الشرقي في السودان القديم الممتدّ بين النيل والنيجر متقطِّعة، قبل أن يستقرّ العرب استقراراً في الشمال، ولكنها اتَّصلت اتِّصالاً واسعاً بعد هذا العهد، فاتَّسع نطاق التجارة والهجرة والاستيطان، فُبعُدَ أثر العرب في حياة الزنج وعَمُقَ، وما كان مجيئهم للإغارة كما فعل البربر قبلهم، ولا للإقامة الهاربة من الاضطهاد كما فعل اليهود والبربر المتهوِّدين، حين شَقَّ عليهم العيش مع الروم. كان التجّار والمهاجرون العرب يحملون رسالة ويتحدَّثون لغة مرموقة، وكانوا بعد هذا يبحثون عن مجال للعيش والتجارة أوسع، واتَّخذت آثارهم هذه سِمَتها القوية التي بقيت إلى اليوم في سحنة الكثيرين، ودين الأكثرية، ولغة الأقلية، خضع المزيج الذي تكوَّن في الإقليم من بربر وزنج لسلطان العرب الفتى فاستأثروا بالتجارة والثقافة والحكم لا

يشركهم فيها أحد، وترى آثار هذا في التكوين الجسدي للشعوب التي تعيش شمال الغرب جنوب الصحارى، فالدم الغالب شمال السنغال والنيجر هو الدم الخليط من الزنج والبربر والعرب، والدين الغالب هو الإسلام، واللغة العربية ليست عربية على الأكثرية، ثم يغلب الدم الزنجي جنوب هذين النهرين، وإن كنت ترى حتى يومنا هذا، الأثر الذي تركته تجارة القادمين ودينهم وعاداتهم، رغم القرون التي مضت الآن على تلك الصلة.

## السودان في إفريقيا

هـذا عـن القـارئ العربـي عامّـة والكتـاب، أمـا القـارئ السـوداني ـ خاصّـة ـ فلـن أمضـي وقتـاً طويـلاً معـه أغريـه؛ ذلـك لأن السـودان القديـم هنـا فـي «إفريقيـا ـ تحـت أضـواء جديـدة» بطـل مـن أبطـال قصّـة الحضـارة الإفريقيـة، واضـح الميّـزات والسـمات. هـذا الكتـاب حَتْـمٌ علـى القـارئ السـوداني الـذي لـم يتخصَّـص فـي تاريـخ بـلاده القديـم، ويريـد أن يقـف علـى معالمـه الكبـرى، والفصـل الـذي كتبـه دافدسـن هنـا خيـر خلاصـة كتبـت فـي أيـة لغـة حتـى الآن عـن تاريـخ (مـروى) الـذي عـرف لليـوم، فأكثـره ـ كمـا سـترى فـي الكتـاب ـ حبيـس فـي ضميـر الغيـب بعـد، وليـس مـن شـكّ في أنـه دَلّـل، بالذي سـاقه مـن شـواهد وبيّنـات، علـى مسـؤولية السـودان أولاً والعالـم ثانيـاً فـي العمـل علـى اكتشـاف مـا بقـي مـن آثـار دفينـة فـي صحـراء (مـروى) القديمـة، لا لأنهـا قطعـة مـن تاريـخ السـودان فحسـب بـل

لأنها نقطة الانطلاق في تاريخ القارّة، ويرجو الواحد منا أن تصل آراؤه في هذا السبيل أهل المال، ممن يحرصون على التاريخ الإفريقي، وهو بضع من تاريخ العالم الواسع، حجبته القرون تحت التراب.

كانت (مروى) همزة الوصل بين إفريقيا السوداء وحضارة البحر الوسيط ومصر القديمة، حملت ما أنجز الإقليمان صوب الغرب نحو المحيط الأطلسي، وصوب الشرق نحو المحيط الهندي، ولم يُبْقِ المؤلِّف شيئاً يقوله الواحد للقارئ غير المختصّ، إلا أن قطعة طريفة من هذا التاريخ وقعت في يدينا بعد تعريب الكتاب أردنا أن يطلَّع عليها طلّاب تاريخ ذلك العهد في السودان، إذ هي مصدر جديد ما كان ميسوراً من قبل، والمصادر في هذا الباب عزيزة نادرة.

هي محفورة عثر عليها العالم الجليل أنولتمان في إكسوم في إثيوبيا الشمالية ينسبها تاريخ ذلك الإقليم، وقد شرعت معالمه تبين الآن بعد أن أُتيح للعلماء أن يحفروا هناك، إلى عيزانا أول ملوك العهد المسيحي في إثيوبيا، الملك الذي يختلف المؤرِّخون قليلاً في تاريخه، يضعه (كمرير) بين 317 و 342، حين ينسبه (لتمان) إلى 325ـ375م، وهي على أية حال سنوات الضعف والاضمحلال في مروى، والمحفورة التي نتصدّى لها الآن تلقي أضواء منيرة على الحروب التي ثارت بينها وبين أكسوم التي خرَّبتها تخريباً آخر الأمر. هذه المنظومة التي حفرت حفراً على

صخـرة فـي أكسـوم لـن يسـتطيع إغفالهـا باحـث يريـد أن يتعـرَّف إلـى أيـام مـروى الآفلـة. وأنـا، إذ أقـدِّم ترجمـة عربيـة لهـذه المنظومـة المحفـورة، أريـد أن أذكـر بالخيـر صديقـي عالـم الآثـار الكبيـر ل.ب. كـروان الـذي ترجمهـا إلـى الإنجليزيـة، وعَلَّـق عليهـا فـي ورقـة نشـرها فـي المجلّـة الجغرافيـة المَلَكيّـة، وأعارنـي ـ مشـكوراً ـ صـورة مـن ورقتـه فنبهنـي إليهـا، ومـا كنـت لأنتبـه إليهـا لـولاه، وأحـبّ لعلمائنـا أن يخصّـوا المنظومـة المحفـورة بعنايـة يتبيَّنـون معهـا الأماكـن العديـدة التـي تشـير إليهـا والقبائـل التـي يتحـدَّث عنهـا الغـازي عيزانـا، فأكثـر هـذه الأماكـن قـد اندثـر، وأغلـب هـذه القبائـل أمسـت مـع الزمـان أساسـاً لغيرهـا مـن القبائـل بعـد أن ذهبـت هـي وانتهـت وحـدات بنفسـها قائمـة. يقـول عيزانـا فـي منظومتـه المحفـورة:

*بيد الله ذي الجلال وصاحب الأرض والسماء،*
*بيـد اللـه ذي المنّ الذي انتصر في كل مكان.*
*على كل مغالب هنا في الأرض وفي السماء،*
*يعلـن عيزانا أن لا يقهره قاهر،*
*فالله سيّد الناس والأشياء يؤثره.*
*لـن يلقاه وجهاً لوجه عدوّ،*
*ولـن يركضَنْ في إثره غالب،*
*ولن تستطيع قوّة إلا قوّته أن تعجزه،*
*فيـده المنيعة من يد الله خالقه،*

والله ربّ كل شـيء وكل أحد.
أنا عيزانا، بن (إلا) عميدا، سليل هالين.
صاحب أكسوم وحِمْيَر
صاحب ريدان وسبأ
وسلحين وصيامو والبجه،
ملك الملوك، حاكم كاسو،
ابـن (إلا) عميدا، الذى ما قهر.
شرعت، ويده الله في يدي، أصارع النوبة
حيـن خرجوا عن طاعتي وثاروا يفخرون:
يصيح صائحهم إني لن أعدو التكازي
وإن جهدت.
ركبـوا مراكب الغرور يعتدون، لا يرحمون.
ضربوا شعوب منقرتو وهاسا وباريا
وكانوا غلاظاً شداداً على السود.
حنثوا بيمينهم الذي أقسموا، وخاضوا الدماء
يفتكون بالشعوب الحمر.
ولـم تكن هذه أوّل مرّة يخرجون.
كانـت الثالثة، وحَقَّ عليهم العقاب.
ذهبوا بعيداً مع الزهو، وذبحوا جيرانهم.
لا يستحون أو يخافون.
ثم أرسلت الرسل بادئ الشر: أرجو أن

يثوبوا لرشدهم، وأن يرجعوا عن غيّهم.
وكانت هي الطامة:
نهبوا رسلي وأخذوا مَنْ عليهم
وكل ثمين يقتنون.
وعَزَّ عليهم أن أنصحهم أنا،
ولكنني لم أقنط.
بعثت البعوث مَرّة ثانية،
فسبوا البعوث والباعث،
وكان لا بدَّ من حربهم بعدها
ففعلت
تسلَّحت بقوّة الله عضدي دائماً
سيّد الناس والسماء والناس إليهم،
فالتقينا على ضفاف تكازي لدى كمالكي،
وذاقوا مرارة الحرب منذ ساعاتها الأولى،
فأدركوا ألّا قِبَلَ لهم بجيوشي المظفَّرة،
وانقلبوا على وجوههم يفرّون؛
قفيت أثرهم ثلاثة وعشرين يوماً
وهم يجرون لا يلتفت واحد منهم
يخافون أن ينظروا.
ذبحت بعضهم ذبحاً وأسرت بعضهم الآخر،
وسبيت وغنمت وحرقت لا يصدّني عنهم رجل،

وعاد قومي بالغنائم والأسرى
والمـدن تحت أقدامهم جازعة لاهثة،
مـدن مـن كل نوع: من الحجر بعضها، وبعضها من القشّ.
حمل منها جنودي الشـجعان
غـلّات خزينـة ولحماً قديداً وكتلاً من النحاس باهرة،
وحرقوا ما لم يستطيعوا حمله، لا يفيد منه أحد.
حرقـوا قطناً كثيراً ومخازن غلّة عدّة،
وجرى العدوّ مبهور الأنفاس
يحتمي بمياه سيدا
سـبح بعضهم عبر النهر، ومات بعضهم يجاهد،
وإن كنـت لا أعـرف كم مات منهم، وكم عبر!
تكاثـروا على القوارب لعلّها تنجيهم
تغرق الرجال والنسـاء وهم يتزاحمون.
وأسـرتُ بعدها زعيمين كبيرين
جاءا يجوسـان منازل الجيش يتجسّسان،
سُـقتُهما أمامي على جمليهما يرتعدان.
أحدهما اسـمه يساكا الأول، والثانـي بتالي الأول.
وكان من أسـراي نبيل اسمه انقبناوي
وأسـرت كثيراً غيره من الرجال:
دانـو كوي الأول، ودقالي الأول، وأنا كوي.
وسـاق جنودي سوقاً قسَّهم الأوّل.

أخذوا تاجه الفضي من رأسه.
كما أسروا حواريه، سيّدهم، وكاركارا.
سقط خمسة زعماء في المعركة، وسقط قسّ،
وما كان لهم أن يفلتوا، فنحن أقوياء أشدّاء.
بعون الربّ سيّد السماء والأرض.
ثم جئت كاسو،
وذبحت في الطريق خلقاً كثيرين
وأسرت خلقاً آخرين
عند مقرن تكازى وسهيدا
وأقمت يوماً واحداً في كاسو.
وأرسلت بعدها جيش محازا ورفيقه حارا،
وجيش دملوا وفلح وصيرا
لينهدوا فوق سيدا ويغزوا المدن؛
مدن الحجارة كلّها والقش:
يسمّون واحدة منها علوا
ويسمّون الثانية ودارو
وجاءتني جيوش ظافرة ما مسَّها شيء،
عادت تحمل المتاع كثيراً وتسوق الأسارى،
عادت وقد أذاعت الرعب والذعر في نفوس الأعداء،
بما قتلت من الأهلين، وحرقت من البيوت والمدن،
تعينها قدرة الله القدير.

وأرسلت بعده بعثة أخرى، أرسلت حالين ولاكين،
وعزّزتهما بجيش سبرات وفلح وصيرا؛
نهدوا كلهم صوب الجنوب، كما نهد جيش آخر صوب الشمال
من سيدا،
ومشت نحو مدائن النوبة هناك.
غزت نقويس أوّلاً
وانقضّت بعدها على مدائن الحجر في كاسو،
وما كانت لهم في الحقّ.
أخذوها ظالمين عنوة.
ثم غزت جيوشي تبيتو وفرنيت،
وانتصرت بيد الله وعادت سليمة،
ما مسَّها سوء، وصلت إقليم النوبة الحمر،
وذبحت أهله، وأخذت الأحياء أسرى،
وأعانهم الربّ القدير وجاؤوا بالمتاع كثراً وبالخيرات،
فأقمت عرشاً عند ملتقى النهرين، سيدا وتكازي
قبالة مدينة الحجر على هذا الخليج.
لقد أعطاني الربّ ربّ السموات
214 أسيراً ذكراً، كما أعطاني 415 أسيرة
أي 629 رجلاً وامرأة،
وذبحت 602 رجلاً، أما النساء والأطفال
فقد أتينا على 156 منهم: أعني 758 في الجملة.

*أسرت وقتلت ـ إذاً ـ 1387 نفساً.*
*وغنمت 10500 بقرة و60 أخرى، ونحو 51050 شاة*
*وعزّزني ربّي تعزيزاً فأقمت هنا في صادو عرشاً،*
*آتاني ربّي الملك والحكم،*
*وأنا أدعوه ليشدّ من أزري، ويقوم على حكمي،*
*فينصرني حيث ذهبت كما نصرني الآن.*
*لن أسيء إلى أحد*
*وسأضع عرشي هذا الذي أقمته*
*والأرض التي أقف عليها*
*في حجر ربي، في يده*
*شكراً وذكراً له.*
*وان اعتدى عليه أحد يروم أن يزيله،*
*بله أن يخرّبه أو يمزّقه،*
*فلن أبقيه على الأرض، ولن أرحم نسله،*
*ولن يبقى لهم على الأرض أثر*
*جزاء ما يرتكبون أو يسعون أن يرتكبوه،*
*فهذا العرش منحه الله لنا، ربّنا، حامينا.*

أنا لا أكتب تاريخاً أفصِّل فيه حياة هذه الجزيرة العظيمة مروى، فقد أتى على كثير منه هذا الكتاب الذي أحثّك على قراءته بهذه المقدِّمة، ولا يعنيني هنا إلا أن أنبّه إلى هذه المحفورة

المنظومـة التـي تصـف الجزيـرة ومدنهـا الكبـرى وقراهـا العـدّة، وتبيِّـن الـذي كان بينها وبيـن أكسـوم مـن صـراع للسـيطرة علـى تجـارب المحيـط الهنـدي؛ نفسـت أكسـوم علـى مـروى تجارتهـا الزاهـرة وثقافتها المزيـج البديع، فوقفت فـي وجه قوافلها الكثيـرة للمحيـط، وتحرّشـت بهـا سـنوات وقـرون تحميهـا جبالهـا المنيعـة ووديانهـا الكثيـرة كالمتاريـس حـول المملكـة، والمنظومـة التـي بيـن يديـك أثـر مفتـاح لحـروب العهـد الأخيـر مـن حيـاة مـروى. علـى أن بعضهـم يعدّهـا ضـوءاً منيـراً علـى ظهـور النوبـة فـي التاريـخ الموثّـق أو المحفـور إن أردت، فكاسـو هـذه التـي يتحـدَّث عنهـا عيزانـا ليسـت غيـر كـوش مملكـة مـروى، وأهـل النوبـة الذيـن يشـير إليهـم هـم النوبيـون الذيـن عايشـوا المروييـن صـوب الشـمال، بعـد أن أخـذوا عنهـم ـ عنـوة، فيمـا يقـدِّر الآخـرون ـ بعـض مدنهـم معهـا ثقافتهـا الغالبـة وحضارتهـا الذائعـة؛ نزحـوا إلـى إقليـم مـن غـرب السـودان الحديـث فـي جبـال النوبـة وفـي جبـال وفـي جبـال ميـدوب وحـول تلـك الجبـال، فيمـا يرجِّـح دارسـو اللغـات القديمـة المقارنـة، ويبـدو لهـم أن هـذه المحفـورة أوّل أثـر موثّـق يشـير إلـى هـؤلاء القـوم فـي التاريـخ، وهـم الذيـن ورثـوا الإقليـم كلّـه عـن مـروى بعـد أن خربـت علـى يـد عيزانـا وقومـه، وهـم الذيـن حفظـوا للإقليـم صِلاتـه العديـدة بخارجـه باعتناقهـم المسـيحية، وإقامتهـم ممالكهـا الثـلاث عنـد فـرس، ودنقـلا العجـوز، وسـوبا، العواصـم التـي لا تـزال تفاجـئ الباحثيـن كل حيـن بجديـد عـن ممالكهـا القديمـة: نوبانـا، ومقـرى،

وعلوة، ممالك تحتلّ في التاريخ العالمي مكاناً ما عُرِف إلا قليله الآن، توَّجت أخريات أيّامها بالدفع عن عقيدتها وعزّتها أمام الزحف العربي الذي احتضنته من بعد وقد اهتدت بهدي الإسلام، وآمنت به طائعة غير عاجزة. «رماة الحدق» ماكانوا عجزة، لهم في سيرة العصور الوسطى مكان جلّاه المقريزي في مواعظه، والمسعودي في مروجه تجلية تشير إلى هذا الذي تقول به المحفورة من أن النوبيين، وقد آلت اليهم حضارة مروى وثقافتها، كانوا الشوكة في جنب عيزانا يغيرون على «الشعوب الحمراء» في مملكته، وعلى رعاياه من قبلائل بربر الحديثة وسواكن.

عَبَر عيزانا، ليثأر لشعبه وقبائله، نهر التكازى «عطبرة» واتَّجه صوب سيدا (النيل)، والتقت جيوشه بأعدائه عند كمالكي (المقرن بلغة الجالا) لدى التقاء العطبرة بالنيل، قلب مروى الآفلة آنذاك، ويقيم الغازي الإثيوبي قاعدته هناك فيرسل إلى الشمال فرقه الخمس تغزو حتى تشارف أبي حمد الحديثة، وتقف المحفورة تشيد بأعمال عيزانا في مدن الحجارة، «علوا» ويغلب على ظن الباحثين أنها سوبا التي عرفت من بعد، وعن «داروا» التي يرجِّحون أنها اربجى القديمة، الحصاحيصا الحديثة، ويميلون أحياناً إلى أنها أبي حراز عند ملتقى الرهد بالنيل الأزرق، أما «تبيتو» وأختها «فرتيت» فموضع خلاف طويل بين العلماء، يكفي أن نقول هنا إن بعضهم يقولون إنهما

جزيرتا «تبت» وأختها «برتي» شمال كريمة، حيث عاش «النوبيون الحمر» الذين يشير إليهم دافدسن في كتابه هذا بالمجموعة.

# من مذكِّراتي[1]

أحمد الطيب أحمد

## يوم الجمعة في قريتنا

في قريتنا رجال، وفيها نساء طبعاً، وإلا لن تكون قرية إذا لم يكن فيها من كل زوجين اثنين!! فيها النساء الخيِّرات، وفيها الرجال الأخيار «العجيبو الأطوار»، ولو قد استطعت لَخلَّدتهم جميعاً بالكلمات، ولحدَّثتكم عنهم جميعاً، في قريتنا ـ مثلاً ـ رجل صامت، لكنه صامت ضحوك بسّام، يحبّه الناس أجمعون، والسبب الأوَّل لذلك أنه يطعمهم جميعاً، فقد أتاه الله بسطة في الرزق، ففي كل جمعة ينتشر أبناؤه السبعة في القرية ويوسوسون للرجال والشباب:

ـ أبوي قال ليك تتغدّى معنا اليوم بعد الصلاة.

ـ كدى؟ سمح! كتّر خيره.

وينتفض المصلّون، ثم يتّجهون إلى بيت الصامت الضحوك، ويأكلون والأعمى معهم، يغني لهم ويقصّ عليهم أقاصيص البحر وحكايات النوتية، التي أشربها إخوانه في البحر منذ

1 - من كتاب «أصوات وحناجر» لأحمد الطيب أحمد، والذي جمع فصوله وقَدَّم له الأستاذ عثمان حسن أحمد، وصدر في عام 1975.

قديـم؛ وذلـك لأن البحـر منـذ قديـم نائـي الشـطوطِ غريـق، ونسـتمع إلـى حكايـة دفـع اللـه الريّـس الأعمـى الدقيـق الجسـم الـذي يصيـح: «ـ يعنـي معناهـا.. المركـب دي دايـرا ليهـا جـرّ.. انتـو لا السـفاهة تعرفـوا شـنو؟ هـوى يـا النوتيـة.. يعنـى معناهـا؟ انتـوا أولاد..» ثـم يسـبّ أمّهاتهـم وأمّهـات أمّهاتهـم إلـى حـواء.

ويمضـي الفنّـان القصّـاص الأعمـى فـي أقاصيصـه، والخلـق يأكلـون ويضحكـون، والرجـل الباسـم يسـبغ عليهـم مـن صحبتـه وكرمـه وضحكـه.

وفـي قريتنـا قـوم موسـرون، والموسـرون المحسـنون فـي كل قريـة يغـدُّون النـاس يـوم الجمعـة، ويجلبـون المـال مـن الصعيـد لينفقـوه فـي الشـمال، أو بالعكـس ينفقونـه علـى الحمـلان وعلـى العميـان وعلـى أهـل الفـن.

ويـوم الجمعـة يـوم عظيـم فـي كل قريـة، ومـا اختلفـت ألـوان نشـاطه، ومـا تغيّـرت ألـوان طعامـه إلا قليـلاً، ولعلّـه لـن يـزول عـن قريـب.

## الفن.. والبخل في القرية

الأهلـون فـي القريـة يصنعـون الحـوادث، والحـوادث فيهـا المآسـي وفيهـا المهـازل وفيهـا العبـث وفيهـا الجدّ، وقريتنـا ليسـت بدعـاً مـن القـرى فـي هـذه الدنيـا العريضـة، ففيهـا مـن كل الأصنـاف.. وقـد أذكـر أنموذجيـن اثنيـن لصنفيـن مـن النـاس، أحدهمـا فنّـان حقـاً،

وهـو اليـوم كفيـف البصـر ولا أدري متـى كـفّ بصـره.

وقريتنـا راقـدة علـى النيـل فـي الشـمال، والشـيخ الـذي أتحـدّث عنـه قـد بلـغ اليـوم السـتين، وقـد مـات أبـوه وشـبع موتـاً، وكان يحبّـه، وحيـن كان صبيـاً رفـض التعليـم، رغـم أن نـار القـرآن موقـدة فـي قريتنـا حتـى اليـوم، فمـا ثـار والـده، بـل تركـه وشـأنه. ثـم هـو يُذكِّرنـي بعاشـقي البحـر، فقـد عشـق البحـر، وفَتَنـه البحـر وسَـحَره، وأثارتـه مفاتنـه، وصـار نوتيّـاً، والمراكـب الشـراعية شـغل أهـل الشـمال منـذ الأزل يبلغـون بهـا مـن أبـي حمـد وبربـر الجنـوب، يحملـون عليهـا العيـش «الـذرة» وغيرهـا مـن البضائـع، والنوتيـة سـفهاء، يبـدأون سـفاهتهم بالحديـث مـع «أم العـول»[1] التـي تطعمهـم وتسـقيهم، وهـم لا يزالـون يعملـون خيـر العمـل وأقـواه وأقسـاه، ثـم يتحدّثـون ويسـمرون حيـن يناجـي النجـم المـاء، يتحدّثـون عـن عرائـس المـاء، وعرائـس المـاء عندنـا أيضـاً، لا ينفـرد بهـا الإغريـق، ولا المرحـوم علـى محمـود طـه[2] لأنهـا:

شغلُ الربابنةِ السارين من قدم

تزهى بهنَّ عشيّاتٌ وأسحارُ

وقـد جمـع صاحبنـا قصصـاً كثيـرة عـن عرائـس المـاء، وعـن إخوانـه فـي الملاحـة، وعـن (ريِّسـه)، وعـن الموانـيء وعذاراهـا.

1 - (خادمة المركب)

2 - علي محمود طه (1902-1949) شاعر مصري مولع بالتغني بالجمال، ظاهَرَ الرومانسية، رقيق الجرس في شعره، من دواوينه «الملّاح التائه» و«ليالي الملّاح التائه».

والنـاس فـي قريتنـا يحبّونـه جميعـاً، فهـو مغـرم (بالمناصيـر)[1] وأدبهـم، وقـد جمعـت منـه شـيئاً كثيـراً، وكتـب عنـه لـي تلميـذ ذكـي محبـوب.

وفـي قريتنـا شـخص آخـر بخيـل مثـل «شـايلوك»، بل إن «شـايلوك» أكـرم منـه، فبخـل «شـايلوك» يمليـه الحقـد والغيـظ والـذكاء، وبخـل صاحبنـا مـرض واسـتهبال، والبخـلاء ـ كمـا يزعـم الجاحـظ ـ لا يموتـون مطلقـاً، وهـذا البخيـل عَـمّ لـي فـي القرابـة القريبـة، ولـه فـي قريتنـا حميـر وديـار يبيعهـا «جـذرة»، أي يبيعهـا بأثمـان باهظـة ليزرعهـا الفقـراء فيطعمـون بهـا المسـاكين مـن أطفالهـم.

وقـد كان صاحبنـا البخيـل هـذا متزوِّجـاً مـن فتـاة جميلـة، ولكنهـا مصروعـة، ماتـت، وبقـي هـو يجمـع الأمـوال ويحرسـها. ولا شـكّ عنـدي أنـه قتلهـا بنظراتـه التـي كان يرسـلها مـن عينيـن تشـبهان قـدود الجلـد، ثـم تـزوَّج بعدهـا أختهـا وسـكن معهـا، وهـي قويّـة جـداً تطعمـه مـن حُـرّ مـال أبيهـا وأمّهـا، وتسـقي لـه حميـره وأبقـاره، وهـو لا يهتـمّ.

وكان صاحبنـا البخيـل يدفـن محصولاتـه مـن الفاصوليـا والـذرة فـي المطاميـر سنين عـدداً، وصاحبنـا فـوق ذلـك يصلّـي للـه تعالـى ويسبِّح، ويصلّـي فـي جماعـة، ولا يغضـب مطلقـاً، وهـو يسـعى إلـى المسـجد، ويلقـى شـيخنا الكريـم وإخوتـه، ويـأكل الطعـام الجيـد.

1 - قبيلة من قبائل السودان في الشمال..

ومثل عمّي هذا كثيرون فى القرى، فاذكروا أعمامكم من أمثاله واذكروا القرية وأسألوا أهلها.. قال تعالى: «وأسأل القرية التي كنا فيها»، أي أهل القرية، ففي القرية فنانون، وفيهم الأفّاقون والعُمي، ومعظمهم أذكياء، أو هكذا يحدِّثنا المشايخ الذين يدرِّسون علم النفس، فاذكروا قراكم، فالقرية هي مصغرّ الدنيا الطويلة العريضة.

## الشيخ وجريدة النخل

حدث ذلك في قريتنا تلك التي ترقد على الشاطئ الغربي من النيل، فيها الرمل والحصى والتراب،وفي كلّ عشرين عاماً تطوف بها السيول تحمل الجثث من الناس والأنعام، جثث آتية من بعيد، والنساء يخضن السيول ـ ولا يحفلن بالجثث ـ ليتبرَّكن بالسيل، ولا بدّ للبركات من الصراخ: فكنّ يصرخن، وجاء سيل بعد عام وكانت طفلة عمرها ثلاث عشرة سنة فقط، وكان كهلاً عمره خمسون، وزوّجوها منه، وكانت له زوجات غيرها ثلاث لم يلدن فقد كن من اللائي...، من اليائسات.

وتزوَّجها!! هكذا أراد أبوها، لأن الرجل قريبه ولأن للرجل مالاً، دراهم وأغناماً ودياراً وحميراً.

وما كانت الطفلة تعرف ذلك ودخل بها..

ليلة، دخل عليها الكهل، وأصبح الصباح فإذا بها مجنونة،

وجاءوا بفقير[1] أملس أسمر يلبس ثوباً أبيض، فقير معروف مشكور، وجلس بجانبها وكانت مسجّاة[2] بثوب أسود راقدة على عنقريب كأنها قطّة. جلس عندها فوق الكرسي الوحيد، كرسي من الخيزران، وجلسنا جميعاً: أمّها وأبوها وأنا غير بعيد، نرقب. وكان الفقير يحمل في يده السمراء الملساء غصناً من أغصان النخل، غصناً أخضر، وكان يضرب الطفلة ـ أعني القطّة ـ ضرباً رفيقاً ويتمتم، وكانت الطفلة تهتزّ كلّها، كأنها جان، وحسبت أن الفقير ولّى مدبراً، ولكنه لم يفعل.

وكان السيل يحمل الجثث، السيل الآتي من بعيد، وكانت نسوة القرية يصرخن ويخضن ويتبرَّكن.

ومكث الفقير أربع ساعات كاملات يضرب الطفلة بجريدته ضرباً ليناً، والطفلة تهتزّ كأنها جان، ونظرت أنا إلى الفقير فلم يولِّ الأدبار، وانقضت الساعات الأربع، وركب الفقير حماره وذهب. عاد في اليوم التالي وكان السيل قد انحسر، وضرب بجريدته الخضراء ضرباً ليناً، واهتزّت الطفلة اهتزاز الحيّة. وفي اليوم الثالث رجع يحمل البخور، وسلَّموه من الذهب الأحمر أوقيّة كاملة، ورجع وترك الطفلة تهتزّ. ومضى عام وتَبِعَه عام وعام ثالث، وانقضت أعوام عشرة، وأصبحت الطفلة امرأة، أصبحت

1 - تطلق على الفكي - وأصلها فقيه - والمراد بها عند أهل السودان الرجل ذو الدين، التقيّ الصالح الذي يتبرّكون به ويلجأون إليه في الملمّات.

2 - مُسَجّاة - مُغَطّاة.

أمّـاً لأربعـة أطفـال، سـمينة ملسـاء سـمراء تشـبه الفقيـر. الفـرق الوحيـد أنها تبتسم بعينيها وبأسنانها الناصعة وبوجهها كلّـه، وفـي كل عـام صـارت تـزور فقيـراً آخـر يسـكن بعيـداً مـن قريتهـا تـزوره ومعهـا زوجهـا الكهـل وأطفالـه!

## الذاكرون

كانـت أصواتهـم تصـل إلينـا فـي سـكون الليـل، تحملهـا الريـح وتعطـف عليهـا النجـوم، وكانـت توقظنـا مـن مراقدنـا صغـاراً وكبـاراً، ذكـوراً وإناثـاً، فقـد كانـت أصواتـاً حلـوة رخيمـة تنـادي علـى قـرع الدفـوف والطبـول «أن لا إلـه إلا اللـه..».

وتقتـرب الأصـوات حتـى تغمـر القريـة، وللطبـل انفعـال، وللـدفّ زفيـر وشـهيق، وفجـأة تسـكن الضجّـة كلّهـا، ويبـدأ المنشـدون، واحـداً فواحـداً، يمدحـون الشيـخ مـن حلـوق مبحوحـة، ثـم يسـكتون فجـأة أيضـاً.

ونعـرف نحـن جميعـاً: صغـاراً وكبـاراً، رجـالاً ونسـاء، بناتـاً وأولاداً نعـرف ـ ولـم نفـارق مضاجعنـا ـ أن الرجـال يُقبّلـون يـدي الشـيخ، يَحْبُـون إليهمـا مـن بعيـد، ونعلـم أن الشـيخ يسـألهم عـن عيالهـم وعـن أهلهـم وعـن المطـر وعـن الغنـم بصـوت خافـت وهـو يقـول لـكل واحـد منهـم:

ـ كيفك يا..؟ «ويسمّي كلّ واحد منهم باسـمه»..

ـ المبارك ما طاب !؟ والدتك؟ لعلها ما بتحسّ بي حاجة!؟

فإذا فرغوا خرج الشيخ إلى ديوانه البعيد ليصلّي ويتعشّى وينام.

ويقف رئيسهم، ويقفون جميعاً في حلقة واسعة في دائرة مركزها الرئيسي، ويدفع الرئيس يديه إلى أمام، ويحني ظهره حتى تكاد رأسه تبلغ التراب، ويرسل من فمه جعرة، فقد اختاروه لأن له خواراً «ويرمى» الذكر وتدقّ الطبول والدفوف وينشد المنشدون ويجعر الآخرون ويهتز بعضهم بلا خوار ويثغو آخرون دون اهتزاز ويحوم الرئيس في الحلقة يُحيي ميّت الهمم، وتسحرهم الموسيقى وتبلغ بهم النشوة مبلغاً عظيماً فيُرغي بعضهم، ويُزبد آخرون، ويطمطم كثيرون.

وتمرّ ساعة كاملة وتخفت الأصوات فنعلم ـ نحن جميعاً ـ أن الذاكرين همدوا قليلاً، فلقد عرفوا النشوة مجتمعين. همدوا قليلاً يستجمعون القوى الخائرة لطبقة جديدة من الذكْر.

# بلاد من؟ودولة من؟[1]

منصور خالد

المبادئ السياسية ليست أفكاراً تجريدية. وليست شعارات خالية من المحتوى وانما هي ـ قبل كل شيءـ منهج، والتزام، وأسلوب حياة؛ فالمبادئ السياسية التي لا تخرج عن إطار الميتافيزيقا والجدلية العقيمة لا تغدو أن تكون ضرباً من التهريج أو ـ في أحسن حالاتهاـ لوناً من ألوان الترف الفكري الذي يمارسه المثقَّفون وأشباه المثقَّفين.

وقد ظلّ الكثير من شعوب العالم الثالث يرزحون ـ في الأعوام الأخيرةـ تحت إطار قيادات سياسية تغذّيها الشعارات التي لا تخرج عن إطار التجريدات، ولا تمسّ حيوات الناس وواقعهم المعيش.

ومثل هذه الشعارات التي لا تقوم على المجابهة الصريحة والحوار الواعي، ولا تنعكس أخلاقياتها في تصرُّفات القيادة ومسلكها العامّ ومسلكها الخاص، بل وتخلق لدى الشعوب تطلُّعات نحو أهداف عصيّة التحقيق؛ مثل هذه الشعارات تنتهي دوماً بكفران الناس بالمبادئ نفسها، واستجابتهم لمنطق ردود الفعل وما

1 - من كتاب «حوار مع الصفوة»، (دار التأليف والترجمةوالنشر - جامعة الخرطوم- 1974).

يصحبها من تخاذل وخذلان؛ وأسلوب كهذا في العمل السياسي يفتقد أهمّ ما يجب أن تتميَّز به القيادات السياسية: ألا وهو المسؤولية.. فالمسؤولية ـ فيما يقولون ـ هي الحَدّ الوحيد للحرّية السياسية والممارسة السياسية.

## الالتزام بالمسؤولية التزام خُلقي

وواقع الأمر أن أكبر الأزمات التي يعانيها العالم الثالث اليوم هي أن أقلّ عناصره إدراكاً لمستلزمات المسؤولية الوطنية عقب الاستقلال هي الصفوة. والالتزام بالمسؤولية هنا ليس التزاماً سياسياً أو تنظيمياً فحسب، وإنما هو ـ بالمكان الأول ـ التزام خُلقي، بيد أن موقف عدم الالتزام هذا إنما هو نتيجة حتمية للوضع الذي وجدت الصفوة نفسها فيه.
فالصفوة هي حاملة راية التحرير الوطني، وهي ناشرة لواء العدالة الاجتماعية والممارسة الديموقراطية، إلا أنها ـ في الوقت نفسه ـ الوريث المباشر والوحيد للحكم الأجنبي وامتيازاته، وفي الغالب الأعمّ، لامتيازاته دون مسؤولياته؛ ولذا فإن لم تستطع الصفوة القسوة مع نفسها في الحساب فستنتهي بالضرورة إلى الانحراف. والانحراف ظاهرة طبيعية لأن الإنسان بطبعه هلوع يعشق المتعة، ويحبّ الدعة، ويحفل من البذل، باستثناء العصبة أولي العزم.

والـذي ينظر إلـى الوضع الاقتصادي الـذي ينحـدر مـن سـيّئ إلـى أسـوأ فـي الكثيـر مـن بـلاد إفريقيـا الناشـئة، وينظـر إلـى الفـوارق الطبقيـة المريعـة التـي بـدأت تطلّ بوجههـا الكالـح ليـدرك مـا أعنى، وفـي الصـورة القائمـة التـي رسـمها البروفسـور رينيـه دومونـت فـي كتابـه «إفريقيـا تتنكَّـب الطريـق» والـذي ظـلَّ حديـث الإفريقييـن والمتأفرقيـن خـلال الأعـوام الأربعـة الماضيـة. فـي الصـورة القائمةالتـي رسـمها دومونـت كتـب محمـدو ديـا السياسـي السـنغالي المعـروف يحدِّثنـا عـن مخاطـر البرجوازيـة الجديـدة ـ برجوازيـة الصفـوةـ فيقـول: «فـي إطـار البروقراطيـة الجديـدة أخـذت برجوازية جديـدة تطـلّ علـى المجتمـع الإفريقـي، إنهـا ليسـت ببرجوازيـة المغامـرة والفتـح والعمـل التـي قـادت أوروبـا إلـى مرحلـة الانطـلاق، وإنمـا هـي برجوازيـة المثقَّفيـن الذيـن وصلـوا نتيجـة وضعهـم الممتـاز إلـى مراكـز القـوّة، ولـم يعـد لهـم مـن هـدف بعـد هـذا إلا الحفـاظ علـى المواقـع التـي اسـتولوا عليهـا، وتبديـد أمـوال الجماهيـر فـي الإنفـاق عديـم الجـدوى.».

## صفوة السودان

والسـودان ـ شـأنه شـأن بـلاد العالـم الثالـث الأخـرى، أو أكثرهـاـ لـم ينـجُ مـن هـذه الظاهـرة السـلبية، وهـي سـلبية تتبـدى ـ كمـا أسـلفت ـ فـي الحـرص علـى الإبقـاء علـى كلّ الامتيـازات الموروثـة مـن

الحكم الأجنبي، وتتبدّى في الانصراف نحو الإنفاق المبدّد في بلاد تحسب ما لها بالدانق والسحتوت، وتتبدّى في الإغفال التامّ للريف وتركيز كل مظاهر التطوُّر والتجديد في مراكز التجمُّعات الحضرية، بالرغم من أن الريف «هو المستودع الدائم للقيم التقليدية» التي يقف كثير من تصوُّراتها وممارساتها عقبة كؤوداً في وجه التطوّر الذي يقوده المجتمع القومي.

ولو تناول المرء ـ مثلاً ـ ظاهرة واحدة مثل ظاهرة الإنفاق المبدّد لَوَجَد هذا الإنفاق تمارسه وتُمَكِّن له الطبقات والقيادات نفسها التي تتحدّث عن التنمية والعدالة الاجتماعية والتحوُّل الاشتراكي. ولن يحتاج المرء إلى أكثر من النظر إلى إحصائيات التجارة الخارجية التي تصدرها وزارة التجارة السودانية، لن يحتاج المرء لأكثر من النظر إلى هذه الإحصائيات ليدرك صدق ما أقول، ولتنظر معي إلى هذه الأرقام التي تنقل صورة منتقاة من إحصائيات التجارة الخارجية في الأشهر الخمسة الأولى من عام 1965. في خلال هذه الفترة بلغت قيمة ما استورده السودان من التبغ والمشروبات 391,315 جنيهاً، يقابلها 673,690 جنيهاً لاستيراد الأدوية والمنتجات الصيدلية، وبلغت قيمة ما استورده السودان من سيارات النقل المشترك 170,568 جنيهاً، يقابلها 344,064 للسيارات الخاصّة، وبلغت قيمة ما استورده السودان من الآلات الزراعية (وهذا يشمل آلات تحضير التربة، والحصاد والجرارات وصناعة الألبان) 267,584 جنيهاً،

يقابلها 555.337 لاستيراد الفواكه من أميركا والملايو، والمربّى من إيطاليا وبلجيكا والدنمارك وبولندا، والبطاطس من هولندا وألمانيا وقبرص وإيطاليا، وهذا عدا 11.609 جنيهاً لاستيراد البسكويت، نعم البسكويت! تالله، لقد ظلم مدرّسو التاريخ في مدارس السودان ماري أنطوانيت ظلماً فادحاً، وفي ديارهم ماريّات كثر.

وينتقل المرء إلى الأشهر الخمسة الأولى في عام 1966 ليجد أن قيمة ما استُورِد من التبغ والمشروبات خلال هذه الفترة قد بلغ 230.813 جنيهاً، وانخفضت قيمة ما استورِدَ من الأدوية والمنتجات الطبية إلى 572.307 جنيهاً، وبلغت قيمة ما استورِدَ من العطور ومستحضرات التجميل 140.814 جنيهاً.

وما استورِدَ من الخضروات والفواكه 335.336 بجانبها 280.672 لمنتجات الألبان، وما استورِدَ من السيارات الخاصّة بلغت قيمته 433.669 جنيهاً، مقابل 56.497 جنيهاً لوسائل النقل المشترك، أما البسكويت فقد بلغت قيمته 183.074جنيهاً. وحرصاً على جلب السعادة لشعب ماري أنطوانيت هذا فقد ذهبنا لاستيراده من هولندا، وبلجيكا، وفرنسا، وألمانيا، والدنمارك، وهنغاريا، وأستراليا، والصين.

## عشرة في المئة

وراء هذه الأرقام المزرية يكمن جانب كبير من مأساتنا، والسرّ في مأساتنا هو السودان الذي تبلغ مساحته مليوناً مربَّعاً من الأميال، ويشقّه أكبر أنهار العالم.. أو لِأَقُلْ ـ خشيةً من حساسية مدرِّسي الجغرافيا ـ أكبر أنهار العالم بعد المسيسبي ـ ميسوري، بلد يستورد خلال خمسة أشهر من الفواكه والخضروات ما تربو قيمته على نصف المليون من الجنيهات، أي ضعف ما أنفق لاستيراد الآلات والمعدّات الزراعية! وقائمة الواردات التي أشرت إليها، كلّها بلا استثناء، لا يستهلكها أكثر من 10 في المئة من أهل السودان، هذه العشرة في المئة هي نحن؛ دعاة التجديد، حماة الديموقراطية، رافعي راية العدالة الاجتماعية.

لنتناول الظاهرة الثانية، ظاهرة الانفصام الضارّ بين أهل المدن وأهل البادية، بين الريف والمدينة. وظاهرة الانفصام هذه ظاهرة قديمة منذ أن برزت المدينة في الكيان السوداني، وقد ظلَّت المدن في السودان الحديث تتطوَّر بصورة أخذت معها المدن تبدو كبثور غريبة طارئة في جسم الأمّة؛ فبحكم نفوذها الاقتصادي، ووضعها السياسي وإمكاناتها الثقافية فرضت المدينة نفسها على بقية أجزاء القطر فرضاً، وهو فَرْض لم تصحبه المحاولات العلمية الجادّة لإحداث التغيير الحضاري الضروري الذي يجعل من المجتمع القومي كلّه وحدة فكرية واقتصادية،

وقد أدرك المستعمرون في الماضي أخطار هذا الانفصام، لاسيّما وهم يدركون أن المدينة شيء جديد طارئ في المجتمع الإفريقي، وما كتبه اللورد لوقارد، والسِّيْر دونالدو كاميرون من غرب إفريقيا يشير إلى هذا، وتقرير لجنة ديلاوار عن السودان يشير إلى هذا أيضاً، إلا أن معالجة الاستعمار لهذه الظاهرة كانت ـ بالضرورة ـ معالجة في إطار الوضع الاستعماري وكانت تستهدف حماية المصالح الاستعمارية.

أشير هنا ـ على وجه التحديد ـ إلى مذكرة السير دوقلاس نيوبولد في فبراير عام 1939، والتي قال فيها أن الطريق لإنهاء هذا الانفصام بين الريف والمدينة لن يتمّ إلا بفتح أبواب المدارس الأولية والوسطى لأبناء القطر، وفتح أبواب المدارس الثانوية لأبناء نظّار العموم، وإدخال بعض عناصر «الأفندية» في المجالس الريفية، وتدريس التربية الوطنية في المدارس الثانوية، وإنشاء مدارس للتعليم الريفي في بعض المدن، وتوسيع آفاق «الأفندية» بإتاحة الفرصة لهم للخروج إلى مراكز التجمُّع الريفي، واستبدال الإدارة الأهلية بالحكم المحلّي الذي يمكن أن يشمل ـ على حَدّ قول نيوبولد ـ سلطنة دار مساليت بجانب مجلس بلدية بورت سودان.

## وجاء الحكم الوطني

نعم، لقد أدرك الاستعمار هذه الظاهرة الخطيرة، ومضى يحلِّلها بمنطقه وبفهمه ويحاول حَلَّها وفق أهدافه، وجاء الحكم الوطني، وجاء معه المثقَّفون الذين سمّاهم السِّيُر دوقلاس (الأفندية) يشقّون طريقهم صعوداً إلى سدّة الحكم في إطار سياسي واجتماعي جديد، وفي الإطار الجديد لا يختلف اثنان - أو يجب أن لا يختلفا - في أن الهدف الرئيسي لأي حكومة، لأي نظام، لأي خطّة سياسية هو تحقيق الوحدة الوطنية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية. وهذان الهدفان لا يمكن تحقيقهما في أي وضع يغفل المجتمع الريفي، فلا وحدة وطنية بلا ريف، ولا تنمية بلا ريف؛ فالمشكلات التي تعاني منها المجتمعات المتخلّفة مكانها في الريف، وموضوعها الإنسان الريفي، وغاية التنمية هي تحويل الريف إلى مراكز إنتاجية حديثة، وتحويل الإنسان الريفي إلى إنسان قومي ينفعل بالأحداث التي تدور في المجتمع القومي، ويتحرَّك معها، ويسهم فيها بحيث تَتَّفق في الوحدة القانونية والسياسية للوطن أو المجتمع القومي وحدة اجتماعية واقتصادية وفكرية، ويتم التفاعل بين الريف والمدينة فلا تظلّ المدينة معدة نَهِمة وخزينة طامعة، وسلطة باطشة، ويبقى الريف مزرعة قانعة وضريبة مُتَّصلة وذلّاً مقيماً.

## صلة غوغائية فقط

وقد ظلَّت الأرياف بالنسبة للقيادات السياسية في السودان مستودعاً لاستجلاب الناخبين والهتّافة، وظلّت بالنسبة للقيادات الإدارية منفى لغير ذوي الحظوة. والصلة الوحيدة التي ظلَّت تقوم بين التنظيمات السياسية والأرياف صلة غوغائية، صلة الليالي السياسية العابرة، والحشود المصطنعة، والخطابيات المعادة عن الحرّيّة الحمراء واليد المضرَّجة، أما الحوار، أما النوعية، أما الوجود السياسي الدائم فلا مكان لهم في قواميس الأحزاب. إننا نتحدَّث اليوم عن الديموقراطية وحكم الشعب، والاشتراكية ومجتمع الكفاية والتنمية.. وكل هذه الأفكار غيبيات عند الرجل الريفي، ولا يمكن له أن يستجيب لها، ويتفاعل معها ما لم تكن هناك توعية، وما لم تكن هنالك إبانة، وما لم يكن هنالك ترشيد: توعية وإبانة وترشيد تُعرِّف الإنسان الريفي أن هذه الأفكار إنما ترتبط ارتباطاً عضوياً بواقعه وحياته، بل هي قدره ومصيره وحياته. ومثل هذا التوعية لا يمكن أن تتمّ بالإنشائيات ولا بخطابات الليالي السياسية العابرة، ولا عن طريق لجان التشريفات الفرعية التي تضمّ سرّ التجار، وباشكاتب المركز، وشيخ المركز، وفضيلة قاضي الشرع وكل من توافر في الإقليم من أرباب المعاشات.

إن القيادات الرشيدة في العالم الثالث هي تلك القيادات التي أدركت أن التغيير الحضاري لا يتمّ إلا بالانتقال بالحركة السياسية إلى مراكز التخلُّف، وبمحاربة الانحراف لدى الصفوة. المعلم جوليوس نيريري زعيم يمكن أن يتعلَّم منه ساسة إفريقيا الكثير في هذا الميدان. لقد ترك نيريري مركزه كرئيس لحكومة تنجانيقا غداة الاستقلال، تركه لرشيدي كاواوا، وذهب طواعية إلى الريف ليعيش مع أهل تنجانيقا عاماً كاملاً يدرس أحوالهم ويدرِّسهم أفكاره، ذهب ـ على حَدّ قوله ـ ليشرح لهم معنى الشعارات التي بدأ ينادي بها في دار السلام: الاشتراكية، الحياد الإيجابي، محاربة العنصرية والاستعمارية، التنمية الاقتصادية.

## مقرَّرات أروشا

وعاد نيريري ليقيم دولته الجديدة، ومن ورائه شعب يتفاعل معه، وبدأ خطوته الثانية في تنظيف داره وتطهيرها، بدأها بمحاسبة القيادة والصفوة، وكانت مقرَّرات أروشا في مطلع العام الماضي. التضحيات والمحاسبة تبدأ في أعلى المستويات، أعضاء الحزب، أعضاء البرلمان، الوزراء، كبار الموظفين، قادة النقابات المهنية والعمالية، فالقيادة التي لا تحاسب الأقوياء لا يحقّ لها أن تحاسب الضعفاء، والقيادة التي لا تفرض التضحيات على القادرين لا تملك أن تفرضها على المساكين.

**بلاد من؟**

إنه لَمِنَ المحزن حقّاً أن يستمع المرء إلى الأصوات التي ترتفع كلّ يوم حول فقدان المسؤولية عند العامل والزارع الذي يطالب بالمزيد، غير عابئ بالضنك الذي تعانيه البلاد. من المحزن حقّاً أن تلك الأصوات لا تقف لحظة لتتساءل: بلاد من؟ إن فالح الأرض في الجزيرة الذي يدرّ على السودان ستين في المئة من عائد استيراده من حقِّه أن يتساءل عندما يرى هذا العائد يُنفَق إنفاقاً طفيلياً مبدّداً، لا في استيراد الآلات الإنتاجية وتحسين الخبرات بل بسبب استيراد العطور والسيارات الخاصّة والبسكويت... وعندما يرى أن بلاده تنفق في استيراد التبغ والمشروبات ما يقارب إنفاقها في استيراد الأدوية والمستحضرات الصيدلية، في الوقت الذي يفتك فيه وباء بدائي مستوطن كالبلهارسيا بأهل إقليمية، من حقِّه عندما يرى كل هذا أن يسأل الذين يتحدّثون عن التضحية من أجل البلاد ومن أجل الدولة! بلاد من؟ ودولة من؟ إن التضحيات ـ إن كانت هنالك تضحيات ـ يجب أن يبدأها القادرون.

وواقع الأمر أنه ليس هنالك من تضحية، وإنما هنالك دَيْن مستَحَقّ طال أمد سداده، فالامتيازات التي ورثناها من الاستعمار لم نرثها إلا لمركز ممتاز، والمركز الممتاز لم ينحدر إلينا من آبائنا الأقيال من آل بوربون وآل هابسبرج، وإنما حصلنا عليه

نتيجة ما نلناه من تعليم، والتعليم ما كنا لنناله لولا التضحيات التي قدَّمها شعب السودان ليمكِّن أبناءه من المعرفة. ولا أظن أن هنالك بين شعوب الأرض شعباً أنفق بقدر ما أنفق شعب السودان ليعلِّم ناشئته». لقد رسم نيريري صورة رائعة للمثقَّف الإفريقي الذي يجفل من التضحية في سبيل مجتمعه «مثله مثل الرجل الذي جمعت له القرية كل ما لها وأرسلته ليأتيها بطعامها، فذهب ولم يعد.».

## حديث لعبدالناصر

وتحدَّث عبدالناصر في مطلع العام الماضي إلى مثقَّفي مصر بمناسبة عيد العلم حديثاً، ما أجدرنا بأن نعيه! وما أجدر قادتنا بأن يردِّدوا مثله!

قال: «فليتحوّل كل مثقَّف بما أخذه إلى مصدر عطاء للذين أتاحوا له، ومكَّنوه، وحقَّقوا امتيازه، وإلا فهو شجرة عقيمة عاشت من الأرض، وارتوت بعرق السواعد، وأحاطتها الرعاية بكل أنواعها، وامتلأت بشعاع الشمس ثم لم تعطِ ـ في النهاية ـ زهراً، أو ثمراً أو ظلاًّ».

لقد قلت في مطلع هذه المقالات إن السودان قد شهد في الإمام المهدى المفكِّر السياسي الأصيل الأول والأخير، وأضيف ـ اليوم ـ أن السودان قد شهد فيه أيضاً الزعامة السياسية الوحيدة

التي أدركت أن قيادة أي مجتمع نحو الخير لابدّ أن تكون قيادة خلقية، وأن المجتمع الطاهر لا يمكن أن يقوم ما لم تتطهَّر القيادة، وأن العامّة لن تَصلُح ما لم تَصلُح الصفوة، وأن البذل والتضحية يصبحان عنتاً واقتساراً ما لم يُفرَضا على القادرين قبل جمهرة الكادحين. كتاب «الإمام» لمحمد الخير عبدالله خوجلي حول غنايم بربر، لَسِفْر عظيم جدير بحكّام السودان الجديد أن يقرؤوه في غمرة حديثهم الدائب عن الفضيلة والخير والصلاح، في دولة لا يخلو جهاز واحد منها من الفساد، ولا تخلو دائرة واحدة فيها من المفسدين: «إنك جدير بعظمة ما عند الله، وخسّة ما في الدنيا وإن كثر، وقد تعلم أنها لا تعلو همّة أحد في الجهاد في هذا الزمن لاكتساب شيء من خسيس الدنيا الفانية غير الترك الكافرين وأعوانهم الكاذبين الضالّين، ومن نحا نحوهم من الأغبياء والمنافقين الداخلين في وعيده تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَة» أعيذ نفسي وأياكم والمسلمين ممَّن هذا حاله.».

ومثل هذه القيادة التي تبدأ محاسبتها في القمة، والتي تحاسب الكبار حتى على الدوانق، هي القيادة التي تجسر على دعوة الشعب للبذل والتضحية.

واسلوب كهذا في التوجيه سينتهي بالضرورة إلى تعميق معنى المسؤولية الوطنية لدى الذين يتصدّرون أمور البشر. ولذا فقد

شهدنا، يوم ذاك، كيف أن الصفوة الحاكمة أخذت تعامل الملكية العامة ومال الأمّة بحساب يشبه التقديس. رسالة الأمير عبدالرحمن النجومي وحمدان أبو عنجة إلى المهدي لَشَهيدٌ على ذلك: «إننا حضرنا بجهة مندر، وإن إخواننا الفقراء لمّا رأينا مأكولهم البليلة أذنّاهم بتعاطي قليل من البصل والويكة والسمسم. وقد رأينا ذلك غير مخلص عند الله تعالى بلا رفع الأمر إلى سيادتكم، وحيث أن الإخوان حاصل لهم التعب، ومعنا أبقار قليلة التزمنا بتحرير هذا العرض لسيادتكم راجين الإذن في راحة الإخوان،، وأن تبيّنوا لنا الجائز تعاطيه منها والممنوع لسلوك طريق الرشاد.». رسالة بسيطة في تعبيرها، ساذجة في تقريرها، إلا أنها تفيض نبلاً وثورية ومسؤولية، وردُّ الإمام عليها درس آخر في المسؤولية الوطنية: «أسأل الله أن يجزيكم ويعطيكم أحسن الجزاء والثواب. وأن يجزيكم عنا وعن دينه والمسلمين خيراً وإحساناً، ويكفيكم شرّاً وامتحاناً. فشدّوا على ذلك وزيدوا فيما هنالك مما تكرمون به عند الله وتفوزون به إلى الدرجات العُلا، وتدخلون به مع الملأ الأعلى. أما البصل والسمسم والويكة وغيرها من المأكولات فجائز للمجاهد أن يأخذها بضرورة من غير ادِّخار وتموُّل.».

# الشرب من كوب خشبي..[1]

علي المك

أعلن على رؤوس الأشهاد أن الدنيا كرويّة، لهذا تعذَّبَ «غاليليو»، ولأنني أقول الآن مثل هذا الكلام أتعذَّب، وإن كانت الأرض (أم هي الدنيا؟) كرويّة، أو مسطّحة منبسطة، فليس هذا موضوع نزاع، ولا هو بمحلّ نقاش اليوم والساعة واللحظة، وهب أنها تدور، فمن أدراك أنها تدور؟ فلو كانت تتحرَّك وتدور لَلَفظتنا إلى شمالها المتجمِّد أو إلى جنوبها السحيق.

والدنيا حالها هو حالها منذ أن عَرَف «غاليليو» دورانها واستدارتها إلى يومنا هذا، ومن قبل أيامه تلك تدور وتدور، أو لا تدور. ألم تسمع من يقول: هكذا حال الدنيا؟ ويقال مثل هذا دائماً في الموت والفواجع. قل لي: ولم يذكر الناس حالها حين تلمّ بهم المصائب، وينسون ذلك (الحال) حين تغمرهم السعادة من كل جانب؟ غريب أمر البشر! غريب والله أمرهم!.

رأيت، فيما يرى النائم، شجرة وارفة الظلال، تقوم على قبّة الأفق فوق جزء من الأرض، لا هو مستدير، ولا هو منبسط، (حلم الجوعان عيش) كما يقولون، فالشجر الوارف الظلال أندر من

1 - من كتاب «وهل أبصر أعمى المعرة؟»، (الدار السودانية، 1974).

أسنان الدجاج هذه الأيام. ولن نستغرب إن طلع علينا رجل فاسق أو غير فاسق بنبأ أن من بين دجاجاته (العشر) دجاجات ذوات أسنان!

رأيت، فيما يرى النائم، شجرة وارفة الظلال، تقوم على قمة الدنيا بحيث أبصرت من موقعي ذاك استدارة الدنيا، وانبساطها أيضاً، أَبِثِمارها تتميّز الأشجار أم بظلالها؟ فلو أنك سألتني أقول: إن الأشجار تتميَّز بظلالها.

وكانت شجرة وارفة الظلال، ورقها على أغصانها يميل إلى سواد حالك لفرط اخضراره، وكان ظلّها عظيماً ضافياً، وكانت الشمس لا تأتيه من أي مكان، ولكنها تحيط بالظل وتطوِّقه، كانت عظيمة، غليظة الساق، أَبِثِمارها تتميَّز الأشجار أم بظلالها؟.

رأيت، فيما يرى النائم، أني كنت نائماً نومة في جوف نومة فأعجب. وأنَّ شاباً أعرف ملامحه ولا أذكر له اسماً كان يقف أمامي،كان طويلاً فارع الطول، يد على صدره وبالأخرى يشير ويلوِّح «أنا» قال، واستطرد «من جيل العادة السرية»، فزعت حتى كدت أستيقظ من نومتي التي هي بجوف نومة أخرى.

«ماذا تقول؟» قلت له:

«سمعتني»، قال محدِّثي، قلت له:

ـ أحقّ ما تقول؟

ـ كل الحقّ.

ـ متى كانت الأجيال تقاس بعاداتها؟ إنما تقاس الأجيال بما

قدَّمت، وما تقدِّم من أعمال.

ـ كان ذلك في القديم الغابر من الزمان، ولكن الأجيال ـ اللحظة ـ تُقاس بعاداتها، كما تتميَّز الأشجار بظلالها لا بثمارها. ما الذي أغراني باللجوء إلى هذه الشجرة؟ ثمرها؟ والله، إني لا أعرف إن كانت تثمر ليموناً أم زقوماً، ولكن ظلها بهرني، فانطلقت أنشد هذه النومة الهانئة، نومة في جوف نومة، ثم قطع محدِّثي حبل أفكاري حين قال متسائلاً: «أعرفت أن الأجيال تُقاس بعاداتها»؟، قلت وكأني أريد أن أصرفه «أمضِ عني»، فقد أفزعني كلامه، ولا أريد أن أصرفه لأن الحقّ ـ ربّما ـ كان في كلامه. قلت له:

ـ حدِّثني عن ذلك الجيل.

ـ لقد ذكرت لك من سماته أبرزها.

ـ ولكن تُذكَر الأجيال بأحسن صفاتها؟

ـ هراء، أبرز الصفات أحسنها.

ـ هراء، هراء، حدِّثني عن ذلك الجيل.

صَفَّق بيديه، رأيته في المنام يصفِّق ويبتسم، ثم تظهر إلى يساره فتاة رائعة الجمال كبلقيس، ويطلع إلى يمينه فتى وسيم رائع كيوسف، ويقفان إلى يمينه ويساره باحترام، وكأنهما يستعدّان لتلبية أي أمر يأمر به، يقفان في طاعة كالمارد الذي انطلق من قمقمه ينحني احتراماً لمن خَلَّصَه من الأسر الطويل.

عقد محدِّثي يديه فوق صدره، وابتسم ابتسامة هي ابتسامة

الرضـى. «ومـن تكـون هـذه الفتـاة الحلـوة، وذاك الفتـى الغـضّ النضيـر؟» أقـول فـي نفسـي، وكأنـي كنـت أكلِّمـه. قـال صاحبـي:

ـ هـذه أميـرة الحسـن، رمـز الجيـل الغاضـب، وذاك صاحبهـا، علـى الغضـب التقيـا.

ـ وممّ الغضب؟

ـ كانـا يريـدان قصاصـاً مـن جيـل العـادة السـرّية فأخضعهمـا ذاك الجيـل لأوامـره ونواهيـه وتعاليمـه.

ـ أيّ جيل تعني؟

ـ قد قلت لك: لا تُعِدْ عليَّ هذا السؤال.

ـ حسناً، وبمَ يُعرَف الجيل الغاضب؟

ـ بمـدى غضبـه، ومـدى خضوعـه لجيلنـا، ألا نحقـد علـى مـن يُخضِعنـا؟!

ـ إن كنّا مخلصين مع أنفسنا وصادقين! نعم.

ـإذن، فمـن حـقّ هـذا الجيل أن يحقد علينا إن نحن قد أخضعناه.

ـ شتّان ما بين الحقد والغضب.

ـ لافـرق بينهمـا، هـذه عاطفـة وتلـك عاطفـة، هـذه تلهـب الفـؤاد، وتلـك تحرقـه.

ـ فلِمَ لا نسمّيه جيل الحقد وكون الحقد أبرز صفاته غير مدافع.

ـ «هـا.. هـا.. هـا..» ضحـك صاحبـي، ولمحـت الفتـى وقـد تغيَّـر مـا علـى وجهـه مـن تعبيـر إلـى شـيء يشـوبه الأسـى، ثـم إنـه ينظـر إلـى الفتـاة خلسـة كأنـه يشـتهيها، كانـت ـ بحـقّ ـ رائعـة الحسـن، ألا

تشبه فتاة أنت تعرفها في اليقظة والحياة؟ وهَبْ أنها هي، قم إليها وعانقها، الساعة. اللحظة، الآن من قبل أن تفرّ. إن أسوأ الأحلام ما تعرف ـ وأنت نائم ـ أنه حلم.

«قم واشرب معنا..» قال صاحبي، قلت «وما تشربون؟» قال «مزيجاً من دم هذا الجيل وذاك». أقول في نفسي، «ومن أدراك أنك إن شربت من شرابهم أخذت من صفات هذا الجيل وذاك؟».

ثم قدَّم لي شراباً في كوب من الخشب. ناعم الملمس كان الكوب، قال «اشرب». سكتّ، نظرت إليه، رأيت في عينيه تصميماً وعزماً، كانت الفتاة من خلفه تهتزّ بإيقاع لا يُسمَع، قلت: «لا أشرب من شرابكم لكم، جيلكم ولي جيلي».. تقدَّم نحوي خطوة، ثم أشار بيده فجاء الفتى، ثم جاءت الفتاة، أوثقاني، وسقاني الرجل كأس الدم حتى آخره، فاستيقظت وطعم الدم في شفتيَّ وحلقي.

استيقظت من نومتي الثانية وكنت من نومتي الأولى في سبات مضطرب، سألَ مفسِّر الأحلام: «أحلمت أنك متّ؟» قلت: «نعم»، قال: «فاعلم ـأفادك اللهـ أنك ستأكل حتى تشبع» متى كان الموت شبعاً؟ يقولون شبع فلان من همِّ الدنيا حتى طست نفسه فمات!

الدنيا كرويّة، أو هي منبسطة، هذا كلام يحتاج برهاناً ملموساً ومحسوساً، وقد رأيت، فيما يرى النائم، أنها (الدنيا) مسطّحة

بـلا حَدّ، وأنـي سـرت حتـى بلغـت نهايتهـا. ولـم تكـن تلـك النهايـة مدينــة (فــاس)، لأنــي اكتشــفت ـ ويالَحِــدّة الــذكاء!ـ أن قومــاً يعيشـون مـن بعـد (فـاس)، وأن أقوامـاً يرزقـون فيهـا ومـن حولهـا، ولكنــي بلغــت نهايــة الدنيــا علــى كل حــال. وأُعلمــت فــي نومــي أن للســماء أيضــاً نهايــة، وأن هنــاك شــجرة وارفــة الظــلال لا تأتيهــا الشـمس لا مـن خلفهـا ولا مـن قـدّام، وأن النـوم تحتهـا لذيـذ ورائـع، لكــن الأحــلام تحــت ظلّهــا عــذاب، وعــذاب النــوم ـ كمــا تعلــم ـ أشــدّ إيلامــاً مــن عــذاب اليقظــة

ثــم جاءنــي فــي نومتــي الأولــى وفــي حلمــي الثانــي يقــول فــي ثقــة: «أنــا مــن ذلــك الجيــل»، وأقــول لــه: «إنــي لا أعــرف ذلــك الجيـل، ولـم أسـمع بـه». فيـردّ بأنـه جيـل الخلاصـة مـن الخلاصـة بيــن الأجيــال. «تعذّبنــا» قــال واســتطرد، «وذقنــا الويــل والهــوان، وســمعنا وأبصرنــا أشــياء تشــيب لهولهــا الولــدان»، قلــت: «لكــم جيلكــم ولــي جيلــي». ضحــك، كان وحــده، شــاخ وجهــه، واشــتعل رأسـه بالشـيب هـذه المـرّة. قلـت لـه: «أراك قـد كبـرت بيـن نومـة ونومــة» صمــت محدِّثــي ثــم ضحــك وضحــك وضحــك فتســاقط شـعره الأبيـض، وانمحـت الغضـون مـن وجهـه، وأمـرَ بالفتـى والفتـاة فجـاءا إليـه، ومـن ثـمَّ انحنيـا احترامـاً وتجلّـة. قـال الفتـى الصُبـاح الــذي هــو فــي الحســن مثــل يوســف: «نحــن مــن جيــل الغضــب»، ثــم قطّــب جبينــه فــازداد جمــالاً. وقالــت الفتــاة: «ونحــن مــن جيــل العــذاب»، وقــال محدِّثــي يخاطبهمــا: «ولأنكمــا خلقتمــا وُجِــد علــى

الأرض العذاب». وقطّبت الفتاة جبينها غضباً فزادت جمالاً. ثم اتَّجَه محدِّثي إليّ وقال: «أمّا أنت فقد صرت منا». أقول في نفسي متسائلاً:«صرت منكم! ومن أنتم؟» ضحك وقال: «نحن من الأرض من حيث تبدو كالكرة، ونحن منها من حيث تبدو منبسطة مسطّحة، ونحن ونحن ونحن.. ألست منا؟»
ثم نهضت من فراشي منهكاً ذات صباح.






# الشِّعر

# ملّيط

## محمد سعيد العباسي

حيّاكِ «ملّيطُ»[1] صوب العارضِ الغادي    وجاد واديكِ ذو الجنّاتِ من وادِ

فكم جلوتِ لنا من منظرٍ عَجَبٍ    يُشجي الخليَّ ويروي غلّةَ الصادي

أنسَيْتِني بَرْحَ آلامي وما أخذتْ    منا المطايا بإيجافٍ وإيخادِ

كثبانُكِ العفرُ ما أبهى مناظرَها    أُنسٌ لذي وحشةٍ، رِزقٌ لمرتادِ

فباسقُ النخلِ ملءُ الطرفِ يلثم من    ذيلِ السحابِ بلا كدٍّ وإجهادِ

كأنه ورمالٌ حوله ارتفعتْ    أعلامُ جيشٍ بناها فوق أطواد

وأعينُ الماءِ تجري من جداولها    صوارماً عرضوها غيرَ أغماد

والوُرْقُ تهتفُ والأظلالُ وارفةٌ    والريحُ تدفعُ ميّاداً لميّادِ

لو استطعتُ لأهديتُ الخلودَ لها    لو كان شيءٌ على الدنيا لإخلادِ

أنتِ «المطيرةُ»[2] في ظلّ وفي شجرٍ    فقدتِ أصواتَ رهبانٍ وعُبّاد

أُعيذ حسنَكِ بالرحمن مُبدعِهِ    يا غِرّةَ العينِ من عَينٍ وحُسّاد

وضعتُ رحليَ منها بالكرامة في    دارِ ابنِ بَجْدتِها «نصرِ بنِ شدّاد»[3]

فاقتادتِ اللبَّ مني قَوْدَ ذي رسنٍ    ورقاءَ أهدتْ لنا لحناً بتَرداد

هاتي الحديثَ رعاكِ اللهُ مسعفةً    وأَسْعدي فكلانا ذو هوًى بادي

فحرّكتْ لهوى الأوطانِ أفئدةً    وأحرقتْ نِضوَ أحشاءٍ وأكبادِ

هوًى إلى النيل يُصبيني، وساكنُهُ ... أُجلّه اليومَ عن حصرٍ وتَعدادِ

وحاجةٌ ما يُعنّيني تطلُّبُها ... لولا زماني ولولا ضيقُ أصفادي

يا سعدُ[4] «سعدُ بني وهْبٍ» أرى ثمراً ... فجُدْ فديتُكَ للعافي بعِنْقادِ

وإنّ في بعض ما قد عافَ شاربُكم ... إعتابَ ذي الفضلِ «يحيى» و«ابنِ عبّاد»

ورقاءُ[5] إنّكِ قد أسْمعتِني حَسَناً ... هيّا اسمعي فَضْلَ إنشائي وإنشادي

إنا نديمانِ في شَرْعِ النوى فخُذي ... يا بنتَ ذي الطوقِ لحناً من بني الضادِ

فربّما تجمعُ الآلامُ إنْ نزلتْ ... ضدّين في الشكل والأخلاق والعادِ

لا تُنكريني فحالي كلُّها كرمٌ ... ولا يُريبكِ إتْهامي وإنجادي

وأنتَ يا عيدُ[6] ليت اللهَ أبدلني ... منكَ الغداةَ بعوّاد وأعواد

ما لي وللعيد والدنيا وبهجتِها ... وقد مضى أمسِ أترابي وأندادي

أولئك الغرُّ إخواني ومن ذهبتْ ... بهم مواسمُ أفراحي وأعيادي

مضَوْا، فهل علموا أني شقيتُ بمن ... ألبستُه ثوبَ إعزازٍ وإسعادِ؟

لم يُجْزِني، لاجزاه اللهُ، صالحةً ... بِرّاً ببِرٍّ وإرفاداً بإرفادِ

لقيتُه أمسِ في طِمْرين مقتحماً ... دَوّاً بلا مركبٍ فيه ولا زادِ

فظِلْتُ أُوسعه بِرّاً وتكرمةً ... حتى غدا وَهْو ذو وشيٍ وأَبْرادِ

وحينما قلتُ إني قد ملأتُ يدي ... إذ غرّني صوتُ إبراقٍ وإرعادِ

تحوّل الحالُ عمّا كنتُ أسمع من ... وعدِ المثوبةِ والزُّلفى لإيعادِ

أبحتَ مني حِمىً قد كان ممتنعاً ... حِمى البهاليلِ: آبائي وأجدادي

صيّرتَه بعد ذاك الأمنِ مَسْبعةً ... تحمي مَرشّةَ[7] أطيارٍ وآسادِ

إن ترضَ بالحكم فالقرآنُ ذا حَكَمٌ ... وها أولو العلمِ والتاريخِ أَشْهادي

هـادٍ[8] يضـلّ وحيـرانٌ يُـدلّ ومـا طـولُ البليّـةِ إلا حيـرةُ الهـادي
أغرقتَها فانجُ إنْ كنتَ اللبيبَ ولا أراكَ تسـلم مـن بحـرٍ وإزبـادِ
واصبرْ تذقْ مُرَّ ما ذاق الذين بغَوْا مـن قبـلُ، واللهُ للباغـي بمرصـادِ
لا تخدعَنَّكَ نُعْمى قد حبَوْكَ بها ولا الزعانـفُ مـن رهـطٍ وأجنـادِ
فلستُ أيأسُ من عدل المليكِ بأنْ يُخني عليهم كما أخنى على «عادِ»
لثمتُ كفّاً ولا أدري الذي اشتملتْ أصابعُ الصِّيدِ أم أشراكُ صَيّاد؟!
وليتَ شعريَ هل عَرْفَ السماحةِ ما أشمُّ أم عَرْفَ «دارينا» و«بغدادِ»؟
مهامـهٌ غرّنـي لمـعُ السـراب بهـا ومذهبٌ لم أكن فيه بنَقّادِ!
أسـتودع اللـهَ سـاداتٍ فقدتُهـمُ حدا بهم، حيث لا ألقاهُمُ، الحادي
تحيّـةُ اللـهِ يـا أيـامَ ذي سَـلَمٍ أيامَ لم نخشَ بأسَ القاهرِ العادي
أيـامَ كنـا وكان الشـملُ مجتمعـاً وحيُّنـا حـيُّ طُـلّاب وقُصّـادِ
فإن جرى ذكرُ أربابِ السماحةِ أو نـادى الكـرامُ فإنـا بهجةُ النـادي
لنا الكؤوسُ[9] ونحن المنتشون بها منّـا السقاةُ ومنّـا الصادحُ الشـادي
واليـومَ أبـدتْ لنـا الدنيـا عجائبَها بمـا نُقاسـيه مـن حـربٍ وأحقـاد
ومـا رمـى الدهـرُ وادينـا بداهيـةٍ مثـل الأليميـن: تفريـقٍ وإبعـاد
لم نجنِ ذنباً، ففيمَ الحيفُ مُقترَفاً؟ ومـا لنـا اليـومَ فـي سـدٍّ وإيصـاد
ما نحن «يأجوجَ» بل قومٌ ذوو أَرَبٍ فـي الصالحـات ولسـنا قومَ إفسـاد
بنـي أبـي أنتُـمُ زيـدٌ علـى مئـةٍ ومـا عدمتـم أخـا هـديٍ وإرشـاد
عـزّ النصيـرُ وقـلَّ المسـتعانُ بـهِ ومَـن يَهـبّ إذا يُدعـى لإنجـاد

سِيروا كراماً على اسم اللهِ لا تهنوا     فدهرُكــم دهــرُ إصــدارٍ وإيــراد
فما الفلاحُ وما سعيُ الشعوبِ لهُ     لــدى الحقيقــةِ إلا ســعيُ أفــراد
إن يُرسـلِ اللـهُ مـن عليائـه فَرَجـاً     نُــدرَكْ وإلا فــكلٌّ رهــنُ مِيعــاد

---

1- (مَلِّيط): مركز من مراكز دارفور بالسودان وتبعد عن مدينة الفاشر عاصمة المديرية بسبعين ميلاً تقريباً شمالاً، ويشق مليّط وادٍ عظيم يسمّى وادي مليّط، يأتيها من الغرب من مركز كتم. وفي مليّط نخيل، وتزرع فيها الفواكه بأنواعها، وتروى بماء الآبار التي بباطن هذا الوادي، وفيهما خيرات حسان.

2- المطيرة: هذه جزيرة ببغداد، وفيها قصر كان لأمير المؤمنين عبدالله بن المعتز، الذي يقول فيها:

سقى المطير ذات الطل والشجر     ودير عـبدون هطّال من المطر
فطالما صبحتني للصبوح بها     في غرة الفجر والعصفور لم يطرِ
أصوات رهبان دير في صلاتهم     سـود المدارع نحّارين للسحر

3- نصر بن شداد: كان مأمور مليط وصديقاً حميماً للشاعر.

4- سعد بنى وهب، ويحيى، وابن عباد أسماء مستعارة أتى بها الشاعر بطريقة التجديد، والقصيدة كلها مما يجوز أن يسمّى بالشعر الرمزي. لأنه يرمز إلى رجال السودان، رفعهم بعد ذلّ وأغناهم بعد فقر. وبدلاً من أن يخدموا البلاد ويأخذوا بناصرها فإذا بهم وقد جعلوا أنفسهم جند الاستعمار ودعاته.

5- يخاطب ورقاء دخل عليها في كنفها ففزعت منه.

6- وأنت يا عيد إلخ... أدرك الشاعر في مليّط عيد رمضان انتابته الهواجس وذكريات سنة 1924، وكيف أخرج الإنجليز الجيش المصري من السودان، وقد كان فيه ضباط مصريون من الطراز الأول علماً ومعرفة وأخلاقاً، وللشاعر صلة بهم ترجع إلى سنة 1898 عندما كان تلميذاً في المدرسة الحربية.

7- المرشّة: التي ترشّ بالدم.

8- هاد يضلّ وحيران يدلّ.. إلخ. هذا وصف فريق من الناس من السودان، منهم من شغلوا مراكز في قبائلهم، وممن وُكِّل إليهم أمرهم بطريق الدين أو بطريق الدنيا فانقادوا للدخيل انقياد الأعمى، وجروا وراء غاياتهم الشخصية، ونسوا ما عاهدوا الله والوطن عليه.

9- لنا الكؤوس.. إلخ. هذا البيت وما بعده وصف للسودان في العهد الأول أيام الحكم المصري، فقد كان للسودان -إذ ذاك- الحكم الذاتي بمعناه الحقيقي لا كالذي يعللنا به الإنجليز، فكل الوظائف قاطبة كان يتولّاها السودانيون وحدهم، ولم يكن للمصري إلا وظيفتان فقط هما الحكمدار، وقاضي القضاة؛ فلذا قال الشاعر هذا البيت.

# عهد جبرون

محمد سعيد العباسي

أرقتُ من طول هم باتَ يعروني ... يثيرُ من لاعج الذكرى ويشْجَوني

مَنّيتُ نفسي آمالاً يماطلني ... بها زماني من حين إلى حينِ

أَلقى بصبري جسام الحادثات ولي ... عزمٌ أصدُّ به ما قد يلاقيني

ولا أَتوق لحال لا تلائمها ... حالي ، ولا منزلُ اللذات يُلْهيني

ولست أرضى من الدنيا وإن عظمت ... إلا الذي بجميل الذكر يرضيني

وكيفَ أقبْلُ أَسْبَابَ الهوان ولي ... آباءُ صدق من الغرَّ الميامينِ

النازلين على حكم العلا أبداً ... مَن زيَّنوا الكونَ منهم أيَّ تزيينِ

من كلّ أروعَ في أكتادِهِ لبَدٌ ... كالليث والليث لا يُغضي على هُونِ

وقد سلا القلبُ عن سلمى وجارتِها ... وربّما كنتُ أدعوه فيعصيني

ما عذرُ مثليَ في استسلامه لهوى ... يا حالةَ النقص ما بي حاجةٌ بيني

ما أنسَ لا أنسَ إذ جاءت تعاتبني ... فتّانة اللحظ ذات الحاجبِ النونِ

يا بنت عشرين والأيامُ مقبلةٌ ... ماذا تريدين من موءود خمسينِ؟

قد كان لي قبل هذا اليوم فيك هوى ... أطيعهُ، وحديثٌ ذو أفانينِ

ولاَمني فيك والأشجان زائدةٌ ... قومٌ وأَحرى بهم أَلاَّ يلوموني

أزمانَ أمرح في بُردِ الشباب على ... مراسِح اللهو بين الخُرَّدِ العينِ

والعــودُ أخضَــر والأيــامُ مشــرقةٌ     وحالـة الأنـس تغري بـي وتغريني

فـى ذمّـة الله محبـوب كلفـتُ بـهِ     كالريـم جيـداً وكالخيـزُوزِ فـي اللينِ

أفديــه فاتــر ألحــاظٍ وتَــلَّ لــه     «أفديـه» حيـن سعى نحوي يُفدّيني

يقـول لـي وهـو يحكـي البـرقَ مُبتَسماً:     «يـا أنـت يـا ذا» وعمـداً لا يسـمّيني

أنشأتُ أُسمِعُه الشكوى ويسمعني     أُدنيـه مـن كبـدي الحـرَّى ويدنيني

أذرُّ فـــي ســـمعِه شـــيئاً يلـــذّ لـــه     قـد زانـه فضـلُ إبْداعي وتحسيني

فبـات طـوعَ مـرادي طـولَ ليلتِـهِ     مـن خمـر داريـن أَسقيه ويسـقيني

يا عهد جيرُون [1] كم لي فيك من شجنٍ     بـادٍ سـقاك الرضـا يـا عهـد جيرونِ

ولا يـزالُ النسيمُ الطلقُ يحمل لي     ريّــا الجنــاب ويرويــه فيُروينــي

واليـومَ مـذ جذبـت عنـي أعنَّتهـا     هـذي الظبـاءُ وولـت وجههـا دونـي

وعـارضَ العارِضَيْنِ الشيبُ قلتُ له:     أهـلاً بمـن رجحـتْ فيـه موازينـي

كففـتُ غـرب التصابـي والتفـتُّ إلـى     حلمـي ، ولـم أكُ في هـذا بمغبونِ

وصـرتُ لا أرتضـى إلا العـلا أَبـداً     مـا قـد لقيتُ مـن التبريـح يكفيني

---

(1) (جيرون) هنا كناية عن مرتفع لهو أيام الصبا؛ فهو من ذكر المحلّ وإرادة ما كان فيه. وهو في الأصل موضع من متنزّهات دمشق، وكثيراً ماينكره الشعراء مُطلقينه على مواضع يعنونها، فمن ذلك قول أبي بكر الصنوبري:

ولي في باب جيرون ظباء     أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا

# تحية العام الهجري سنة 1339

عبدالله عمر البنا

يَـا ذا الهِـلالَ، عَنِ الدُّنيَـا أَوِ الدِّينِ حَـدِّثْ، فـإنَّ حَديثـاً مِنكَ يَشـفِينِي
طَلَعتَ كالنُّونِ لاَ تَنْفَكُّ في صِغَرٍ طِفـلاً، وَإنَّـكَ قدْ شَـاهَدتَ ذَا النُّونِ
سَـايَرْتَ نُوحـاً وَلَـمْ تَركَـبْ سَـفِينَتَهُ وَأنـتَ أَنـتَ فتًـى فِـي عَصـرِ زبلِينِ
حدِّثْ عنِ الأَعصُرِ الأُولَى لِتُضحِكَنِي فـإنَّ أَخبَـارَ هـذا العَصـرِ تُبكِينِـي
خبِّـر مُلُـوكاً ذَوِي عِـزٍّ وأُبَّهَـةٍ أنَّ المُلُـوكَ، وإنْ عـزُّوا، إِلـى هُـونِ
وَارمُـقْ بِطَرْفـكَ مِـن بَغـدادَ دَاثِرَها وَانـدُبْ بِها كُلَّ مَاضِـي العَزمِ مَيمُونِ
سَلْهَا تُخبِّـرْكَ كَـم ضمَّـتْ مَقابرُها مِـن ذِي حِفَـاظٍ وَبـذلٍ غَيـرِ مَمنُونِ
سَلْهَا عـنِ المَسجدِ المَعمُورِ جَانِبُهُ بِالعِلـمِ وَالخَيـرِ وَالآدَابِ وَالدِّيـنِ
وَسَلْ زُبَيدَةَ عَن قَصرٍ تبوَّأَهُ بَعـدَ الأَميـنِ حُسَـامُ الشَّـهمِ مَأمُـونِ؟
سَلْهَا عنِ الجَيشِ جَيشِ اللهِ: أَينَ مَضَى؟ وَكَيـفَ جُـرِّدَ مِـن ماضٍ وَمَسـنُونِ؟
أَخلَـى مَنَابِرَهَـا مَـن فِـي مَقَابِرِهـا مِـن كُلِّ مُتَّضِـحِ الآثَـارِ مَدفُـونِ
وَقَبْلَهَـا ابْـكِ دِمَشـقاً، إنَّهـا فُجِعَـتْ بِسـادَةٍ عَمَـرُوا الدُّنيَـا أَسـاطِينِ
وَسَلْ مُعاوِيَةً عَن شَاتِمِيهِ، فَكَمْ عَفَـا وَأعطَـى بِـرَأيٍ غَيـرِ مَرْصُـونِ
يَأْسُـو جُـرُوحَ مَقـالٍ لَيـسَ يُؤْلِمُـهُ بِالمَـالِ، وَالمـالُ مِـن أَجدَى القَرَابِيـنِ
هِـيَ السِّياسَـةُ تَأليـفٌ وَبَـذلُ نَـدًى وَالرِّفـقُ وَاللِّيـنُ، كُلُّ المَجدِ في اللِّينِ
هِـيَ التـي حُكمُهَـا بَينَ القُلُوبِ لَهُ عَلَـى رِقَـابِ الـوَرَى أَمْضَـى القَوَانِينِ

وَعَهدَ طَيْبَةَ فاذكُرْ فِيهِ كلَّ فتًى    جَمِّ الرَّمادِ مِنَ الشُّمِّ العَرَانِينِ

واذكُرْ لَيَالِيَ لِلفارُوقِ أَرَّقَه    فِيهَا التُّقَى وَحَنَانٌ بِالمَسَاكِينِ

وكَمْ تفَجَّرَ فيها المُصطَفَى كَرَماً    عَطْفاً وَرفقاً بِبَادِي الفَقرِ مَحزُونِ

إنِّي بَكَيتُ عَلى مَاضٍ تكَفَّل للـ    مَجدِ الأَثِيلِ بِفَخرٍ غَيرِ مَمْنُونِ

أحِبَّتِي، ودُعَاءُ الحُبِّ مَرْحَمَةٌ    لا يَحْزُنَنَّكُمُ بالنُّصحِ تَلقِينِي

فَرُبَّ قَولٍ غَلِيظِ اللَّفظِ بَاطِنُهُ    رُحْمَى وَلِينٌ بفَظِّ الرُّوحِ مَقرُونِ

تَرضَونَ بِالدُّونِ وَالعَلْياءُ تُقْسَمُ، لا    تَدِينُ يَوماً لِراضِي النَّفسِ بِالدُّونِ

وَالمَجدُ يَنأَى فَلا تدنُو مَرَاكِبُهُ    مِنَ الجَبَانِ، وَلا يَنْقَادُ بِالهُونِ

تَفَرُّقٌ وَتَوانٍ وَاتِّبَاعُ هَوًى    إنَّ الهَوَى لَهَوانٌ غَيرُ مَأمُونِ

وَالحَادِثَاتُ تُرِيكُمْ غَيرَ آلِيَةٍ    أنَّ التَّقاطُعَ مِن شَأنِ المَجَانِينِ

فَلا اعتِبَارَ، وَلا رُقْبَى لِنَازِلَةٍ    وَلا احتِيَاطَ وَلا رُحمَى لِمَغْبُونِ

بُلِيتُمُ، وبَلايَا الدَّهرِ إنْ نَزَلَتْ    فَالصَّبرُ يَكشِفُ مِنها كلَّ مَدفُونِ

بأُمَّةٍ جَهِلَتْ طُرْقَ العَلاءِ، فَلَمْ    تَسْبِقْ لِغَايَةِ مَعقُولٍ وَمَخْزُونِ

فَلِلمَدَارِسِ هِجرَانٌ وَسُخرِيَةٌ    وَفِي المَتَاجِرِ ضَعْفٌ غَيرُ مَوزُونِ

وَلِلمَفَاسِدِ إسْرَاعٌ وَتَلبِيَةٌ    وَلا التِفَاتَ لِمَفرُوضٍ وَمَسنُونِ

والنَّاسُ فِي القَطرِ أَشْيَاءٌ مُلَفَّفَةٌ    فَإنْ تَكَشَّفْ فَعَنْ ضَعفٍ وَتَوهِينِ

فَمِن غَنِيٍّ فَقِيرٍ مِن مُرُوءَتِهِ    ومِن قَوِيٍّ بِضَعفِ النَّفسِ مَرهُونِ

ومِن طَلِيقٍ حَبِيسِ الرَّأيِ مُنقَبِضٍ    فَاعجَبْ لِمُنطَلِقٍ في الأَرضِ مَسجُونِ

وَآخَرٌ هُوَ طَوعُ البَطنِ، يَبرُزُ فِي    زِيِّ المُلُوكِ وَأَخْلاقِ البَرَاذِينِ

وَهيكَلٍ تَبعَتهُ النَاسُ عنْ سَرَفٍ    كالسَّامِرِيِّ بِلا عَقلٍ وَلا دِينِ

يَحتَـالُ بالدِّيـنِ لِلدُّنيَـا فَيَجمَعُهَـا سُـحْتاً، وَتُـورِدُهُ فـي قَـاعِ سِـجِّينِ

أحِبَّتـي، هـيَ نَفْسٌ هَـاجَ هائِجُها مِـنَ الشُّـجُونِ، فَلَمْ تَبخَـلْ بِمَكنُونِ

هَـزَزْتُ مِنكُمْ سُـيُوفاً فـي مَضَارِبِها عَـونُ الصَّرِيـخِ وَإِرهَـابُ المَطَاعِيـنِ

إنَّ الحَيَـاةَ لَمِضمَـارٌ، إذَا ازْدَحَمتْ بِهـا الرِّجَـالُ تُـرَدِّي كُلَّ مَفتُـونِ

لهَـا وَسـائلُ إنْ شُـدَّتْ أَوَاصِرُهـا تَبَيَّـنَ المَجـدُ فِيهَـا أيَّ تَبْييـنِ

تَوَاضُـعٌ وتَـأَنٍّ واتِّبَـاعُ نُهًـى وَالصَّبرُ وَالحَزمُ أزكَى فِي المَوازِيـنِ

فَأَحسِنُوا، إنَّمـا الإِحْسَـانُ وَاسِـطَةٌ لِلعامِلِيـنَ بِـهِ مِـن كُلِّ تَمكِيـنِ

ثُـمَّ انشُرُوا مِن شَرِيفِ العِلمِ أَنفَعَهُ فإنَّمـا هُـوَ مَبنَـى كُلِّ تَمدِيـنِ

العِلـمُ زَيـنٌ، وَبالأَخـلاقِ رِفْعَتُـهُ إِنْ قَارَنَتـهُ بَـدا فِـي خَيـرِ تَزيِيـنِ

إنَّ الخَلائـقَ إنْ طَابـتْ مَنَابِتُهَـا كانَـتْ لِكَسبِ المَعَالِـي كَالبَرَاهِيـنِ

---

* الإشارة إلى المخترع الألماني الكونت فردنان فون زبلن «1838 - 1917» مخترع المناطيد التي اشتهرت، قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، برحلاتها الجوية.

# السلحفاء والبطّتان

عبدالله محمد عمر البنّا

في كلّ يومٍ يُظهر الدهرُ العجبْ لا في جُمادى وحدها ولا رَجبْ

فمن عجيبٍ ما حُكِي في الدهرِ أنّ غديراً كان قربَ نهرِ

راق به الماءُ فما فيه كَدَرْ وطال حوله النباتُ والشجرْ

فسكن الغديرَ بطّتانْ للماء والنبت وللحيتانْ

وكان فيه قبلُ سلحفاةُ لذّتْ لها في مائه الحياةُ

فأنستْ بصوتِ البطّتينِ والأُنسُ فيه قرّةٌ للعينِ

وأصبحتْ إليهما حبيبهْ أنيسةً سميعة مُجيبهْ

أفضلُ قلبٍ يحفظ المحبّهْ ما ليس فيه للنفاقِ حَبّهْ

ثم قضى المهيمنُ القديرْ أن ينشفَ النباتُ والغديرْ

فساء فقدُ الماءِ السلحفاءْ فبُدِّلتْ بنعمةٍ بأساءْ

وقعدتْ مريضةً حزينهْ تبكي على لِداتها والزينهْ

فحنّتا لمحنةِ الصديقهْ وللكرام أَنْفُسٌ رقيقهْ

وقالتا: لا تحزني يا صاحبهْ إن الوفيّ ليس ينسى صاحبَهْ

الماءُ في وادٍ قريبٍ من هُنا نمشي إليه بالسرور والهَنا

قالت: وكيف أستطيع السَّيْرا ولم أكن أمشي ولستُ طيرا

فقالتا: نحمل في كتفينا عُوداً متيناً يابساً أو ليّنا

ثــم تعضّيــن بــذاك العــودِ وتبتدي في الحال بالصعودِ

لعلّنــا بلطــف تلــك الحيلــهْ نُخلّــص الخليلــةَ الجليلــهْ

لكنّنــا نُوصيــكِ والوصايــا مــن الصديــق أنفَــسُ الهدايــا

إيّــاكِ والــكلامَ فــي الطريــقِ فتُصبحــي فــي كُربــةٍ وضيــقِ

مهما سمعتِ الناسَ قالوا فاسجحي ولا تقولــي كلمــةً فتُطرحــي

وطارتــا فجَدّتــا فــي الســيرِ فاعجبْ لبنتِ الماءِ بين الطيرِ!

ومرّتــا مــن الطريــق بالقُــرى فأكثــرَ النــاسُ إليهــا النظــرا

وعجبــوا مــن أمرِهــا ونطقــوا واجتمعــوا مــن خلفهــا وصفّقــوا

فغضبــتْ لمــا يقــول النــاسُ وارتفعــتْ مــن غيظِهــا الأنفــاسُ

وفتحــتْ فاهــاً لتشــفي بالكَلِــمْ مــا قــرّ فــي ضميرهــا مــن الأَلَــمْ

فســقطتْ قتيلــةَ النســيانِ ولــم تنــلْ شــيئاً ســوى الأحــزانِ

وهكــذا مــن نســي النصيحــهْ يرجــع بالحرمــان والفضيحــهْ

# الطبيعة في السودان

عبدالله عبدالرحمن

*إلى النائب المصري محمد محمود جلال، وذلك استجابة لمقال له نُشِر في (الرسالة) سنة 1934 يقترح فيه أن تعمل مصر على إرسال بعثة أدبية للسودان إلى جانب بعثتها الزراعية التجارية. وقد لامَ في هذا المقال الكتّاب والشعراء المصريين على عدم رحلتهم إلى السودان ومعالجتهم وضع روايات من طبيعة السودان الساحرة السافرة.*

| | |
|---|---|
| نَبّهتَ منا فؤاداً غيرَ سَهْوانِ | وجئتنا بحديثٍ ممتعٍ دانِ |
| محمَّدُ بنُ جلالٍ قد نَطَقتَ بما | نُحِسّهُ من أحاسيسٍ ووجدانِ |
| دعوتَ للأدب العالي يؤلّفُ منْ | بني العروبة من مصري وسوداني |
| وصِحْت بالقَائلين الشعرَ بينكم: | أليس عندكم في السودان ذا شانِ؟ |
| ما للمسارح لم تخرجْ روايته | وللرواية منه ألفُ ميدانِ! |
| وكيف لم يهزر الكتّاب ما عصفَت | به الحوادثُ في سرٍّ وإعلانِ |
| مضى يُثابر لم يفطِن له أحدٌ | كأنما القومُ من حيّ بن بَيّان |
| فقلتُ لله مصرُ شدَّ ما عنيت | بكل فعلٍ عظيمِ النفعِ إنساني |
| وتلك قولَةُ حقٍّ ما أثرْتَ وما | أحقّها إنْ لها يَرعَى الشقيقانِ |
| ما كان أوفقه لو ضمّنا أدبٌ | له الكنانةُ والسودانُ ركنانِ |

يَنِــمُّ عنّــا وعنكــم غيــر مختلقٍ | لا كالــذي عَبَ مــن زورٍ وبهتانِ
يقلِّــمُ الظفــرَ مــن ســاعٍ لتفرقةٍ | ويقطَــعُ الظهرَ مــن داعٍ لهجرانِ
والناسُ من باتَ يشقى من جهالته | حيّاً سيشقَى بها في العالَم الثاني
كم للطبيعة في السودان من فتنٍ! | وكم لأطيارِها من ســحرٍ وألحانِ!
ما أكثرَ الملهماتِ الشعر فيه، وما | أمدَّهــا للأديــبِ الهــادم الباني
الرملُ عند ضفافِ النيل تحســبَه | حُمرُ الشــفاه خَلّاها بيضُ أسنانِ
وظلمةُ الليلِ في العتمورِ[1] ملهمةٌ | خوالدُ الشــعرِ يَرويهــا الجدَيدَان
ما للكهــاربِ ســلطانٌ على قمرٍ | ولا على الشمس ســلطانٌ لبنيانِ
كلٌّ تفيــضٍ علــى الآفــاق غرّتُه | فتملأ النفسَ من حســنٍ وإحسان
هناك فــي كردفــان أيَّ مُتّســعٍ | للطرف في بارةٍ أو أرضِ خيرانِ[2]
حيث البــداوةُ في أحلَى مظاهِرهاً | والإبــل طالعة مــن بيــن كُثبانِ
ما أجملَ الريفَ مصطافاً ومرتبعاً | وغادةُ الريف فــي عينٍ وغزلان!
الخدُّ[3] لم تجرِ موسى في جوانبه | والجيدُ من حســنِه عن زينة غان
فإن يكنْ شعبُ بوّان[4] ازدهى نفراً | ففي البطانة[5] كَمْ منْ شِعْب بوّان
إذا تُقبل الأرضُ أعقابَ الخريفِ بها | بكلّ وجهٍ بماءِ الحسنِ ريّانِ
والصيدُ نافــرةٌ حتى إذا أنسَــتْ | أوفَتْ على شرفٍ ترنو بفتّانِ
والضــانُ والمَعزُ والأنعــامُ تابعةٌ | مواقــعَ الغيــثِ قطعانــاً لقطعانِ
وللحــداةِ حــداءٌ كلُّــه كــرَمٌ | فيــه الإباءُ وفيــه نصــرةُ العاني
وســامرُ الحَــيّ من عبــدٍ وفتيانٍ | بين البيــوت وفي أعطاف وديانِ
في كل ليلِ تحاجيهم عَجَايزُهم | بابن النمير وسوبا وابن سلطانِ[6]

وتـــارةً يرهـــف الفتيانُ ســـمعَهمُ    إلــى نــوادر أجــوادٍ وفرســانِ
وابنُ المحلّقِ لم تبرح حكايتُهُ    في الحيّ يسردُها أشياخ حُمرانِ
يا قبرَ تاجوج (7) حبَّاك الحَيَا ومشىَ    بصفحتَيــكَ شَــذا وردٍ وريحَــان
إنـــي أميلُ إلـــى الأشـــعارِ يبعثُها    حسٌّ قويٌّ وأقلى الفاتر الواني
وفي البـــلادِ وفي ماضـــي أُبوّتِنَا    فخرٌ وإن لم نكن نُعنى بإعلانِ
وكـــم تباريحها مـــن قصّة عجبٍ    جدُّ الحكيـــم ولهوُ الوداع الهاني
فإن يكن باتَ فيها الحَرّ يصهرُنا    فللحرارة يُعزْى فَضلُ شجعانِ

---

1- عتمور أبى حمد: مفازة عظيمة بني وادي حلفا وأبي حمد، لا ماء فيها ولا شجر ولا إنسان ولا حيوان.
2- بارة والخيران من مراكز كردفان.
3- عرب كردفان لا يشرطون خدود فتياتهم قصداً للجمال كما هو الشأن في بعض قبائل السودان، والشاعر يرى في بقاء الوجه على جماله الطبيعي مدعاة للتغني به أكثر مما لو كان مشروطاً.
4- شعب بوان متنزه ببلاد فارس
5- البطانة مرعى جيد بين النيل الأزرق ونهر عطبرة.
6- ابن النمير وابن سلطان من أبطال الأحاجي الشعبية السودانية، وسوبا كانت حاضرة النوبة العليا وموقعها على النيل الأزرق جنوب الخرطوم.
7- تاجوج إمرأة من قبيلة الحمرات صارت مع الزمن النموذج الاسمي للجمال السوداني والقيم الاخلاقية الرفيعة.

# وطني

## خليل فرح

وقْفًا عليكَ ـوإن نأيتُـ فؤادي   سيَّانِ قُربي في الهوى وبعادي
يا دارَ عاتكتي، ومهدَ صبابتي   ومثارَ أهوائي، وأصلَ رشادي
كم في سمائكَ للنبوغ وفي ثرى   واديـكَ كـم للعبقريّـة وادي
لكَ في الطبيعةِ في الخمائلِ روعةٌ   وعليكَ من سُحُبِ الجلالِ هوادي
فـإذا وصفْتُـكَ فالبلاغـة لا تفـي   وصْفي ولا تُدني عظيمَ مرادي
ولقد وصفتك من هوًى فإذا الهوى   سـقَمٌ ولـذّة أنفـسٍ لفسـادِ
وسـألتُ عنـك البـدرَ وهْـو كأنـه   نفـذتْ أشـعّتُه مـن الآبـادِ
والشرقُ ممتعضٌ يرى صورَ العمى   شتّى وليس إلى الهداية هادي
هرمٌ يناشدنا الشباب ونحن كالسْـ   سِينما نعيد عليه قصّةَ «عادِ»
أبـدًا تمـرُّ بنـا الحيـاةُ وبيننـا   صورٌ من المجد القديم العادي

***

إيـهٍ فديتُـكِ يـا بـلادي أَلْفـي   مـن حاضرٍ بيـن القلوب وبـادي
فعلَـى كلا الحاليـن نحـن ودائـعٌ   كودائعٍ لك في السحاب غوادي
رعيًـا لآبـاءٍ قضَـوا شـوقًا ومـا   خفِيَتْ عليهـم منك بِيض أيادي
أنزلْتِهـم نُـزُلاً بتُرْبـك بعدمـا   فرضـوا عليـك بُنوّتـي وقيـادي

لكِ ذا الفؤادُ يكنُّ في أعماقه حبّـاً يفيـض قـوىً لغيـر نفـادِ
وإلامَ أنـتِ ومـا حنانـك بيننـا إلا غلالـةُ ذي هُيـامٍ صـادي
وافَـى الربيع وفـي ربوعـك فتيـةٌ كانـوا بطلعتهـم ربيـعَ بـلادي
زُهْـرٌ كأنَّ وجوههـم مـن نُبْلهـا زهـرُ الكواكـب للعيـون بـوادي
أبناءُ يعربَ حيث مجْدُ «ربيعةٍ» وبنو الجزيرة حيث بيتُ «إيادِ»
متشـابهون لـدى العـراك كأنمـا نبتَـتْ رماحهـمُ مـع الأجسـادِ
لبسوا الجديد على القديم وهكذا صارت تُصان وديعة الأحفادِ

***

يا ليلة سَمحتْ بحشد جُموعهم ذَكَّرتنِي بعكـاظَ كـل منُـادِ
وهززتَنـي فطربـتُ حتـى خِلتنـي مـا بيـن قومـي مخِلفـاً لزيـادِ
أدبٌ علـى الأدب التليـد وهمّـة بـدويةٌ حضـريـةُ الأبـرادِ
يخطـو علـى قـدم التفـوُّق بيننـا تجـري الممالـكُ حولنَـا لكسـادِ
نمضـي وهـذا دأبُنـا ومطيُّنَـا فـي المكْرُمـات مطيّـة الأجـدادِ
قَلِّـبْ إذا ماشـئتَ فـي تاريخنـا وانشـدْ إذا ماشـئتَ فـي الأعيـادِ
كنـا كقـادة أنجـم سـيّارةٍ نصـف الـدواءَ بمرصـدٍ أو نَـادِ
كانـت معالُمنـا منـاراًا للـورى وهـدىً وحصنـاً ثابـتَ الأوتـادِ
حتـى إذا بلـغ الدليـلُ بنـا العُـلا وَدَنـا الصباحُ وقَلَّ زجرُ الحادِي
وسرى الكمالُ إلى النفوس فنافستْ أمراؤُهـا إذ كلّ نفـسٍ هـادِ
بـدأت حيـاةً غيـر تلـك جديـرةً بالذكـرِ لـولا أنْ هنـاك عـوادِي
لعبتْ بهم أيدي العِدا فتفرّقوا أيـدي سـبا كتفـرُّق الأضْـدادِ

ونَسُوا مواقفهم ومجدهُمُ وما بحظيـرة الشُـورى مـن الإرشـادِ
وإذا رعاةُ الحيِ في شَركِ الهوى باتـوا وبـاتَ عميدُهـم فـي وادِ

***

مـاذا يقـولُ المرجفـون وكُلّنـا فـي اللـهِ والأوطـان أهـلُ جهـادِ
أصحـابُ مائـدةٍ وأسـرةُ منـزلٍ ونتـاجُ باديـة وفتيـةُ وادِ
لافـرق بيـن قبيلـة وقبيلـة هـم أخـوةٌ مـن عامـرٍ وقِـرادِ
ضاقـتْ جزيرتهـم بهـم فتدفّقُـوا خلجـاً وأرضُ اللـه ذاتُ مهـادِ
نشرت أوائلهـم هدًى بالسيف لمْ تنشـره غيـرُ شـجاعةٍ وتفـادِ
ومشـتْ أواخرهـم علـى آثارِهـم سُـننٌ غـدت أنشـودَة الأولادِ
أثيوبيـا عِظـة الممالـك وابنـةُ الـتـَّـاريخ بيـن مصـارِع الأمجـادِ
حملوا عليك جهالةً ولو أنهم فَطِنُـوا لمـا حملـوا علـى الأطـوادِ
يا أخت (موسى) إستعزَّك راجعاً موسـى وعـادَكِ مـن بنيـكِ عوادِي
هــذي ديارهــم وتلـك ربوعُهـم فسقـى ثـرى واديـك صوبُ عهـادِ
فالدهـر يربـضُ كالهِزْبـرِ وتـارةً يغشـى الملوكَ ضحىً علـى ميعاد
لا يسـتقرّ لبطشِـهِ عـرشٌ علـى عَمَـدٍ وإنْ يـكُ عـرشَ ذي الأوتـادِ

# كلب الحمار[1]

# أو المعاني والأشكال

حمزة الملك طمبل

مـن طريـف الآثـارِ والأخبـارِ أن كلبـاً متيَّـمٌ بحمـارِ!
هجـر النـاسَ والـكلابَ وأمسـى وهـو حـرٌّ مـن الهـوى فـي إسـارِ
لـم يفارقـه فـي الإقامـة والظَعْـنِ برغـم الكثيـرِ مـن أخطـارِ
كم جرى والفلاةُ تَضْرَمُ كالجمـرة خلف الحمار بالمشوارِ
وسـرى والضبـاعُ تهجـم للفتْـك فيلقـى الهجـومَ كالمغـوارِ
عَبَـر النيـل خلـف فُلْـك حملتـهُ علـى رُغـم شـدّة التيـارِ
كـم رأينـاه وهـو يوغـل فـي الوثـب ويُبـدي فنونـه فـي الهـذارِ!
كل ذا والحمـار يأنـس بالكلـب ولـم يُبْـد منـه أي نفـارِ
وإذا هَـمَّ بالنهيـق تـرى الكلـبَ بِضَـرْب مـن النهيـق يُجـاري!
هـو كلبٌ وليس يخطئُ من قـال، ولكنـه بـروحِ حمـارِ!
مَثَـلُ الكلـب والحمـار رأينـاهُ علـى هـذه البريّـة جـاري
فمـن النـاس مـن تَدُلّـكَ سيماهُ علـى أنـهُ مـن الأنمـارِ
ومن الناسِ من يروعُك كالجـنْـنِ وإن لـم يكـن بجسـمٍ نـاري
رُبَّ جمـعٍ مـن اللـداتِ رأينـاهُ كسـربٍ يـرفُّ مـن أطيـارِ

لستُ أنسى التي إذا خطرتْ يَخْـ ـطُرُ بالبال شكلُ ملك ساري
رُبَّ شكلٍ له بباطن نفسي أثر لا تحدُّه أفكاري
صورٌ بانَ للبصائر منهنـ ـنَ معانٍ خَفِين عن أبصارِ
رُبَّ شخص إذا تجسَّد معنى فيه ما كان غيرَ وحْشٍ ضاري
شفةُ المرءِ قد تَدُل وعينا هُ على ما احتواهُ من أسرارِ
أنا لا تأخذ المظاهرُ مني لا، ولا يَخْدَعُ الطّلا أبصاري
كم فتى أكبرَتْهُ أعينُ غيري هو عندي كمثل (كلب الحمارِ)
ربّما عاد للوجود حماراً إن تُعِد خلقُه يدُ الأقدارِ
إنّ بعضاً من البريّة أدنى من هوام تعيشُ في الأقذارِ
رُبَّ شخص تراه يرفل في السنـ ـدس من حُلَّةِ الفضائلِ عارِي

1- ليس بين موظّفي مركز سنار في 1925 من يجهل قصة هذا الكلب والحمار، وقد كانا ملكاً لحضرة اليوزباشي عثمان أفندي علي كيلة مأمور المركز المذكور.

# من وحي الجزيرة

أحمد محمد صالح

عندما ذهب طلبة كلّيّة غردون لِلَقيط القطن سنة 1943:

اليوم يومك يا قصيدي فتغنَّ باللحنِ الفريدِ
واخلعْ على أرضِ الجزيرة كلَّ قافيةٍ شرودِ
وأفضْ عليَها من بنات السحرِ آياتِ الخلودِ
أبناؤُها فخرُ البلادِ ومصدرُ الوحيِ المفيدِ
الباذلين جهودَهمْ في كلِ صالحةٍ وَ جودِ
قالوا الرحيل وبكَّروا يتسابقونَ إلى الورودِ
وإذا العميد مشمّرٌ والكلُ في أثرِ العميدِ
ساسَ الأمورَ وحاطَها بالحزم والرأيِ السديدِ
أعوانُه من حولِه مثلَ الكواكب في صعيدِ
وإذا القطارُ مهلِّلٌ ينسابُ في عزمٍ أكيدِ
والأرضُ حاليةُ الربى فكأننا في يومٍ عيدِ
وانظر إلى أملِ البلادِ يسيرُ في عزمِ الأَسودِ
تركوا الدروسَ ويمَّموا أرضَ الجزيرة في سعودِ
حتى إذا لاحَ الصباحُ تجمعوا من كلِ بيدِ

يمشونَ لا متذمِّرينَ فتلكَ شنشنُةُ العبيدِ

وانظرْ إلى النبت الجديدِ يسيرُ للنبت الجديدِ

يجتازُ من صفٍّ إلى صَفٍّ ويهتفُ بالنشيدِ

يبنون للوطنِ العزيز دعائم المجدِ المشيدِ

وطنٌ تضافرَ أهْلُه وسعوا لتوحيد الجهودِ

رجعوا بإكليلِ الفخار وأرَّقُوا عين الحسودِ

تركوا وراء ظهورِهم ماشئت من ذكرٍ حميدِ

يا نظرة عرضتْ فحالتْ بين جفني والهجودِ

في الجدول الرقراق ما بين الخمائِل والورودِ

تمشي وتحملُ جَرّةً تلهو وتعبَثُ بالنهودِ

ومضتْ تضاحكُ تربها فتبينُ عن عذبٍ بَرودِ

نظرتْ فلمّا أن رأَتْ شيخاً تقدَّم من بعيدِ

صَدَّت وأخفتْ وجهها وَلَوتْ بسالفةٍ وجيدِ

ورأت حماري ظالعاً أعيا من المشي الوئيدِ

يا بنت عشرين ارحمي نَضْوَ السنين ولا تزيدي

والله لو أبصرتني لمّا استوى واخضرَّ عودي

لرأيت ليثاً أغلباً يختال في أبهى البرودِ

لكنها الأيامُ تعبَثُ بالفتى عبثَ الوليدِ

هي كالغواني في تقلْلُبها وفي نفس العهودِ

إن كنت يا حسناء أزمعتِ الفراقَ على صدودِ

فــأبــوك لــم يــمـنـع قِـــرَا ــهُ ولا أقـــامَ عـلـى الـجـحـودِ
أيـــام (شـــبـــرا) و(الـطـلـيــ ــحِ) على الـجَـفـا بالله عـودي
قــد كـنـت فـــي عُــمـر الـزمـا نِ بــدايــةَ الـعـهـدِ الـسعـيـدِ
قـــل لـلـفـتـى (الــبـــنـــا) عـلـو تَ عـلـى الـمـنـاظـرِ والـنـديـدِ
لـــك فـــي جــــدودكَ أُســــوةٌ والـــفــــرعُ يــنـمـى لـلـجـدودِ
حـــيّ الـــجـــزيــــرةَ بـالـسـلا مِ وخُـــصَ أهـلـكَ بـالـمـزيـدِ

# نداء الجيل

يوسف مصطفى النني

الـمَــــجــــدُ لـلـوَطَــــنْ    هَـــذَا نـــــــداءُ الـجِـيـلْ

يَـبْـقـى عَـلَـى الـزَّمَـنْ    إلــىَ الـعَـــــلا دَلـيِـلْ

الـمَــــجْــدُ لـلْـــوَطَــنْ    والــمَـــجْـــدُ لِـلْـوَطَــنْ

الـمَــجْــدُ لِـلْـوَطــــَنْ    نبــنِـيــه بالْــفِـــــدَاءْ

لاَ كـــــانَ مـــنْ فتــى    مَـــنْ أَغــفَـــل الــنِــدَاءْ

فَــــذَاكَ للـفَــنَــاء    والــمَـــجْـــدُ لِـلْـــوَطَنْ

نُـدْنــــي بـالائْـتــــلاَفْ    آمـَالـــنَـــا الـبَـعـيـدةْ

لاَ نَـعـــــرِفُ الخِـــــلافْ    فــي الـجِـنْـسِ والـعَـقـيِـدةْ

فالــــدِّيـــنُ لِلإلــــهْ    والـمَـــــجْـــدُ لِـلْـوطَـنْ

فِي صَالِح البلادْ    الحُبُّ والقطيعةْ

لا فى هَوَى الأفْرَادْ    والمادَّة الوَضيعَةْ

عَلَى الهوَى العَفاءْ    والمجدُ لِلوَطنْ

حيُيتَ يَا شَبَابْ    يَا مَوْضعَ الأمَلْ

أنْتُمْ أسودُ الغَابْ    فَاحْمُوهْ بِالعَمَلْ

وابنُو الغَدَ المُهَابْ    والمَجْدُ لِلْوَطَنْ

احُمُوهُ بالكفَاحْ    بالعِلْمِ بِالفُنُونْ

وأنقذُوا الفَلاحْ    والعَامِلَ المغبُونْ

فنحنُ لِلجهَادْ    المجْد للوطَنْ

# شاعر

## محمد أحمد محجوب

لا تلُمْهُ فما تَعوَّدَ صمتًا      أو توارَى عن العُيون ازْوِرارا

شاعرٌ فجَّرَ الريّاض غناءً      والرّوابي أثارَهُنَّ وَثارا

سار في مَهْمهِ الحياة مُجدّاً      في ظلام الوجود يَهدي الحَيارى

باسطًا كفَّه لغيرِ سؤالٍ      بل لمسْح الدموعِ تهمي غِزارا

عبَدَ الحُسنَ والشبابُ سخِيٌّ      في نَضيرِ الرُّبَا وجَدْب الصحارَى

عاشَ للحبِّ دهرَه وشجاهُ      هزَجُ الطيّر في الغصونِ تَبارَى

فرْحةُ الناسِ، أغنياتٌ بِفِيهِ      علَّم الوُرْقَ شَدْوَها والهزارا

يعصرُ الوجْدُ قلبَه وغناهُ      كشهيِّ المُنى وحلْم العذارى

وبكاءُ الحزينِ يلهِمُه اللَّحْنَ شجيّاً فيُحزِن الأوتارا

أرهفَ الدهرُ حسَّهُ وسقاهُ      من دِنانِ الوجود خمرًا ونارا

فهْو مثلُ الطّيورِ يشدو طليقاً      ويعاف القيود يأبى الإسارا

لا يُطيق البقاءَ في الظّلم حُرٌّ      عبقريٌّ ولا يُطيق انكسارا

عندليبُ الرّياض إمّا تغنَّى      وجفاه الصِّحابُ أكدى وطارا

مَدْرجُ الحبِّ والصِّبا والأماني      أنكرَ العيشَ عندهُ والجوارا

وطَروبُ الغناء أضحى نُواحًا      زادَه البعْدُ حرقةً وأُوارا

يا نجيَّ القلوب حسبُكَ همْسًا      لا يطيبُ الغناءُ إلا جَهارا

# الصوفيّ المعذَّب

## التيجاني يوسف بشير

هذهِ الذَّرَّةُ كمْ تَحمِلُ في العالَم سِرَّا
قِفْ لَديْها وامْتَزِجْ في ذاتِها عُمْقاً وغَوْرا
وانْطَلِقْ في جَوِّها المَمْلوءِ إِيماناً وبِرَّا
وتَنَقَّلْ بينَ كُبْرَى في الذَّرارِيِّ وصُغرَى
تَرَ كُلَّ الكونِ لا يَفْتُرُ تَسْبيحاً وذِكْرا
وانْتَشِ الزَّهْرَةَ والزَّهْرةُ كمْ تَحْمِلُ عِطْرا
نُدِّيَتْ واسْتَوثَقَتْ في الـ أرضِ أَعْراقاً وجِذْرا
وتَعَرَّتْ عَنْ طَريرٍ خَضِلٍ يَفْتأُ نَضْرا
سَلْ هَزارَ الحَقْلِ مَنْ أَنْبَتَهُ وَرْداً وزَهْرا
وسَلِ الوردَةَ مَنْ أَوْ دَعَها طِيباً ونَشْرا
تَنْظُرِ الرُّوحَ وتَسمعْ بينَ أَعماقِكَ أَمْرا
الوجُودُ الحقُّ ما أَوْ سَعَ في النَّفْسِ مَدَاهْ
والسُّكُونُ المَحْضُ ما أَوْ ثَقَ بالرُّوحِ عُراهْ
كُلُّ ما في الكونِ يمشي في حَنايَاهُ الإلهْ
هذهِ النَّمْلَةُ في رِقَّتِها رَجْعُ صَداهْ
هُوَ يحيا في حَواشيها وتحيا في ثَراهْ

وهْــيَ إِنْ أَسْـلَـمَـتِ الـرُّو      حَ تَـلَـقَّـتْـهـا يَــداهْ

لَـمْ تَـمُـتْ فيها حـياةُ اللـ      ـّـه إِنْ كُـنْـتَ تَـراهْ

أَنـا وَحْـدي كُـنْـتُ أَسْتَجْـ      ـلي مِـنَ الـعـالَـم هَـمْـسَهْ

أَسْـمَـعُ الـخَـطـرَةَ فـي الـذَّرْ      رِ وأَسْـتَـبْـطِـنُ حِـسَّـهْ

واضْـطِـرابَ الـنُّـورِ في خَفْـ      ـقَـتِـهِ أَسـمـعُ جَـرْسَـهْ

وأرى عِـيـدَ فَـتـىَ الـوَرْ      دِ وأَسْـتَـقْـبِـلُ عُـرْسَـهْ

وانْـفِـعـالَ الـكَـرْمِ فـي فَـقْـ      ـعَـتِـهِ أَشْـهَـدُ غَـرْسَـهْ

رَبِّ سُـبْـحـانَـكَ إِنَّ الـ      ـكـونَ لا يَـقْـدِرُ نَـفْـسَـهْ

صُـغْـتَ مِـنْ نـارِكَ جِـنِّـيـ      ـهِ ومِـنْ نُـورِكَ إِنْـسَـهْ

رَبِّ فـي الإشـراقـةِ الأُو      لَـى عـلـى طِـيـنـةِ آدَمْ

أُمَـمٌ تَـزْخَـرُ فـي الـغَـيْـ      ـبِ وفـي الـطِّـيـنـةِ عـالَـمْ

ونُـفـوسٌ تَـزْحَـمُ الـمـا      ءَ وأَرواحٌ تَـحـاوَمْ

سَـبَّـحَ الـخَـلْـقُ وسَـبَّـحْـ      ـتُ وآمَـنْـتُ وآمَـنْ

وتَـسَـلَّـلْـتُ مِـنَ الـغَـيْـ      ـبِ وآذَنْـتُ وآذَنْ

ومَـشـىَ الـدَّهـرُ دِراكـاً      رَبِـذَ الـخَـطْـوِ إِلـى مَـنْ ..؟

فـي تَـجَـلِّـيَّـاتِـكَ الـكُـبْـ      ـرَى وفـي مَـظْـهَـرِ ذَاتِـكْ

والـجَـلالِ الـزَّاخِـرِ الـفَـيَّا      ض مِـنْ بَـعْـضِ صِـفَـاتِـكْ

والـحَـنـانِ الـمُـشْـرِقِ الوضْـ      ـضَـاحِ مِـنْ فَـيْـضِ حَـيـاتِـكْ

والـكـمـالِ الأَعـظَـمِ الأَعْـ      ـلـى وأَسـمَـى سُـبُـحـاتِـكْ

قَـدْ تَـعَـبَّـدْتُـكَ زُلْـفَـى      ذائِـداً عَـنْ حُـرُمـاتِـكْ

فَنِيَتْ نفسي وأَفْرَغْتُ بها في صَلَواتِكْ

ثُمَّ ماذا جَدَّ مِنْ بَعْدِ خُلُوصِي وصَفائي

أظلمتْ رُوحِيَ فما عُدْ   تُ أَرَى ما أَنا راءِ

أَيُّهذا العِثْيَرُ الغا   ئِمُ في صَحْوِ سمائي

للمنايا السُّودِ آما   لي وللموتِ رَجائي

آهِ يا موتَ جُنوني   آه يا يومَ قضائي

قِفْ تَزَوَّدْ أَيُّها الجَبْـ   ـبارُ مِنْ زادي ومائي

واقْتَرِبْ إِنَّ فُؤادي   مُثْقَلٌ بالبُرَحاءِ

يا نعيماً مُشرِق الصفـ   ـحَة يُسّاقَطُ دُوني

نَضِرَتْ في قُرْبِهِ نَفْسي   وزَايَلْتُ غُضونيُ

فَمَشَتْ غائِلَةُ «الشْـ   ـشَكِّ» إلى فجرِ يقيني

قَضَتِ اللَّذْةُ فاسْتَرْ   جَعَها لَمْحُ ظُنونيُ

واسْتَردَّ النِّعْمَةَ الكُبْ   رى مِنَ الدَّهرِ حَنيني

مَنْ تَرَى اسْتأثَرَ باللذْ   ذَةِ واسْتَبْقى جُنوني ؟

أُذُني.. لا يَنْفُذُ اليو   مَ بها غَيرُ العَويلْ

نظري يَقْصُرُ عنْ كُلْـ   لِ دَقِيقٍ وجَليلْ

غابَ عنْ نَفْسيَ إشرا   قُك والفجرُ الجميلْ

واسْتَحالَ الماءُ فاسْتَحْـ   ـجَرَ في كُلِّ مَسِيلْ

رَجَعَ اللَّحْنُ إلى أَوْ   تارِهِ بَعْدَ قَليلْ

واخْتَفَى بينَ ظلامِ الـ   مَزْهَرِ الكَلِّ العَليلْ

# القوقعة الفارغة

محمد المهدي المجذوب

وقفتُ على سيفِ البحرِ الأحمرْ

الموجُ أزرقْ، الموجُ أخْضرْ

الموجُ أَصفرْ .. الموج أغبرْ

عيني هناك في الأُفق

الموجُ هناكَ جامدْ

الموج حائطٌ مهَدَّم في صَحْراء

أحاطت به أَمواج الرِمال وجَمدتْ عَلَيْه

ودارَ رأسِي، الموجُ الموجُ الموْجْ

* * *

ورَجَعتْ بي عيَنْي

وألقت تحت قدَمَيّ قوقَعة فارِغهْ

لقد كانت في أَعماق هذا البحر المائج

ومن حركته في الأعماق اتَّخذتْ شكْلَها

واتَّخذت حياتها ثم دَبّتْ تجري على السيِّف

ثم فقدت حركتَها وبقي الإطارْ

عيني هناك في الأُفق

الموجُ هناكَ جَامدْ

الموجُ حائطٌ مهدَّمٌ في صحراء

أحاطت به أَمواجُ الرمالِ وجمدت عليه

أنا ساكن وفي سكوني خُواءُ مُتعَبْ

وذكرى غامضَهْ

حيَاتي مليئة بالقَواقع الفَارغَةْ

وبالأمس القريب دفنتُ قَوْقَعة فارغَةْ

لقد اتَّخذت شكلها وحياتَها من حياتي

هي الآن ساكنة تحت التراب

هناك في القبور الممتدَّة عبرَ الأُفق

موجُ البحر جامدٌ على الأفق البعيدْ

أَنا قوقعةٌ فارِغَةْ

وقبري هناكْ

* * *

بلادي لا تدرك ما يدركُه الشعراءْ

في زحمة الحياة رأَيتُ قوقعةً فارغَةْ

يخرجُ من جوفها الخَاوِي كلامٌ غيرُ مفهوم

الناس أَمواج

خشعوا حولها يُعجبونَ ولا يُبْصِرونْ

* * *

حتى الشِّعْر، كان الشِّعْر خمراً، أصبحَ لا يشفي

تذكَّرتُ شاعراً عربياً تنبَّأ

سأل نفسه وقَدَّ الألم حسّهْ

إذا طلبتُ كُمَيْت اللون صافَيةْ

وجدتُها وحبيبُ النفسِ مفقودُ

أصخرةٌ أَنَا!

وهل أبصرَ أعمى المعرّةْ؟!

# سيرة [1]

محمد المهدي المجذوب

البُنَيَّـاتُ فـي ضـرامِ الدلاَليـكِ تَسَـتّرنَ فتنـةً وانبهَـارا[2]

مـن عيـون تلفَّـتَ الكحـلُ فيهـنّ وأصغـى هُنيهـةً ثـمّ طـارا

نحـنُ جئنـا إليـك يـا أمّهـا الليلـة بالزيـنِ والعَديـلِ المُنَقّـى

نحـنُ جئنـاك حامليـنَ جريـدَ النخـلِ فـألاً علـى اخضـرارٍ ورزقَـا

العـذَارى ألوانُهـن الرقيقـاتُ نَبـاتُ الظِّـلال شَـفَّ وحـارَا

رَأمتْـهُ الخـدورُ ينتظـرُ الموسـم حتـى يشـعّ نُـورا ونـارا

ينبـري الطبـلُ ينفُـضُ الهَـزَجَ الفيَنَـانَ طَيـراً تَفرُّقـاً واشـتجارا

موكـبٌ من مواكـب الفـرَح المختَـال عَصْراً فـي شـاطئ النيـلِ سـارا

الجمـالُ الغريـرُ يُسـفر غَفْـلاَنَ فَلَـم نَنْـس فـي الزّحَـامِ الجـوارا

والعبيـرُ الحنـونُ هلَّـلَ فـي صـدري طَيفـاً موصـلاً واعتـذارا

نحـنُ جئنـا إليـك يـا أمّهـا الليلـة بالزيـنِ والعديـلِ المُنَقّـى

---

1 - السيرة: مسيرة غنائية تكون من بيت العريس إلى بيت العروس.

2 - الدلاليك: جمع (دلوكة) وهي طبل يصاحب غناء السيرة وبيوت الأعراس

نحــن جئنــاك حامليــن جريــدَ النخــلِ فــألاً علــى اخضــرارٍ ورِزقــا

ومشــى بالبخــورُ مــن جعــلَ الخدمــةَ فــي الحــيّ نَخْــوَةً وابْتــدَارا

حافيــاً مُســرع الخطــى باســم النجــدة حيّــا حفــاوةً وابتشَــارا

وعجــوزٍ تحمَّســتْ حشــدَتْ شــعراً تعالــى حماسَــةً وافتخَــارا

قلّبــتْ صوتهــا تأمّــلَ أمجَــاداً قُدامَــى فَــرَقَّ حينــاً وثَــارَا

رفَعَــتْ فــوقَ مَنْكــبٍ طبلَهــا الصّيــدَح تحــتَ الأكُــفّ خَفْقَــا

يتَغَنّــى لأنفُــسٍ إن تشــهَّيْن طلبــن الحــلالَ قســماً وحَقّــا

وتَشــيل البنــاتُ صفَقْــاً مــع الطبــلِ ورمقــاً مــن العيــون ورشَــقْا

وغــزالٍ مُشــاغبٍ أصلــحَ الهــدمَ أرانــي فــي غفلــةِ النّــاس طوقــا

تَتَصــدّى حمامــةٌ كشَــفَت رأســاً وزَافَــت بصدرهــا مُســتَطارا

شَــلخُوها حتــى تُضــيءَ فأضمــرْت حنَانــاً لأُمّهــا واعتــذَارا

وطنــي كــم بكيــتُ فيــك وخانُــوكَ وصدقــت دينَهــم والدَّمــارا

نحــنُ جئْنــا إليــك يــا أمّهــا الليلــةَ بالبحــرِ والعَريــس المُنَقّــى

حَجَبوهــا وليّنُــوا العيــشَ مــا كان حجــاب الكنيــن قيــداً ورقّــا

هــي ســتُّ البنَــات ســتُّ أبيهــا كرمــاً يحفــظُ الجــوارَ وصدقَــا

وجلَوْهــا فريــدةً جفــلَ الغــوَّاصُ عــن بَحْرهــا خِطــاراً وعُمقَــا

وهـوى عاشـقٌ وطـار وأهْـوى السـوطُ رَعْـداً بمنْكبَيْـه وبرقَـا
يَتَحـدَّى عقوبـةَ الصبـرِ فالحرمـانُ أمْسَـى مـن السـيّاط أَشَـقّا
مُهْـرَةٌ حـرّةٌ وتنتظـر الفـارسَ يحمـي حريمَهـا والذِّمَـارا
وأتـاهُ العبيـر مـن خمـل الشـبال حَيّـاه جهـرةً لا سِـرارا
مَوعـدٌ لا لقـاءَ فيـه وتاجُـوجُ تولّـت عفافـةً وانْتصـارا
وبنـان توضَّحـتْ وطواهـا الثـوب حَيّـا ببسـمةٍ تَتَـوَارى
نفضَـت عـن سـوارها بصـري يسـعى إليهـا فَمَـا تحـبُّ الحـوارا
لهـفَ نفسـي علـى صِبـاي الـذي كان ومـا فيـه مـن لعـاب العَـذَارى
مَـنْ عذيـري مـن غربـة أخـذت روحـي وألقَـت علـيَّ وجهـاً مُعـارا
مـا سَـقَتْني علـى الظّمَـا شَـفَةٌ خضـراءُ أحلـى مـن الـزُلال وأنْقـى
كَشَـفَتْ وجهَهَـا وزينتهـا الحُسـنى وكـم أشـتهي! وكـم تَتَوقّـى!
غَسَـلت مُهجتـي بطهـر سـجاياها فلـم تـرض أن نهـون ونشـقى
سُـنّة العشـق فـي بـلاديَ كتمـانٌ وبُقيـا علـى المحـارم وتُقـى
وافترقنـا علـى حنـان نُواسـيهِ وكان الفـراقُ جـدّاً ورفقـا
أنـا أهـواك يـا بـلادي مـا واليـتُ غَرْبـاً ولا تبدّلْـتُ شـرّقا
مـا طمـوحُ الموظفيـنَ إلـى الجـاه طموحـي، مـع المسـاكين أبقـى

آه مـــن قريتـــي البريئـــةِ لا تعلَـــمُ كـــم فـــي مدينـــةِ التـــركِ أشْـــقَى

فُنْـــدقٌ لا جـــوارَ فيـــه ولا أرحـــامَ تنهـــى ولا معـــارفَ تبقـــى

وطوانـــي الدُّجـــى هنـــاك ومصباحـــي عمـــيّ فـــي صخـــرة الليـــل يرقـــى

أشـــتهي الدلْكَـــةَ العميقـــةَ والكـــركارَ والقَرْمصيـــصَ(1) مـــاجَ ورقّـــا

وبعينـــي قوافـــلُ النخـــلِ والنيـــلُ حداهـــا تجـــيءُ وسْـــقاً فَوَسْـــقا

بـــردت جرّتـــي وذا القـــرع المنقـــوش يســـقي حـــلاوة النيـــل طلقـــا

1- الدلكة: دهان طيب الرائحة تدلك به البشرة، والكركار: دهان يُجعل على الشعر فيزدهي به ويطليه، والقرمصيص: ثوب متعدد الألوان ناعم.

# طريق سمرقند

عبدالله الطيب

حبّذا أنتِ والجبين الأغرُّ والوريد الذي عليه يدرُّ

قد ذكرناك يا هناةُ على البعـ ـد الذي دونه الزعازع قُرُّ (1)

ووجدنا العطرَ الذي عند كفّيـ ـكِ وكنّا لك الغرامَ نُسرُّ

ما رأينا سَيْحان إلا من الجوْ ـوِ وجيحانَ والحشى مقشعرُّ

والجناحان يرجفان من الفوْ لاذِ كالريشِ والشبابُ يغُرّ

وذكرناك يا هناةُ بتشقنـ ـدَ وذكراكِ يا هناةُ تسرُّ(2)

والسباريتُ دوُن بَحْرِ خوارز مَ إلى الصين سرُّها مستسَرُّ(3)

ورأينا مدى مدينةِ تشقنـ ـدَ وفيها الدخانُ والآجرُّ

وأرونا ما كان قد صنع الزلـ ـزالُ فيها وغيرنا يغتَرُّ

والقيان اللاتي رقصْنَ طويلا تُ وفي رفرفِ البرانسِ غرُّ(4)

وعَلَيهنَّ كالجواري من الصغـ ـدِ العماماتُ والقلانسُ دُرُّ

والضفيراتُ قد بلغنَ إلى الأكـ ـفالِ والسوقِ والصدور تكرُّ

والخُطا الساحرات والأذرع الجز لةُ والخزّ وشيُه مسبَكِرُّ (5)

والثغور الحسانُ منهن في بُحْبُـــ ـــوحة الرَّقص حُسنما تفترُّ (6)

وامـرؤُ القيسِ ما رأى مثلما شا هـدتُ منهنّ حين شاقَتْهُ هِـرُّ(7)

وعـظـامُ الـخُـدود مـنْـهُـنَّ بَـرْزا تٌ مـن الحاجبين والـلـونُ حُـرُّ

والـتـي أشبهتكِ جـيـداءُ فرعا ءُ رداحٌ هـركـولـةٌ هـيـدكـرُّ (8)

ولـهـا خـنـجـران فــي مقلتيها تشرعان القتالَ والحسنُ شـرُّ(9)

طالما قد صبرتَ يا أيُّها الشّا عــرُ والـصـبـرُ لـو شـفـاكَ مقرُّ

ورأيـنـا الـرمّـان فـاكـهـةَ الجنْـ ـنَـــــةِ والـضـيـف قـانـعٌ معتَرُّ

وحَـضَـرْنـا المناقشاتِ التي طا لـت ومنها الـمـكـرّرُ المضطرُّ

وسئمنا مـن الـغَـبـاوة مـن قبـ ـــل ومـن بعد والـنـفـاقُ يُضِرُّ

وحَثَونا الـتُّـرابَ في أوجـهِ الأو غــاد لـسـنـا عــن الـقـتـاِل نـفـرُّ

وادّكــرنـــاكِ يـا هـنـاةُ ادّكـــارا تٍ وللهَمّ عسكرٌ مكفهرُّ (10)

وأغـــذَّ الـقـطـارُ بـيـن الطرابيـ ـلِ وقرّى والضيمَ لست أُقـرُّ(11)

والظلامُ الـذي أطـلَّ على القفـ ـــر إلـى الـنـيـل لـيـلُـهُ مستمرُّ

والـغـبـارُ الـذي لـه وَحـشـةُ الخا طــرِ تـــزداُد هــبــوُهُ مـسـتـحِـرُّ

وشخوصُ الطغاِم في عربات الـ ـنَـوم حتى بهنَّ ضاقَ الممرُّ (12)

والـقـلـوصُ التي تحنّ مع الشا عرِ قد بانَ روضُها المخضرُّ (13)

حـبـذا أنـــتِ يــا هــنــاةُ وعينا ك رءومـــان والـمـحـبّـةُ بِـرُّ

وَوددنـــاكِ والـــودادة مـن أعــ ـــطيـة الـلـه والـرمــادُ يُـــــذَرُّ
وحفظنا هـواك في شُعَبِ القلـ ــبِ التي عن سواه ليست تُفَرُّ (14)
وذكـرنـاكِ فـي سباسب تكرو رَ ولـلـتـوروا ظـلالٌ ودَرُّ (15)
والـفـتـاةُ الـشـقـراء ذاتُ حماما تٍ وتدعو وصوتُها ساقُ حُرُّ (16)
وذكـرنـاكِ فـي خـرائـبِ سامـرْ را وبــغــدادُ بَــردُهــا مزمـهـرُّ
وذكــرنــاكِ بـعـدهـا بسمرقنـــــــدَ ورمـنــاك والــمــزارُ زَوِرُّ
وذكرناكِ في القطارِ الذي أســــــــرَعَ بـالـقـاعِ والـزمـانُ يمرُّ
والـيـبـابُ الـبـعـيُـد مـنـزلـةُ الـسا حِـلِ في بِـيْـدِهِ إلـى الـغـابِ ذَرُّ
ورأينا القطن الـذي في السرايا تِ وفـي الـروض مـاؤهُ مستقرُّ
ورَأيْـنـا النهرَ الـذي صَنَع الما ضُـــون تـيّــارُه مِــكَــرٌ مِـفَــرُّ
والليالي يخبأنَ بعد الأعاجيــــــبِ ويـا ربما الـقـويُّ يُـتَـرُّ (17)
والـتـلالُ البعُاد أَذكـرْنـك النيـــــلَ وبين القلوبِ عهدٌ مُمَرُّ(18)
واخـضـرارٌ كـريـفِ مـصْـرَ و فـلّا حــوَن والأرضُ لـونُـهـا مغبرُّ
وعلى الكونِ من طمأنينةِ الفجــــــرِ خشوعٌ والشمسُ كادت تَدُرُّ
والبيوتُ التي من الطينِ أشبهـــــــنَ بــلادي فـدمـعُ عـيـنـيَّ ثَـرُّ
وشـجَـتْـكَ الـمـنـاظـرُ الأزبـكـيّـا تُ الـتـي مَـسَّ أهـلَـهـنَّ الـضُـرُّ
ووجـوهُ الشيوخِ تحت العماما تِ وهــيــهــاتَ أيـــنَ الـمـفـرُّ

وتـلـقَّـيـنـنـا الــنــســاءُ يـغـنّـيــــــــنَ بـأمِـر الـــولاةِ والـفــنُّ حُـرُّ

والـمـغـولـيّ حينما نـفـخ البو ق لأعــمـــاقِ أمـــسِـــهِ يـجـتـرُّ

والـمـنـاراتُ فـي سمرقند أحز نَـــك والـدهـرُ بـالـحـوادثِ مُـرُّ

وعفتْ أربعُ البروجِ من المســــــجد والـرسـمُ منه كـاد يـخِـرُّ

وقديماً كانت تُـنَـصّ لـه العيــــــس وكانت بناؤها مشمخرُّ (19)

وعلى الرمل من بخاتيّ أهل النْــــــــهَر ركبٌ إلى الحجازِ اسبطرّوا (20)

---

1- قُرّبضم القاف: برد

2- من كبريات المدن وكان يقال لها شاش.

3- السباريت: الصحارى.

4- من قوله تعالى «رفرف خضر» فرفرف هؤلاء برانسهن.

5- إنما تسبكرّ الأجسام كاسبكرار فتاة امرئ القيس. والخزّ الحرير، فزخرفته سبب اسبكرارها هو اسبكرار الجسم الشاب فيها.

6- أي يا حُسْنَما، أو اذكر حُسْنَ ما تفترّ، بزيادة ما.

7- هِرّ: صاحبة امرئ القيس، معروفة.

8- الهِركولة: الحسنة الجسم مع تمام، والهيدكر: التي تتبختر.

9- تشرعان: أي المقلتان وكـ«يشرعان» تردّ الضمير إلى الخنجرين.

10- مظلم.

11- الطرابيل:هي أهرام جهة البجراوية وهي مروى القديمة، قيل: بنيت فيما بين 250-350 قبل الميلاد، وعندي أن هذا باطل أو كأنه، وذلك أنها أهرام كبيرات ينبغي أن قد كانت ضاربة في القدم، ثم نظام صناعتها مختلف عن نظام أهرام مصر، والله أعلم. وقَرّى:منطقة بناحية شلال السلوقة.

12- كانت عربات النوم لخاصّة الخاصّة.

13- القلوص: الناقة الشابة.

14- ليست تكشف وتختبر.

15- تكرور بلاد نيجيريا، والتوروا ضرب من الدوح العظام هناك.

16- ساقُ حرُ: حكاية صوت الحمام، والتركيب ليس إضافياً.

17- يترّ: يزحزح عن موضعه.

18- مُمَرّ، بالمبني للمجهول: أي قوي، تقول أمررت الحبل فهو مُمَرّ.

19- بناؤها مشمخرّ: مبتدأ وخبر.

20- اسبطرّوا: استمرّوا في سير مستقيم.

# من أساطيرنا - ابن السراري

محمد محمد علي

لم تبلّ الأرضَ قطرهْ

لا،

ولا تضوَّعتَ في خيال الناسِ زهرهْ

حيثما ولّيتَ وجهَكَ

لم تجد غير الجفافِ والشحوبْ

والعيونِ الغائرات

والأكفِّ اليابساتِ والعظامْ

عشرةُ أعوامٍ

معروقةٍ قد سُلِخَتْ من عمرِ أهلنا

لم يبقَ مما يأكُلُ الأنام

سوى العظام والجلودِ والحطبْ

وحفنةٌ من ذُرةٍ أفضل من بيتِ ذهبْ

***

وفي مدينة النحاسْ

حيث الغنَى

حيثُ المتاعُ والأثاثُ والرياشْ

والذهبُ اللمّاع مثل أكوامِ المقدّْ

لم يجدْ الناس البدَلْ

فزلزلوا مما نزَلْ

وغادروا بيوتهم في الأرضِ

سائحينْ

يشحذُونْ، ينهبونْ

ويبذلون من نفوسهم ما قد غَدا مصونْ

لكنّ منهم من أغلقوا أبوابَهم

كرامةً وعزّةً

وغيرةً نبيلةً على النساءِ والأطفالْ

وعلى السَراري

***

وفي مدينة النحاس قصرٌ أبيض

وربُهُ أسمرٌ وضّاحُ، لحيتُه بيضاءْ

كانت له سَرارٍ سبعُ وولدٌ وحيدْ

من السَراري السبعِ

ولدتْهُ واحدةٌ وتبنّاه الجميعْ

كأنه الشمعةُ في ليلٍ مشاعِلُه البروقْ

من ليالي الغيثِ في أرضِ الجنوبْ

أغلقَ ربُّ البيتِ بابَ بيتِهِ

وليس في الدارِ متاعٌ تشتهيه الأنفسُ

في تلكُم المجاعَهْ

ذهبٌ مثل الترابْ

سارقُه مغبونْ

وكلّ شيء ما عدا ما يعمرُ البطون

في دارهم موفورْ

هناك بُرمةٌ كأنها القنديلْ

تشعُّ من أحشائها الحبوبُ والقندول

هي ثروةُ البيتِ الحزينْ

تنازلوا جميعُهم منها إلى الوليد

يُطعَم كلّ يومٍ حبّةً أو حبّتينْ

ينمو نموّاً حسناً

فشبَّ كالعملاقْ

ومات ربُّ دارهم في القحطِ والإملاقْ

أما السَراري

فتحوَّلن سَعالي

أخشوشَنت أظفارُهن والشعورُ والأنيابْ

وكِدنَ أن يظفرْن بالقمْلانْ

يأكلنَه وقد يكون أكلُه ثوابٌ

كالطلاقْ

لأنه سمينّ وهنّ جائعاتْ

***

ففكَّر الفتى في الأمرِ ثم قالْ:

أين سيفٌ من أبي،

أوصَى به في الدارِ لي؟

وتذاكرنْ

وما منِهن من تذكرُ شيئاً

فاستعرضَ السيوفَ حتى رأى الصَمصَامْ

كمقلةٍ صاحيةٍ في مَعشرٍ نيامْ

فاستلَّه من جفنه واقتحم الأسوار

مغامراً جَبّارْ

يرومُ أرضَ الغُولةِ المرهوبةِ الأجواءْ

***

يسيرُ كلَّ الليل ويكمُن النهارْ

شرابُه الدموعْ

طعامُه الأشجارْ

حتى هوى في موطنٍ سحيقْ

أزهارُه رحيقْ

وكلّ فرع من روابيه محدِّثٌ منطيقْ

فحدّثه فرعٌ من الفروعْ

بما يُشجي ومايروعْ

أشارَ عليه بأن يؤمَّ غارا

في جوفِ هذا الغارِ حيّهْ

ساحرةٌ من عهدِ عادِ وثمودْ

تلقُم ما تلحَظه في الغيبِ والوجودْ

أنيابُها حديدْ

وبأسها شديدْ

وليس من يرومُها لأهلِه مردودْ

إلا الشجاع

وفتانا فاتكٌ مقتحمٌ

فارسٌ يعنو له كلّ شجاعْ

وقلبه مثل سيف لأبيهْ

وأبوه مات جوعاً للكرامهْ

***

دخل الغار مُدِلّاً بالشباب والشجاعهْ

فرأى من ربّةِ المسكنِ إكراماً وطاعهْ

وخضوعاً

لحست من سيفه العاتي فرنداً ناضراً

فغدا أنضرَ وجهاً من شعاعاتِ الصباحْ

إنه أصبح شعلةً

من ضياء الحقّ في عمق القلوبْ

وهدَتْه لأمور تعجز الغولُة عن موردِها

وأمورٍ تعجز الغولة عن مصدرِها

فإذا ما بدا منها لأجلِ الفتك رأسٌ

فمن السيف الصقيل تكون ضربَهْ

ضربةٌ في إثر ضربهْ

حتى يكُنَّ سبعا

تموت بعدها الغولة في أجبالها السبعَهْ

وما يحوين من قمحٍ ومن ضِياعْ

والأجبلُ السبعَة من ذهبٍ ومن فضّهْ

***

وصاوَلَ ابننا الغُولَهْ

وهو فتىً من السودانْ

ومن مدينة النحاسِ

الصابرَهْ

المغلقةِ الأبواب على الجياعْ

في عامِ المجاعَهْ

اِبنُ السَرارِي السبعِ

فأرداها قتيلاً

وفي يدهِ غُصنٌ من الغصونِ الناطقهْ

ساق به الجبال

إلى مدينة النحاسْ

وكان من نشيدهِ

أن يضرب الجبالَ ويقول:

سيري يا جبالَ هنديّهْ

ودّ السبع سَرارِي ساق جبالَ هنديّهْ

وهي تسير

وتقول: كُشو كُشو كُشو

# شاعر الوجدان والأشجان

إدريس جَمّاع

مالَـهُ أيقـظَ الشـجونَ فقاسـت     وحشـة الليـلِ واسـتثارَ الخيـالا؟

مالَـهُ فـي مواكـب الليـل يمشـي     ويناجـي أشـباحَه والظـلالا؟

هَيِّـنٌ تسـتخفّه بسـمة الطفـلِ قـويّ يصـارع الأجـيالا

حاسر الـرأس عند كـلِّ جـمالٍ     مستشـفّ مـن كلّ شـيء جمـالا

ماجـنٌ حطّـمَ القيـودَ وصـوفيٌّ     قضـى العمـرَ نشـوةً وابتهـالا

خُلِقَـتْ طينـةُ الأسـى وغَشَـتْها     نار وجدٍ فأصبحت صلصـالا

ثم صاحَ القضاءُ كوني فكـانت     طينـةُ البـؤسِ شـاعراً مَثـّالا

يتغنّـى مع الريـاح إذاغَنَّـتْ     فيُشـجي خمـيلَهُ والتِّـلالا

صـاغَ مـن كلِّ ربـوةٍ منبـراً يسـ     ـكبُ في سمعِهِ الشجونَ الطِّوالا

هـو طفـل شـاد الرمـال قصـوراً     هـيَ آمـالُهُ ودكَّ الرِّمـالا

كالعـود ينفـح العطـر للنـا     سِ ويفنـى تحـرُّقاً واشـتعالا

## آمنة : قصة الحياة

مصطفى عوض الكريم

رأيتُها تسير في الطريقِ وحدَها

حسيرةً كأنّها السُّهى

تمشي ولا يُحَسُّ مشيُها

كأنّها لا شيءَ في الحياهْ

وفي الطريق صِبْيةٌ يتصايحون، يلعبون الكرَهْ

وطائرٌ يبعثرُ الترابَ، يلقط الذُّرَهْ

وأَعْنُزٌ جواثمٌ تجترُّ في كِرى

عيونُهنّ نصفُ مقفلَهْ

وربَّما رأيتُها في أمسِها القريبِ وهي فتنةُ البشرْ

ومتعةُ النظرْ، ولا حديثَ للقلوب غيرُها

كلٌّ ينادي حين تختفي: يا ليتَها تعودْ

لأننا.. نحبُّها.. نعزُّها.. نجلُّها

وحينما يَفْتَرُّ عنها بابُ دارِها الصغيرْ

وتُفتحُ الأبوابُ والكُوى

وتلفظُ البيوتُ أهلَها

من الصغارِ والكبارْ

إلى الطّوارْ...

وينظرُ الرجالُ في ذهولْ

لعابُهم يسيلْ

وفي قلوبهمْ نشيدْ

دقّاتُها الطّبولْ

وحينما يشاهدُ الشيوخُ وجهَها يأتلقْ

كأنه ذُكاءُ في الأفقْ

يُكبرون بارئَ الفلقْ

ويهتفون في تُقى يُردِّدونْ:

لله ما أروعَها! سُبحانَ من أبدَعَها!

تباركَ الذي خلقْ

وتنظرُ النساءُ في حسادةٍ لها

كلٌّ يسرُّ قولَها

يا ويلَها ، للهِ ما أجملها!

يا ليتني خُلقتُ مثلَها

وينظرُ الأطفالُ في براءةِ الطيورْ

فرحى يُصفِّقونْ

ويُنشدونْ

أنشودةَ السُّرورْ

... وفي الطريقِ في رشاقةٍ تسيرْ

تسحبُ فوق ذائبِ القلوبِ ذيلَها

وخلفها تتبعُها مواكبُ الكبارِ والصِّغارْ

كأنّهم غُبارْ

... وربما رأيتَها تُضيءُ في مجالسِ السَّمرْ

كأنّها قمرْ

ومن عيونِ المعجبين هالةٌ تدورُ حولها

إن حدَّثَتْ فالكلُّ منصتونْ

تكادُ تشربُ النفوسُ قولَها

وربَّما.. قاطَعَ الصديقُ جائراً صديقهُ

وخاصَمَ الشقيقُ ظالماً شقيقَهُ

من أجلِها

وليس في حنانهم لهم من الحنانِ ذرَّةُ

وليس في فؤادِها لهم من الوداد قطرةُ

واليومَ ... وا لَهْفي لها

تسيرُ في الطريقِ وحدَها!

حسيرةً كأنها السُّهى

لو لم أكنْ رأيتُها من قبلُ ما عرفتُها

# الكوخ

## تاج السر الحسن

ذلـك الكـوخُ ذكريـاتٌ تلاشـت فـي طوايـا طفولتـي وصِبايـا

ذلـك الكـوخ منزلـي وهُنـا بالأمـس كانـت معربـداتٍ خُطايـا

كان أنشـودةً وكنـتُ صداهـا، كنـت لحنـاً وكان لـي هُـوَ نايـا

وبقايـا خَطـوي عليـه تنـادي صارخـاتٍ إلـى لقـاءِ لُقايـا

***

ذلك الكوخُ في جوانبِـهِ أمـي وفيـه أخوتـي يمرحـون بيـن رحابِـهِ

وهنـا والـدي يجـيء مـع الليـل .. ليقضـي المسـاء بيـن شـعابِهِ

حيـث كنّـا نقضـي الأماسـيّ فرحـى فـي حديـثٍ تتيـهُ فـي خلاّبِـهِ

وأخـي جالـسٌ يحـدّق فينـا كلّمـا قيـل زادَ فـي إعجابِـه

هــو طفــلٌ وأختــه مثلــه ترنــو لحديثــي مشــغوفةً ممــا بِــهِ

وهــي لا ترضــى حديثــي حينــاً فلهــا أن تردّنــي لصوابِــهِ

***

وهنا جدتي تسوقُ الأساطيرْ

وترى الخرافة السحرية

وهي تلقي على السرير بقايا

جسدٍ منهكٍ ونَفْسٍ هنيّهْ

وعلى وجهِها الصغير خطوطٌ

رسمَتْها يد الزمان القويّهْ

وعصاها العتيقةُ الملويّهْ

وارتجافُ الأناملِ المحنيّهْ

***

كان في سالفِ الزمانِ وكانتْ

قصّةَ الحبّ قصةَ الإنسانْ

كانتِ الأرضُ تزدهي بالأماني

كان ابن النميرِ يعشقُ ليلى

وهي كانت أميرةً للجانْ

***

وهنا في شعاب هذا الخيالِ

عبر آفاق دهرِه والثواني

كان يمضي بنا الحديثُ المثارُ

وحنينُ المجهولُ يدفعُ فينا

رغبةً يستزيدُها إصرارُ

هكذا هكذا نقضي الأماسي

بهجةً فرحاً علينا تُدارُ

***

ثم يمشي النعاسُ في الأهدابِ

في العيونِ البريئةِ المطمئنّهْ

في الوجوهِ الحبيبةِ المستكنّهْ

ويغطّي السكونُ حتى الطريقِ الرحبِ

حتى ظلالِه المرجحنّهْ

***

وتنامُ الطيورُ في الأعشاشِ

حالماتٍ صغارُها في الدجنّهْ

برؤى الفجرِ بابتسامِ الصباحِ

بندى الزهرِ باللحونِ المُرِنّهْ

***

ويطلّ الفجرُ الجميلُ عليهِ

وهو قيثارةٌ بيمنى يديهِ

هو كوخي الصغيرُ مستودعُ الماضي

ولحني الذي أحنُّ إليهِ

كل ما كانَ من مشاعري الحرّى

وبخطوي يخطرن في راحتيهِ

وهنا ظلّ (نيِمتي ) وثراهُ

يدعواني إليه، يوماً إليهِ

# هجرة من صاي

جيلي عبدالرحمن

وقفْنَ على الشطِّ كالذكرياتْ

بقلب المعذّبِ والشاعرِ

وقبَّلن أمّي في وجهها

ولوَّحنَ للمركب الزاخرِ

وعمّي يبلِّلُ رأسي الصغيرْ

بريقِ الفمِ اللاهثِ الغائرِ

ولحيته شَوَّكَتْ وَجْنتي

وداعبَ شاربُه ناظري !

وقالَ وفي مقلتيهِ دموعْ

نزلْنَ غزاراً على خَدِّهِ

وفي قلبِهِ أمنياتٌ حيارى

يناجي بها الليلَ في سهدِهِ !

بُنَيَّ .... إذا ما وصلتَ بخيرْ

وأعطاكُمُ اللهُ من عندِهِ

فقلْ لأبيك ... تذكَّرْ أخاكْ !

تذكَّرْه دوماً ... على بعدِهِ !

***

كهولٌ على الشطِّ تحَت النخيلْ

كأشباحِ أسطورةٍ ساخرَهْ

رَوَتْها المياهُ إلى الشاطئَيْنْ

مياهٌ مقهقهةٌ ثائرَهْ

وشيخٌ يحملقُ في الواقفِيْنْ

وروحٌ تُحَوِّم في القاهرَهْ

وخلفَ النخيلِ على البعد ترنو

بيوتٌ مبعثرةٌ خائرَهْ !

***

وحينَ تعالى شراعُ السَّفينْ

ليهتِكَ سِتْرَ الفضاءِ الرَّحيبْ

ترقرقَ في العينِ دمعُ القلوبْ

وثمّ عويلٌ وصوتٌ رعيبْ

وعمّي يشيرُ بكلتا يديهْ

وأمّي تردّ بطرفٍ كئيبْ

وغابَ بنا موكبُ الراحلينْ

كخاطرةٍ في ضمير الغيوبْ !!!

أمانٍ تداعبُ قلبَ الغلامْ

وأمّي تنغِّمُها كلَّ حينْ

ففي مصَر فاكهةُ البرتقالْ

وفيها لذائذُ ... للآكلينْ!

قصورٌ تطاولُ سُحْبَ السماءْ

وتسلبُ في مرتقاها العيونْ

وترقصُ مصرُ بأنوارها

وأنوارُها تسحرُ الناظرينْ

***

ورحتُ ألوِّنُ هذا الخيالْ

بريشةِ أحلامِيَ المبدعَهْ

أظلِّلُ في خاطري صورةً

مجسَّدة لأبي بارعَهْ

ولمّا تعالى صفيرُ القطارْ

وزمجَرَ كالقصّة المفزعَهْ

جريتُ وأمّي بدَتْ مسرعَهْ

تساهمُ في الضجّةِ الممتعَهْ

***

رَكِبْنا القطارَ فيا للهناءْ!

وياللعناء عناءِ السَّفَرْ!

ورحتُ أحلّقُ بين الحقولْ

حقولٌ، وشيءٌ يثير الفِكَرْ !

فأينَ نهايةُ هذي الزروعْ!

عجبتُ! عجيبٌ أيجري الشَّجرْ ؟؟؟

وساءلتُ أمّيَ في لهفةٍ

فردَّتْ عليَّ بروحٍ ضَجِرْ

***

وكان عناقٌ ... وكان بكاءْ

فيا للأسى ليلةٌ دامسَهْ

وعمّي.. لقد ماتَ عمّي هناكْ

لقد ماتَ فوقَ حطامٍ جديبْ

ونحنُ أَقَمْنا له مأتَماً

هنا في الصدورِ هنا في القلوبْ

ونحنُ حَفَرْنا على أعظمٍ

نمزِّقها في الأسى والشحوبْ

حَفَرْنا عليها حروفاً تنيرْ

شعابَ الطريقِ لروحٍ غريبْ

***

ومن فمِ آبائنا قد رضِعْنا

أغاني الجحيم ونَوْحِ اللهيبْ

وإنا سنرجع ياصايُ يوماً

ونعمرُ أكواخَنا والدروبْ

# ياقوت العرش

محمد الفيتوري

دنيا لا يملكُها من يملكُها

أغنى أهليها سادتُها الفقراءْ

الخاسرُ مَنْ لم يأخذ منها

ما تعطيهِ على استيحاءْ

والغافلُ من ظنّ الأشياءَ

هي الأشياءْ!

تاجُ السلطانِ الغاشمِ تفاحَهْ

تتأرجحُ أعلىساريةِ الساحَهْ

تاجُ الصوفيّ يضيء

على سجّادة قَشّْ

صدِّقني يا ياقوت العرشْ

أن الموتى ليسوا هُمْ

هاتيكَ الموتى

والراحة ليست

هاتيك الراحَهْ

***

عن أيِّ بحار العالم تسألني يا محبوبي

عن حوتْ

قدماه من صخرٍ

عيناه من ياقوتْ

عن سُحُبٍ من نيران

وجزائرَ من مرجانْ

عن مَيْتٍ يحملُ جثّتَهُ

ويهرولُ حيث يموتْ

لا تعجبْ يا ياقوتْ

الأعظمُ من قدرِ الإنسان هو الإنسانْ

القاضي يغزلُ شاربَهُ لمغنّيةِ الحانَهْ

وحكيمُ القريةِ مشنوق

والقردةُ تلهو في السوقْ

يا محبوبي ..

ذهبُ المُضْطرِّ نحاسْ

قاضيكم مشدودٌ في مقعدِهِ المسروقْ
يقضي ما بين الناسْ
ويجرُّ عباءَتهُ كِبراً في الجبّانَهْ

***

لن تبصرَنا بمآقٍ غيرِ مآقينا
لن تعرفنا
ما لم نجذبْكَ فتعرفُنا وتكاشفنا
أدنى ما فينا قد يعلونا يا يا قوتْ
فكُنِ الأدنى
تَكُنِ الأعلى فينا

***

وتجفُّ مياهُ البحرْ
وتقطعُ هجرتَها أسرابُ الطّيرْ
والغربالُ المثقوبُ على كتفيكْ
وحزنُك في عينيكَ
جبال
ومقادير

وأجيالْ

يا محبوبي

لا تبكيني

يكفيكَ ويكفيني

فالحزنُ الأكبرُ ليس يُقالْ

# في الغربة
## (انفعالات شخصية)

صلاح أحمد إبراهيم

*إلى عبدالله الصومالي وأخوته في الغربة أُقدِّم هذه القصيدة:*

هل يوماً ذُقتَ هوانَ اللونْ؟
ورأيت الناسَ يشيرون إليَ، ينادونْ:
العبدُ الأسوَدْ؟
هل يوماً رُحْتَ تراقبُ لعبَ الصبيةِ في لهفَهْ
وحنانْ

فإذا أوشكتَ تصيحُ بقلبٍ ممتلئٍ رأفَهْ:
ما أبدعَ عفْرتة الصّبيانْ!
رأَوْك فهبّوا خلفَكَ بالزفّهْ:
عبدٌ أسودْ

عبدٌ أسودْ

عبدٌ أسودْ...؟

هل يوماً ذُقتَ الجوعَ مع الغربَهْ

والنومَ على الأرضِ الرطِبَهْ

الأرض العاريةِ الصلبَهْ

تتوسَّد ثني الساعد في البردِ الملعونْ

أنَّى طوفتَ تثيرُ شكوكَ عيونْ

تتسمَّعُ همسَ القومِ ، ترى غمزَ النسوانْ

وبحدِّ بنانْ

يتغوّرُ جرحُك في القلبِ المطعونْ

تتحمَّل لونَ إهابٍ نابٍ كالسُّبّهْ

تتلوّى في جنبيكَ أحاسيسُ الإنسانْ

وتصيحُ بقلبٍ مختنقٍ غصّانْ

وا ذُلَّ الأسودِ في الغربَهْ

في بلدٍ مقياسُ الناسِ به الألوانْ!

***

أسبوعُ مَرَّ و أسبوعانْ

وأنا جوعانْ

جوعانُ ولا قلبٌ يأبَهْ

عطْشانُ وضَنُّوا بالشربَهْ

والنِّيلُ بعيدْ

والنِّيلُ بعيدْ

الناسُ عليهم كلٌّ جديدْ

و أنا وحدي...

منكسر الخاطرِ يومَ العيدْ

تستهزئُ بي أنوارُ الزِّينة والضوضاءْ

تستهزِئُ بي أفكاري المضطربَهْ

وأنا وحدي..

في عُزلة منبوذٍ هِنْديْ

أتمثَّل أمّي ، أخواني

والتالي نصف الليلِ طِوالَ القرآنِ

في بلدي

في بلدِ أُصيحابي النَّائي

الأعصم خلفَ البحرِ وخلفَ الصحراءْ

في بلدي

حيث يُعَزُّ غريب الدارِ ، يُحَبُّ الضيفْ

ويُخَصُّ بآخرِ جرعةِ ماءٍ عِزَّ الصيفْ

بعشا الأطفال

«بِبَليلِ» البِشْرِ وبالإيناسِ إذا ما رقّ الحالْ(1)

وأخذتُ أغنّي في شجوٍ، ألمي ظاهرْ

يا طيرَ الهجرةِ ... يا طائرْ

يا طيراً وُجْهَتُه بلدي

خذني باللهِ أنا واللهِ على أُهبَهْ

قَصّتْ أقدارٌ أجنحتي

و أنا في زوايةٍ أتوسَّد أمتعتي

ينحسرُ الظلُّ فأمضي للظِّلِّ الآخرْ

***

لكنّ الطيرَ مضى عنّي

لم يفهمْ ما كنت أُغَنّي

(1) في المثل السوداني «بليلة المبشّر ولا نبيحة المكشّر». وفي بعض الأماكن بمديرية كردفان غرب السودان تفرّ المياه وتشحّ إلى درجة تضطرّ إلى جلبها من أماكن بعيدة وحفظها كأندر ما يكون شيء، واستعمالها بتقتير.
-الشاعر-

# الحاجّه

## صلاح أحمد إبراهيم

ما سألْنا وما أخبرَتْ ، ليس ذاك بهامّ

لنا، وحسبنا - تعالْ-لها

إنها وكفى الحاجّهْ

ذرعَتْ كلّ إفريقيا تعبرُ

النهرَ والقفرَ سابحةً في الزحامْ

وتُقيمُ وما من مُقامْ

ريثما تنطلقْ

أيّ ريحٍ رأتْ في الحدودْ

قيود؟

إسالوا «الحرمتان»

أيّ سحبٍ لها في الجمارك أو في

الجنود

سدودْ

تقيّدها بمكانْ

وطيورٌ مهاجرةٌ ، سربُها كلّ عام
يصدر
هل قضت موسماً رائعاً بالورق
أو تصدّت لرحلتها بائتذانْ؟
فمضت في الدواوين يأمرُها آمرْ
«انتهى يومُنا، في غدٍ بكِّروا»
وأَحضِروا ما يسهِّل .. أو فاصبروا
رُبَّ قومٍ عزاز
صبروا ثم آبوا بغيرِ جواز
وكذلك ..
كالريحِ، كالسّحبِ، كالطيرِ
ليس لها**من لِجامْ
ذرعَتْ كلّ إفريقيا وهي لا تفتر
وسواكنُ وُجْهتها - بحرُها الأحمر
فالحجازْ
إنها الآن في شارعٍ من مدينتنا
فانظروا

ها هي الحاجّهْ

***

ربطَتْ طفلَها بحزامْ

على ظهرِها – وجهه الأغبر

عظمةٌ نتأتْ من عظامْ

مائلٌ رأسُه الضخُم : فرخُ نعامْ

تطلَّعَ من بيضِهِ دَهِشاً، أو كما

يفعلُ الكنغر

وسَعَتْ في الطرق

يا ترى ما اسمُها؟

يا ترى أيّ هَمّْ

جالَ في جنبها وهي أمْ

طفلُها في الرضاعْ

جائعٌ ، وهي لمْ...

لا يهمّْ ...

إنها الحاجّهْ

***

العناءُ على وجهِها المستطيلْ

آمِرٌ ومُطاعْ

والألمْ

صاعدٌ ، صامدٌ ، وأصيلْ

وهْيَ صامتةٌ لا تنَمْ

كفَّنَتْ وجهَها بقناع

كفُّها كالقدَمْ

ذاتُ شقٍّ بجانبِ شقّ

كبقايا ندمْ

في فؤادٍ نبيلْ

حملَتْ فوق هامتِها - حملَها

في تحدٍّ وفي كبرياء

ومضتْ ترتزقْ

فرشَتْ عند هجليجةٍ فولَها...

والنَّبَقْ

تعلُك الصبرَ، في جانبيْ فمِها احمرارْ

وأتاها الصغارْ

بعد طولِ انتظارْ

زحموا ظلَّها ضحكاً وغبارْ

يتدافرُ جمعُهم حولَها، وبهِمْ لم

تضقْ

قلبُها مؤتلقْ

إنَّها الحاجّهْ

***

نقرَتْ بابَهم في أملْ

تتساءلُ هامسةً عن عملْ

فأطلَّتْ لها امراةٌ ذاتُ صدرٍ جَهامٍ

وكَفَلْ

مستقلٍّ، مهيبٍ، ثقيلْ

كلّما حرَّكَتْهُ احتفَلْ

واشمخَرَّ بها فَتَميلْ

ادخُلي فلدينا غسيلْ

دخلَتْ ورنَتْ في قلقْ

الملابسُ مردومةٌ كالجبلْ

والملاءاتُ في كومةٍ ، لوجَمَلْ

حمَّلوه بها لنَفَقْ

وهْيَ لا تعترضْ

كلُّهمْ يفترضْ

إنحنَتْ فوقَها باركَهْ

صبَّتِ الماءَ يغلي، وبالقدمينِ مضَتْ

داعكَهْ

وبكى طفلُها، لم يذقْ

لبناً، ثديُها محترقْ

نَهَرَتْهُ مراطنةً فاستنامْ

وأتوا بمزيدٍ لها - لم تقلْ

كثير.. فكلُّ كثيرٍ قليلْ

على حاجّةٍ مثلِها ذاتِ ثوبٍ خَلِقْ

وجسمٍ نحيلْ

يصنعُ المستحيلْ

لو انفلقَ الصخرُ لا ينفلقْ

وعند الغروبْ

نفحوها الذي يتّفقْ

حزمَتْ طفلَها في شحوبْ

وانثنَتْ لتؤوبْ

هالكهْ

في أزقَّتنا الحالكَهْ

إنّها الحاجّهْ

***

في الطريق لها سنواتْ

خِدْنُها في المهامِهِ ماتْ

دفَنَتْهُ وسارتْ ، كأن لم يكنْ

عزمها لم يخُنْ

فَلدَيها أملْ

عاش في صدرها واعتمَلْ

في سمومِ الشقاءْ

في هجيرِ الشقاءْ

في فيافي الشقاءْ

بالدعاشِ اصطفقْ

في غمامٍ بَرَقْ

جاشَ مستطراً واكفهَرّ وكَرّ ولمّا هطَلْ...

أينعتْ بِعزاءْ:

كونَها حاجّهْ

***

فاذا أقبل الليل والكونُ ماتْ

وحانَ السُّبات

ودهدهها الكَدُّ في عرصاتِ الشتاءْ

وكفَّ ابنُها عن بكاءْ

رأت نفَسها ضيفةَ اللهِ، واللهُ قُدّامَها

على عرفاتْ

تمدّ إليه العنقْ

وترفعُ وجهاً من البؤس يشبهُ

باطنَ أقدامِها

وكفّينِ مثلَ العريضةِ محفورينِ

بآلامها

بأبلغِ ممّا تقولُ اللغاتْ

تقول له: سيّدي قد وصلتُ ومابي سوى

أن تراني وترضى

أتيتك من آخر الأرض أقطعُ أرضاً

بغير دليلٍ وأذرعُ أرضا

وأحتملُ الجورَ والإفتئاتْ

وكل عسيرٍ سوى أن أضيّعَ فرضا

وها أنا يا سيّدي ها أنا...

هاهنا لديك، وتبكي فيسقطُ عنها

القناعْ

وتهوي على التراب خامشَهْ

تتراعُش في صرعةٍ والْتِياعْ

كجاريةٍ نهشَ النوءُ منها الشراعْ

تغوصُ وتطفو على لُجّةٍ ، ويدفعها

الموجُ دفعاً لقاعْ

تقول وتخبطُ قبضتَها الصخر،

ها أنا ذي قد وصلتُ ، وصلتْ

وينقطعُ القولُ عنها، تتمتمُ، تبحثُ

عنه وتلهثُ ثم تترجمْ..
تمسكُ بعضاً وتُفلتُ بعضاً
ويعوزُها فتشير كبكماءَ، تنزو
المشاعرُ في قلبها كالدخانِ الحبيسْ
مثاراً، تدمدم، تهتفُ بالعَبَراتِ بغيرِ لسانْ،
تسلسلُ بالدمع قصةَ ذاك الصراعْ
وتجهشُ في حرقةٍ تغتلي بالمعاني
ومن بين كلّ الألوفِ الوقوفْ
يرى الله سوداءَ جاثيةً في اتّضاعْ
بلا هيبةٍ أو متاعْ
يرى الله امراةً أجنبيّهْ
بها عُجمةٌ وعَييَّهْ
دميمةُ وجِه، يُداس عليها، وينهرُها
القومُ في غلظةٍ: اغربي يا وليَّهْ
تغمغم أعينُها
بالدموع ينابيعَ في
الصخرِ ثرَّهْ

وبها لهفةٌ وتلاشٍ عميقٍ وبعضُ اكتئابٍ
وبعضُ مسرَّهْ
كنفخٍ على البوق في موطنٍ
سحيقٍ بليلٍ عميقٍ ضنينِ الشعاعْ
وقد رقص القوُم من أهِلها
نشاوى، ولكنهم في ضياعْ
دُمىً، في ضلالَتِهم سارحونْ
أسارى، وفي قيدِهم يمرحونْ
تقول: إلهي تركتُ إليكَ العشيرَهْ
إذ أنتَ أهلي وجاهي
قصدْتُكَ عبر الخُطوبِ الدّواهي
شققْتُ اليكَ الفلا والضِّياعْ
أتيتكَ ظامئةً في الظماءِ، أتيتكَ
جائعةً في الجياعْ
أتيتكَ يسخرُ بي الساخرونْ، أتيتكَ
يمكرُ بي الماكرونْ
أتيتكَ عبر اغترابٍ مذلٍّ أُهانُ به

تارةً وأَهونْ.

وها أنا يكفي بأنّي لديكَ ، وأني هنا

يا عظيمَ الرجاءْ

وأني انتصرتُ على شحِّ نفسي

وأني انتصرتُ على الآخرينْ

وأنّي ركبتُ إليك الملامَهْ

لأنكَ أنتَ المنى والسلامَهْ

وأني على قدميكَ ارتميت، وأنتَ

الكريمُ، فهبْ لي كرامَهْ

وَمُرْ ما تشاءْ

ومن كلّ راكبِ سبّاحةٍ في الفضاءْ

ومَنْ هو أعتى من الأعتياءْ

ومن عاج يبحث في سوقِ مكّةَ عن

بيعةٍ أو شراءْ

ومن حال في موكبِ الفاتحينْ

ومن كلِّ أبيضِ خَدٍّ نضيرٍ ومن كلِّ

فاغمِ عطرٍ بدينْ

ومن دونِ كلِّ الألوفِ الوقوفْ

صفوفاً وراء صفوفْ

ومن دون طائفِ بيتٍ وساعْ

يراها ، ويعرفُها ، ويهشّ لها،

ويخاطبُها باسمِها وهو أحفى بها:

انهضي يا فلانةُ إني إليكِ أمدّ الذراعْ

سمعت الذي قلته والذي لم يواتْ

وما هو من ذاك أخفى

يناغم لطفاً ، صلاةً وزلفى ، وحبّاً

تخفّى فأزهر كالروض بالحسناتْ

وما كنتِ وحدكِ حين صبرتِ

انتصرتِ في الامتحانْ

وفي الليلِ بعدَ البلاءِ الرهيبْ

وحين طغى ظالمٌ وأَهانْ

وإذ نهروكِ، وإذ شتموكِ، وإذ تركوكِ

بغيرِ أمانْ،

وحين بكى الطفلُ يومَ بكيتِ وقد

ماتَ والدُه في الطريق إليّ
وفي البحر إذ أوشكَ الموجُ أنْ
يحتويكُمْ فلم تجزعوا واتَّكلتم عليْ، وإذ
ظلَّ قلبكِ تلقاءَ مكّةَ، يسبحُ في النور
والناسُ غرقى سديمْ
يخاطبني بالذي يُستطاعْ، وذاك
العصيُّ الذي لا يواتي
تقطّع كالبرقِ في صلواتِ
كمطلعِ شمسٍ وراء الشموسْ
بإيماضةٍ في الزمانِ القديمْ
هنيئاً.. ويرفعها قربَهُ في النعيمِ
المقيمْ
بما صبرت في حياةِ الجحيمْ
إنّها الحاجَّهْ

# الكمنجات الضائعة

مصطفى سند

وطرحتُ قوسَ كمنجتي جسراً ببحرِ الليلِ
ثم هويت للقاعِ
متورِّم العينين تنبضُ عبرَ أسماعِي
طبولُ العالِم الهدّار : لا تأسى لِمَن فاتوا
فبعض مساكنٍ تبقَى وبعض مساكنٍ تنأى
فتُدنيها المسافات
تعلّم وحدك التحديقَ نحو الشمسِ والمُقَلِ النحاسيّهْ
مرايا تخطفُ الأبصارَ لكن ليلنَا الصّاحي
وشرفتَنَا المسائيّهْ
على عينيك ، فوق رموشك التَعبْى ستاراتٌ ستاراتْ
يضوعُ بنفسجُ الرؤيا وتخضرُّ النجيماتْ
بكلّ أناقةِ الدنيا ،
تمدّك بالظلالِ الزرقِ بالنغمِ الذي يهتزّ في الرّيحْ
بدندنة الأراجيح

بساعاتٍ يظلّ الشعرُ يلهث في مراكِضها ويطويها

ويسكبُ روحَه فيها

ويحلبُ قلبَه المطعونَ فوق دروبِها العطشى ليرويها

***

وأهتف: أيّها المُنثالُ كالأمطارِ، أين زمان تلقانا

بساحِ الجمرِ نحرقُ في سبيلك سوسناتِ العمرِ

نضرعُ ، ثم تأبانا؟

لعلَّكَ يا عذابَ الليلِ كنتَ تزورُنا كرهاً

وترحلُ قبلَ أن تأتي

ونحنُ نمزّقُ الأعصابَ ، نسمع دمدماتِ الوحيِ

خلف ستائرِ الصمتِ

ونرقبُ ساحَة الميلادِ ، برقَ خلاصِنا

المرصود بين الآهِ والآهِ

تفرعُ أيّها المنقادُ وجهَكَ في دروبِ الأمسِ

كان الآمرَ الناهي

أنا المحرومُ من دنياكَ لمّا غامتِ الرؤيا

ولَفَّتْني المتاهاتُ

سقيتُ الناسَ من قلبي ، حصادَ العمرِ ،
ذوبَ عروقيَ الولهى .. بأكواب من النورِ
أقبِّلُ كلَّ من ألقى على الطرقاتِ ،
من فرحي وألثمُ أعين الدورِ
كمنجاتي التي ضاعَتْ تردَّدَ صوتُها
المخمورُ يهدرُ في بحارِ الليلِ، يهدُر كالنوافيرِ

# بلادي

محيي الدين فارس

لأوَّل مرّهْ ....

أحسّ بأنِّيَ حرٌّ... وأن بلاديَ حُرّهْ

وأن القيودَ التي عذَّبتني وأدمَتْ يديّا

ألقتْ سلاسلَها الصدئاتِ لدى قدميّا

وأن بلاد الكنوزِ .... بلاد الكنوزِ الغنيّهْ

بلادي

ستفتحُ أبوابَها للضياء

لتغرسَ قطرَهْ

فتحصدَ أجيالُنا ألفَ قطرَهْ

إذا الفجرُ مَدَّ الجناحا

وألقى على الشاطئين الوشاحا

فحتّى الأجنَّهْ

سمعت أغاريدها في الدجنَّهْ

تظلّ إلى غدها مطمئنّهْ

وحتى الرعاةُ، رعاةُ شواطئكِ المخمليّهْ

وحتى أنين سواقيك تلك التي عذَّبَتْ مسمعيّا

أضحى غناءً .. غناء يصافحني في العشيَّهْ

وحتى كهولُ القرى المقعدون

تندّتْ عيونُهم بالأغاني الشجيَّهْ

بلادي أنا .. يا بلادَ الكنوزِ الغنيَّهْ

تفتحتِ مثلَ انطلاقِ العبيرِ تحدَّرَ من شفةٍ برعميَّهْ

كلؤلؤةٍ ساحليَّهْ

كأجنحةِ الطيبِ رفّتْ مع النسماتِ النديَّهْ

لأوَّل مرَّهْ

أحسُّ بأنّيَ حُرٌّ ..وأنَّ بلاديَ حُرّهْ

وأنَّ سمائيَ حرَّهْ

فلا طيرَ فيها غريبٌ يناويءُ نجمي

ولا طيفَ غيم

وأن الطريق الذي رصفناه يوماً جماجمْ

سنغسلُهُ بالعبير ونفرشُهُ بالبراعمْ

وشدوِ الحمائمْ

إذا الفجرُ مَدَّ الجناحا

بلادي أنا .. يا بلادَ الكنوزِ الغنيَّهْ

تمدّ يداً مثلَ قلب النجومِ .. بيضاءَ مثل صفاءِ الطويَّهْ

إلى كلّ شعبٍ مضى صاعداً إلى النبعِ بين الجبال العتيَّهْ

فأغرودةٌ من بلادِ الجنوبِ تعانقُ أغرودةً آسيويَّهْ

فتحنا النوافذ، يا فجرُ فانثرْ ضفائرَكَ البيضَ والسوسنيَّهْ

وبعثرْ على عتباتِ الطريقِ أغاريدَك الحلوةَ الشاعريَّهْ

# البّوابة والدم

عبدالرحيم أبو ذكرى

قال طيرٌ حزينْ:

افتحوا لي بوابتي المغلقَهْ

افتحوا لي، افتحوا لي!

دثِّروني بريشي القديم

زمِّلوني بحلمِي الهشيمْ

غيرَ أنَّ الطيورَ الكبيرَهْ

الطيورَ الجسورَهْ

نفضَتْ ريشَها ثم طارَتْ

والسماواتُ فارَتْ وغارَتْ

وتلاطَمتِ الأنجمُ

وتفصّد منها الدَّمُ

وتعطّلَ بَحر الظلام

فوقَ ذاك الحُطامْ

***

وَجمَ الطير في بردهِ واعتدادِهْ
وتغطّى بوحدتِهِ وانفرادِهْ
وطويل سُهادِهْ
حالماً أن يطيرَ ولكنْ بلا أجنحهْ
أن يسودَ الفضاَء ولكن بلا أسلحَهْ
أن يطوفَ طويلا
في بروجِ السماءِ طويلاً طويلا.



# الباب الثالث

# القصص

# المكان( 1)

(قصة تحليلية)

معاوية محمد نور

**مقدّمة**

*حينما فرغت من كتابة هذه القصة رأيت واجباً عليّ أن أُعِين القارئ العربي على فهمها، لأن هذا الضرب من التأليف القصصي حديث العهد حتى في أوروبا نفسها، وهو آخر طور من تطوّرات القصة التحليلية، وفيه- ولا شكّ- صعوبة للقارئ، خاصة إذا لم يكن ذلك القارئ واقفاً على هذا اللون القصصي في الآداب الحديثة فأقول:*

*هذا النوع من الفن القصصي ليس من مهمّته تصوير المجتمع ولا النقد الاجتماعي، ولا استجاشة الإحساس والعطف القوي على الخلائق، وليس من مهمّته أن يحكي حكاية، وإنما هو يتناول التفاعلات الداخلية في عملية الإحساس والتفكير عند شخص من الأشخاص، ويربط كل ذلك بموسيقى الروح واتّجاه الوعي. كما يعرض لمسائل الحياة العادية المبتذلة، ويشير -عن طريق الإيحاء- إلى علاقتها بشعر الحياة ومسائلها الكبرى. وهو يعرض لذلك الجانب الغامض في تسلسل الإحساسات*

1 جريدة مصر - 10324 العدد - 11 نوفمبر 1931.

*واضطـراب الميـول والأفـكار وتضادّهـا فـي لحظـة واحـدة مـن الزمـان، عنـد شـخص واحـد مـن الأشـخاص. كمـا أنـه يصـوّر مايثيـره شـيء تافـه مـن ملابسـات الحيـاة فـي عمليـة الوعـي وتداعـي الخواطـر، وقفـز الخيـال، وتمُّوجـات الصـور الفكريـة. هـذا اللـون القصصـي ـ والحالـة كمـا وصفنـا ـ يعـرض لأدقّ المسـائل العمليـة السـايكولوجية المظلمـة، حتـى للعلمـاء أنفسـهم، ويمـزج ذلـك بنـوع مـن الشـاعرية والغمـوض العاطفـي، ويخـرج مـن كل ذلـك تحفـة فنيـة حقّـاً، ويغلـب فـي كُتّـاب هـذا النـوع القصصـي أن يستثيروا نفوسـهم ويكتبـوا مـن معيـن حياتهـم، فكأنهـم يترجمـون لأنفسـهم مـع بعـض الزيـادة والنقصـان وتغييـر الأمكنـة والأسـماء. هـذا النـوع انتشـر فـي أوروبـا وعُـرِف منـذ عشـر سـنوات تقريبـاً حينمـا أخـرج «مارسـيل بروسـت» الفرنسـي روائعـه القصصيـة، كمـا أنـه عـرف فـي أتمّـه وأحسـنه عنـد «كاتريـن مانسـفيلد» و«فرجينيـا وولـف» مـن كتّـاب الإنجليـز. ونـودّ ـ ولا شـكّ ـ أن يُكتَـب وأن يُعـرَف فـي وادي النيـل.*

---

فتـح مذكرتـه التـي يـدوِّن فيهـا خواطـره وأسـماء الموضوعـات التـي يـودّ الكتابـة عنهـا فقـرأ فيهـا أسـماء هـذه الموضوعـات:(1) حماسـة شـاعر عصـري، (2) هكـذا نحـن!، (3) حرفـة الكتابـة، (4) الأولاد الأشـقياء فـي الليـل، (5) إحسـاس بالمـكان. ووقـف عنـد هـذا الموضـوع الأخيـر يديـم النظـر فيـه ويفكِّـر: متـى كتبـه؟

استجاش إحساسه بالمكان، فذكر أن للمكان من كل ظاهرات الوجود النصيب الأوفر من خياله وإحساسه، واستولى عليه شعور قويّ يدفع به لتدوين ما يحسّه تجاه المكان. لكنه شعر أن الموضوع مترامي الأطراف متشعّب النواحي لا يستطيع صهره وتركيزه وتبويبه على الوجه الذي يرضيه! وكيف يستطيع ذلك والموضوع شائع في كيانه شيوع النور في الفضاء كله؟ وعلى كل حال ابتدأ بالطريقة الزمنية في توضيح الموضوع ولَمّ أطرافه واستعراض صفحة حياته من طفولته إلى عهده الحاضر.

فذكر أنه، وهو طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من العمر، كان قد أخذه والده إلى بيت زوجته الثانية لكي يلتحق «بالخلوة» هناك. وبقي زمناً في ذلك المكان، كانت أعجب الظواهر العقلية عنده أنه حالما يستيقظ من النوم مبكِّراً على صياح الديك يذكر أهله وبيته. لكن شيئاً واحداً عَجِب له وظلَّ يعجب له طيلة إقامته هناك، وهو أنه خُيِّل إليه أن عنده مفتاحاً سحرياً يعرض أمامه السوق التي كانت تقع بالقرب من بيتهم في كل حركتها وصخبها وحيويتها، ولم يبق له كي يصدق خياله إلا أن يشتري من ذلك البائع أو يضرب ذلك الرجل!! فلمّا كبر قليلاً ظنّ في نفسه أن هذه الظاهرة غريبة فيه، وأنه يجدر به أن يسأل الناس إذا كانوا يحسّون ويتخيّلون مثلما يحسّ ويتخيَّل. لكنه لم يفعل، ولعل شيئاً من الإشفاق على نفسه والخوف من الضحك عليه منعه من ذلك السؤال.

وكبر «مجدي» فأدخله والده المدرسة الابتدائية، فكان يرى حوائط المدرسة حينما تقترب العطلة الكبرى باهتة شائخة، ويعاوده شيء من الإشفاق عليها، فلا يترك المدرسة يوم العطلة إلا بعد أن ينظر إلى كل حائط وكل شقّ، ويذرع الحوش، ثم يودّعها، ويلبث ينظر إليها وهو في الطريق إلى أن تغيب عن نظره..!

ثم راح «مجدي» إلى المدرسة الثانوية في الخرطوم، فكان، وهو في حجرة الدرس يكتب أو يستمع إلى المدرِّس، تقفز به ذاكرته ـ من غير أن يشعر ـ إلى خرائب رآها قبل عشر سنوات في أم درمان! ولايعرف ما علاقة تلك الخرائب والأطلال التي لم يقف عندها في يوم من الأيام باللحظة الحاضرة، وما لها تلحّ على خياله وتصوُّره وتحتلهما من غير أن يناديها أو يفكر فيها أو يفكِّر حتى في أم درمان كلها، وبعد جهد ليس بالقليل يستطيع صرفها والانتباه إلى حاضره!

فإذا ذهب لينام في الليل وسمع صوت «البوري» الذي يُضرَب عادة لعشاء الضباط الإنجليز ذهب توّاً إلى من فُقِد من أهله وقرابته.

وأغرب من ذلك كلّه أنه كان لا يسمع صوتاً إلا ويعطيه لوناً خاصاً؛ فصوت البوري أصفر باهت، وصوت «الأتومبيل» أسود عامر السواد، كما أنه كان ينظر إلى الأرقام المكتوبة كلها بخطّ واحد، فيتفاءل بالبعض ويتشاءم من البعض الآخر، ويعطي تلك

الأرقـام ألوانـاً: فالثمانيـة والأربعـة أرقـام عامـرة طيبـة، والخمسـة والتسعة أرقام باهتـة صفـراء لا يرتـاح إلـى رؤيتهـا أو التيمُّـن بطلعتها!
وكان صـوت ذلـك «البـوري» دائـم الاقتـران بصـورة خالـه الـذي مـات، وهـو لا يذكـر ذلـك الخـال، حينمـا يذكـره، إلا علـى صـورة واحـدة، ولـو أنـه رآه فـي مختلـف الصـور والأشـكال. يذكـره حينماكان معه في المولد النبوي في ليلة مقمرة في حركة معيَّنة واتّجـاه واحـد بعينـه دائمـاً!
وهـذه الظاهـرة هـي الأخـرى لا يسـتطيع لهـا تفسـيراً، فإنـه قـلَّ أن يذكـر النـاس الذيـن عرفهـم ممـن ماتـوا مـن أهلـه أو مـن هـم بعيـدون عنـه إلا فـي هيئـة الحركـة. وفـي أغلـب الأحيـان فـي حركـة بعينهـا وفـي مـكان بعينـه ويـوم وسـاعة بعينهمـا؛ فـلا يذكـر خادمتهـم التـي ماتـت، وفـي البيـتـ مثلاًـ أو فـي المطبـخ أو مـا إليـه مـن الأمـاكـن التـي طالمـا رآهـا فيهـا، ولكنـه يذكرهـا فـي مـكان بعيـد كان برفقتهـا فيـه، فـي مـكان قفـر بالقـرب مـن النيـل بعيـداً عـن المدينـة، وفـي خطـوة وإيمـاءة واحـدة، حالمـا يذكـر تلـك الخادمـة يذكـر ذلـك المـكان الغريـب وتلـك الإيمـاءة، مـن غيـر قصـد ولا تعمُّـل ولا استحضار!
وهكـذا، فالصـور التـي رأى فيهـا والـدهـ مثـلاًـ كثيـرة، ولكنـه قَـلَّ أن يذكـره فـي غيـر صـورة واحـدة وحركـة واحـدة ومـكان بعينـه!

***

وكان إذا قـرأ فـي مـكان أو سـمع بـه تخيَّلـه ورسـمه فـي مخيِّلتـه،

فـإذا سـاعدته الظـروف وذهـب إلـى ذلـك المـكان رآه مثـل مـا تخيَّلـه، حتـى الوضـع وأشـياء دقيقـة لا تلـوح فـي خاطـر إنسـان، وقـد يدهـش أحيانـاً حينمـا يـزور مكانـاً لأوَّل مـرة، فيخيَّـل إليـه أنـه قـد عـرف هـذا المـكان قبـل الآن فـي حيـاة أخـرى، والـكلّ يظهـر أمامـه كحلـم غريـب! لكـن الألفـة أو الإينـاس الـذي يشـعر بـه نحـو تلـك الأمكنـة ومنعرجاتهـا يخيّـل إليـه أنـه قـد عـرف ذلـك وصحبـه ردحـاً مـن الزمـن، لا شـكَّ فـي ذلـك ولا ريـب فيـه.

فـإذا أمعـن فـي التفكيـر والتعليـل ظـنّ أن هـذا الـذي نسـمّيه «زمنـاً» وهـمٌ لا أصـل لـه «Illusion» أو خرافـة تخلقهـا عقولنـا «Fiction»، وأن الحقيقـة الواحـدة الباقيـة هـي «المـكان»، وأننـا أحيـاء مـن أوائـل الأزمـان إلـى أواخـر الآبـاد فـي صـور وأشـكال ومـواد مختلفـة، كلّهـا لهـا حـظّ مـن «الوعـي» يختلـف ضعفـاً أو قـوة باختـلاف الأفـراد والأشـياء. وعلـى هـذا الزعـم فللحوائـط والمـادة الصمّـاء والأشـجار وعـي إحسـاس مـن نـوع وعينـا وإحساسـنا، إلا أنـه قليـل فـي الكـمّ بنسـبة حـظّ تلـك الأشـياء مـن الحيـاة، والحرّيـة والحركـة، وأن مهمّتنـا نحـن أن ننتقـل مـن شـكل مـن أشـكال الحيـاة، ونمـرّ علـى تلـك الأدوار فـي تلـك «الأثنـاء» التـي نسـمّيها الزمـن، وهـو مصـدر ذلـك الأحسـاس، وسـبب ذلـك العطـف الـذي نحسّـه نحـو أشـكال الحيـاة المختلفـة مـن غيـر أن نعـرف سـببه!

ويـرى «مجـدي» أن بعـض أحلامـه تتكـرَّر فيـرى أمكنـة غريبـة فـي بـلاد لـم يعرفهـا، فـلا يمـرّ عـام أو عامـان حتـى يسـافر إلـى بلـد

من البلدان يرى فيه المكان نفسه الذي رآه في حلمه من قبل أعوام!

ولـ«مجدي» عادة تقلقه ولا تريحه، لكنه يحسّ في ممارستها والشوق إليها راحة وطمأنينة. فهو إذا لم يضع ملابسه وكتبه وسريره في أمكنة بعينها وفي أوضاع خاصة لا يرتاح باله قطّ. فإذا وجد أقل تغيير في وضع كتبه وملابسه غيَّرها إلى نفس الوضع والمكان لأنه يتفاءل بأمكنة بعينها، ويتشاءم من أخرى. وقد يلج به هذا الإحساس المكاني في ساعات تيقُّظه إلى ما هو أغرب من ذلك، فإذا مَرَّ بالسوق لَجَّ به الخاطر أن حياته لا تكمل إذا لم يَرَ كلّ الدكاكين والشوارع، فإذا فرغ من هذه العملية وَدَّ لو أن في مكْنَته أن يدخل كل حوانيت البقالة ويرى، من قرب، حوائطها الداخلية وزواياها وترابها، كأنما لكل تلك الأشياء قصّة معه، وهو لا يعلم من أمر تلك القصة سوى هذا الإحساس العارض الذي يقلقه في بعض الأحيان، ولا يرتاح ضميره إلا حين ينفّذه!

استعرض «مجدي» كل تلك الذكريات والصور والأسباب في خياله في لحظة واحدة من الزمان، وظلَّ يفكِّر.. يفكِّر..!

«ما معنى كل ذلك! معناه.. معناه.. نعم، معناه أن الإنسان لا يموت أبداً. وأن ما نسمّيه موتاً هو في واقع الأمر تغيير لشكل الحياة، وأننا نحن والسماء والأرض والأمكنة كلّها أخوان، والأمكنة أخوان وأولاد أعمام، وهذا هو سبب العطف والكَلَف

بالمكان!

فقالت له نفسه الثانية: «لا هذا غير صحيح. وإلا فلماذا يمتاز بعض الناس بهذه الخصلة، والبعض الآخر لا يعرفها؟ ألا تذكَّرت ما قرأت في كتب «السايكولوجي» من أن بعض الناس بتركيبهم أقدر على تخيُّل المرئيات، وآخرين على المسموعات، والبعض الآخر على المشمومات، وبعض الطلبة يفهمون أكثر إذا قرأوا الكلام مكتوباً، والبعض الآخر إذا سمعوه منطوقاً!».

«نعم، هذا صحيح، ولكن مامعنى كل ذلك أيضاً؟!»

مرّة أخرى وهو في وادي التفكير العميق! «معناه.. معناه.. ماذا يهمّني معناه؟ هذه هي الحياة فكفى.. وليس من معنى لأن نعتقد أن وراءها معنى! معناها أنها الحياة، ويكفيني أن أصوِّر الحياة كما أراها، وليس من مهمّتي أن أفسِّر كلّ ظواهرها، فلعل هذا الاضطراب وعدم مقدرتنا على ردّها إلى سبب واحد هو من خواصّها الأساسية. وليس ذنبي ولا ذنب الحياة أن الناس ينظرون إلى أشياء وراء الحياة. لعلّ هذه هي لعبتها الكبرى علينا، وضحكتها المكبوحة التي لا يفترّ ثغرها عنها، ويكفيني أن أحكي الحياة بالعَرَض دون التفسير. فلعل العَرَض نفسه هو التفسير، ولعل الاعتقاد أن وراء كلّ ظاهرة ظاهرة أخرى خدعة من خدع المنطق.. فلنحك الحياة في تقييد خواطرها وولائدها، ولا نكن حمقى فنطلب التفسير والتعليل، إذ الحياة تعرف الخلق الذكي، ولاتعرف التفكير والتعليل، فلأعرض تجاريب إحساسي

بالمكان كما أحسست به ورأيته، وليعلل ذلك كلٌّ وفق مزاجه وتفكيره إذا كان لابدَّ له من التعليل والتفكير!

هذا هو منطق الحياة الصميم، وهكذا يجب أن يكون منطق الفنّان الذي يحكيها.. وارتاح إلى هذا التفكير كثيراً، وابتدأ يلمّ أطراف موضوعه تهيّؤاً للكتابة النهائية. فخطّ في وسط السطر «إحساسي بالمكان»، وكتب:

(1) كيف أنني أذكر الأشخاص الذين عرفتهم دائماً في مكان بعينه، ويتكرّر ذلك المكان كلّما ذكرتهم.

(2) كيف أنني في ساعات الدرس والتحصيل تلحّ في ذاكرتي صور خرائب وأمكنة رأيتها منذ عشرات الأعوام فتزورني من غير أن أناديها. وقد يقفز بي مكان في بلد إلى مكان في بلد آخر لا أعرف ما العلاقة بينها قَطّ، ولا أستطيع أن أعرف.

(3) كيف أتخيَّل بعض الأمكنة ومواقعها قبل أن أراها، فلما تسعدني الظروف برؤيتها تكون وفق ما تخيَّلت في أغلب الأحيان!

(4) كيف أحسّ أن المكان الذي رأيته لأول مرة في حياتي هذه قد رأيته من قبل في حياة سابقة أخرى!

(5) كيف أن خاطري في بعض الأحيان يلحّ بي لكي أذرع حوائط الدكاكين الداخلية ـ التي لا أعرفها ـ وأتمعَّن في ترابها وزواياها كأني قد تركت روحاً هناك!

بعد أن كتب هذه الأشياء شعر بأنه قد تعب، وفتح مذكِّرته التي

يدوِّن فيها خواطره وأسماء الموضوعات التي يودّ الكتابة عنها، فقرأ فيها أسماء هذه الموضوعات: (1) حماسة شاعر عصري، (2) هكذا نحن، (3) حرفة الكتابة، (4) الأولاد الأشقياء في الليل، (5) إحساسي بالمكان!

فقام فجأة من الكرسي، ثم رأى وجهه في المرآة، ثم ابتدأ ينظر إلى الأفق من شبّاك غرفته وأراد أن يفكِّر غير أنه أحسّ أن رأسه أصبح فراغاً مطلقاً!

# بعد أسبوع

عثمان علي نور

كان يبـدو كالمجنـون، بـل إن سـائق التاكـس ظنَّـه مجنونـاً فعـلاً، عندمـا رآه يخـرج مـن بـاب حديقـة الريفيـرا، وهـو يأتـي بحـركات هسـتيرية مـن يديـه، وكأنـه يكسـر قبـة شـخص مـا، وسـمعه يقـول لنفسـه بصـوت مرتفـع، مشـحون بالغضـب:

«بعد أسبوع.. بعد أسبوع واحد يا مجرمة..».

.. فوجئ السائق بمن ظَنَّه مجنوناً يفتح باب العربة بقوّة، ويقذف بنفسه داخلها، ويقول له بصوت متوتِّر:

ـ الثورة.. ميدان الحارة الرابعة.

وتردَّد السائق لحظة.. هل يذهب بهذا المجنون إلى حيث يريد، أم يطلب منه أن يغادر العربة؟؟ ولكن تردُّده لم يطُلْ، فلم يلبث أن أدار المحرِّك، وانطلقت العربة في طريقها إلى مدينة الثورة.

***

وفي حديقة الريفيرا، حول مائدة عليها زجاجات «الليموناده» وأكواب الشاي، كانت تجلس فتاة فاتنة وهي تتبادل نظرات الذهول مع شاب يجلس معها حول المائدة، كان كلّ منهما لا يدري ماذا يفعل، أوماذا يقول. وأخيراً كان الشاب هو البادئ

بالحديث، سألها:

ـ «أهذا هو؟»

ـ «نعم، إنه هو».

ـ «لماذا لم تتحدَّثي إليه؟»

ـ «وماذا أقول له؟»

ـ «توضِّحين الأمر.. تخبرينه بكل شيء..»

ـ هل تظنّه يفهم أو يعذر؟

***

كان سائق عربة التاكسي يسوق بحذر، نصف باله إلى الطريق، والنصف الآخر يراقب المجنون خشية أن يفاجئه بضربة على قفاه، أو أن يقفز من العربة وهي سائرة، فيسبِّب له متاعب هو في غنى عنها، ولكن هذاكان في عالم آخر.. كان يعيش مع ماضيه وأمانيه وأحلامه.

هو من أبناء الشمالية، أتمَّ دراسته الثانوية بمدرسة دنقلا، وكانت شهادته تؤهِّله لدخول الجامعة، ولكنه لم يكن راغباً في الدراسة، كان يستعجل الوظيفة، وقد تَمَّ له ما أراد، وعُيِّنَ في الدامر قريباً من أهله وأقاربه في عطبرة.

وعاش حياة مستقيمة؛ لا يدخِّن، لا يسكر، ولا يعرف النساء. وكان والده ميسور الحال، ولذلك كان مرتَّبه يذهب إلى دفتر التوفير في مكتب البريد. وكان حلم والدته أن تراه عريساً، وما من مرّة ذهب إلى إلبلد، إلا وحدَّثته في أمر الزواج، وخيَّرته بين

عـدد مـن فتيـات البلـد الجميـلات.

تذكَّـر كيـف كان يراوغهـا، ويختلـق مختلـف الحجـج ليهـرب مـن القيـد الـذي كانـت تريـد أن تقيِّـده بـه. وذات مـرّة اضطـرّ إلـى أن يقـول لهـا الحقيقـة. أخبرهـا أنـه لا يريـد الـزواج مـن البلـد، وإنمـا نفسـه فـي واحـدة مـن بنـات العاصمـة. آه، بنـات العاصمـة: الفسـاتين القصيـرة، الكعـوب العاليـة، البـاروكات التـي تجعلهـن كالملـكات، الحديـث الناعـم، الظُـرف، الرقّـة، لقـد وجـد نفسـه مفتونـاً بـكلّ هـذا، بـل مجنونـاً بـه. وكان ينتهـز كل فرصـة لزيـارة العاصمـة، إلـى أن نجحـت مسـاعيه، وتـمَّ نقلـه إليهـا، وفاجـأه صـوت السـائق وهـو يقـول لـه إنهمـا قـد وصـلا ميـدان الحـارة الرابعـة، وكان المنـزل الـذي يقصـده قريبـاً مـن الميـدان، ففضَّـل أن يذهـب إليـه راجـلاً، وغـادر العربـة بعـد أن أعطـى السـائق أجـره.. وفـي الطريـق إلـى المنـزل، عـاد إلـى ذكرياتـه وأحلامـه؛ منـذ أن نُقـل إلـى العاصمـة، وهـو يبحـث ويبحـث عـن واحـدة يتزوّجهـا. ورُشّـحت لـه الكثيـرات، ولكنـه كان متـردِّداً، وعلـى الرغـم مـن رغبتـه القويـة فـي الـزواج بواحـدة مـن بنـات العاصمـة، وبرغـم افتتانـه بهـن كان يخشـاهن ويحذرهـن إلـى أن وقـع الفـاس فـي الـراس.

رآهـا فـي زواج زميـل لـه، سـحره جمالهـا وأخذتـه فتنتهـا، ووجـد نفسـه يقـرِّر أن يضـع حـدّاً لتـردُّده.. وسـعى حتـى عـرف مـن هـي، ومـن أبوهـا، وذهـب إلـى أقربـاء لـه، وحُـدِّد يـوم قريـب لإعـلان الخطبـة.

كانت تلك الليلة أسعد لياليه: الأنوار، الزينات، زغاريد أمّه وأختيه، صوت المطرب يردِّد أغاني الحبّ واللوعة، أصدقاؤه وزملاؤه يملأون المكان صخباً، صديقاتها يحطن بها كما تحيط الوصيفات بالملكة، وهو وهي داخل «الكوشة» ينظر إليها مفتوناً، مسحوراً يظنّ نفسه في حلم.
وعاش هذا الحلم الجميل طيلة الأيام السبعة الماضية، ولكنه استيقظ الليلة، ويا لها من يقظة! كان مقدَّراً لحلمه الجميل أن ينتهي هذه النهاية الحزينة، المؤلمة.
لم يكن قد دخل حديقة الريفيرا قبل تلك الليلة. كان قد سمع عنها. وفي مساء ذلك اليوم كان محتاراً أين يذهب، وارتدى ملابسه، وخرج من المنزل دون أن تكون له وجهة يقصدها، وخطر له أن يذهب إلى الريفيرا.. فذهب.
كان يتجوَّل بين الموائد عندما سمع صوتها، صوتها الذي يعرفه جيداً، ومع ذلك كَذَّبَ أذنيه، تسمَّر في مكانه.. وكأن كل خلّيّة فيه أذنه تسمع.. إنها هي.. إنها هي.. واندفع نحوها في جنون حتى وقف أمامها، وأمام الشباب الذي كانت تجلس معه وسألها بصوت غاضب: من هذا؟
ولمّا لم تُجِبْه صفعها بكل قوته، ثم انتزع من أصبعها خاتم الخطبة وغادر المكان، وهو يقول لنفسه بصوت عالٍ:
ـ بعد أسبوع..! بعد أسبوع واحد يامجرمة! وظلت هي وصاحبها يتبادلان نظرات الدهشة والذهول.

***

كان الرجل يصلِّي العشاء عندما سمع طرقاً على باب منزله، فلمّا أنهى صلاته، قام ففتح الباب ليجد أن الطارق خطيب ابنته، دعاه إلى الدخول، وهو يحسّ بأن مصيبة توشك أن تقع على رأسه.

جلس الشاب صامتاً، وربّ المنزل جالس بجانبه على السرير ينظر إليه دَهِشاً من حالته، وقلقاً من صمته، ولمّا طال الصمت قال الرجل للشاب:

ـ إن شاء الله ما تكون في عوجه؟

ـ الحقيقة أنا جيت أفسح الخطبة.

ووجد الرجل نفسه يصرخ:

ـ بتقول شنو؟

ـ عاوز أفسخ الخطبة..

ـ ليه؟ حصل شنو؟

ـ لقيت بتّك في الريفيرا مع راجل غريب.

وأحسّ الرجل بالضربة تقع على رأسه وتقصم ظهره، أراد أن يقول شيئاً ولكنه لم يجد صوته، أما الشاب، فقد انتزع من إصبعه الخاتم الثاني، ووضع الخاتمين فوق السرير، وأسرع يغادر المنزل.

وجاءت أمّ الفتاة، فوجدت الأب يضع يديه على رأسه ويردِّد:

ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله.

ـ مالك؟ ـ قالتها في جزع.

ـ بتّك فضحتنا فضيحة كبيرة.

ـ عملت شنو؟

ـ لقاها خطيبها في الريفيرا مع راجل غريب..

ـ مش ممكن.. مش ممكن.. كذّاب.. بتّي عندها شغل في المكتب وراحت الشغل.. وانفجر الأب غاضباً:

ـ الله يلعن أبو الشغل، وأبو اليوم الي دخلت فيه الشغل.. أنا لو ما الحاجة بخلّيها تمرق، أو تمشي المكاتب؟

ـ يمكن ما هي.. يمكن واحدة بتشبها.

ـ ووجد الرجل في ما قالته زوجته قشّة يتعلَّق بها إلى أن تعود ابنته، ونسي الخاتمين الراقدين بقربه على السرير.

ظلّ الرجل جالساً على سريره، وزوجته على الفروة قرب رجليه في انتظار عودة ابنتهما، ومضت اللحظات طويلة مشحونة بالقلق والترقُّب، وظلّا على حالهما تلك إلى أن سمعا أذان الفجر، فقام الرجل ليصلي الصبح، وترك زوجته تسفح الدموع.

# اللعبة...

## جمال عبدالملك

## (ابن خلدون)

في كل زيارة كانت تقول له:

ـ «أنا زهجت خلاص.. سأقتل نفسي» ثم تنخرط في البكاء.

وكان سليمان ينحنى فوقها يمسح على شعرها الأملس، ويطيِّب خاطرها ثم يأخذها برفق بين ذراعيه، مؤكِّداً لها أنه في القريب سيجد لها عملاً.. وهكذا حتى تجفّف دموعها وتنطلق تجهِّز له البيرة الباردة والأقداح الكبيرة.

كان قد حفظ الدور الآن.. طقوس لابد منها. في كل مرة كانت تؤكِّد له كم هي مظلومة وبائسة وشقيّة، وتتساءل ماذا سيكون مصيرها عندما يذبل شبابها ويذوي بفعل الدخان والسهر والسُّكْر، هل تمسي مثل تلك العجوز ضعيفة النظر التي تغسِّل البنات، القذرة؟ أليس الموت أهون من ذلك المصير؟ وهل تظل محكوماً عليها باستقبال أصناف من الرجال كل يوم، بل كل ساعة.. منهم الوسيم والدميم، الصحيح والمريض، الكريم والبخيل، وعليها أن ترضيهم جميعاً؟

كانت تبكي بحرقة وتنسى أنها إنما تردِّد أفكاره التي زرعها في دماغها عندما التقى بها لأول مرة، وكان قد قرأ رواية «الجريمة

والعقـاب» لدستوفيسـكي، وتأثّـر بموقـف الشـاب «رديـون» وهـو ينحنـي ليقبِّـل قدمَـيْ «سـونيا» الغانيـة الصغيـرة البائسـة، وكان قـد شرب كأسـين مـن الجِنّ المحَلّي قبـل أن يدخـل السـينما، وعثر فـي حجـرة سوسـن علـى مجـلّات وكتـاب. قالـت مزهـوّةً إنهـا تعلمـت القـراءة والكتابـة فـي المدرسـة وإن اسمها«سـت الجيـل»، ولكنـه أطلـق عليهـا اسـم سوسـن، وحكـت لـه قصّـة مألوفـة عـن البنـت التـي أخطـأت ثـم هربـت مـن أهلهـا القسـاة لتقـع فـي براثـن مصيـر أشـدّ قسـوة وظلامـاً.

أعجبـه جسـمها القليـل وشـعرها الناعـم وبشـرتها المخمليـة. قـال لهـا إن الحيـاة يجـب أن تكـون أفضـل وإنـه كتـب موضوعـاً وبعـث للصحيفـة اليوميـة يقـول فيـه إن البغـاء، مثلـه مثـل التسوُّل والعطالـة، عَـرَض زائـل مـن أعـراض المجتمـع الاسـتغلالي يجـب أن ينتهـي، ووعـد أن يجـد لهـا حـلّاً.

بكـت البنـت فربَّـتَ على ظهرهـا برفـق، وقـد نـدم علـى ذلـك فيمـا بعـد، لكنـه نـال لـذّة مضاعفـة، ولـم يسـتطيع الانقطـاع عنهـا فهـو مـن النـوع الـذي يتهيَّـب التغييـر برغـم كل مـاردَّده عـن ضـرورة التغييـر، ثـم إن البنـت نظيفـة وشـابة.. نصحـه أصحابـه ألا يتـورَّط مـع سوسـن فهـي مجنونـة. البنـات قلـن إنهـا ـ مـرّة ـ قذفـت تاجـراً ثريّـاً بزجاجـة فارغـة عندمـا حـاول إرغامهـا علـى مجالسـته. ومَـرّة أخـرى اقترحـت سوسـن علـى البنـات تكويـن نقابـة فزجرتهـا «جليلـة» سـيدة البيـت ذات الأسـاور والبطـن الجسـيمة.

قال له الباشكاتب الفارع الطول عبدالجليل:
ـ «فكرتك هذه ياسليمان بلاريب. ومن سيكون سكرتير النقابة وأمين الصندوق؟»
ـ «البنت ذكية يا عبدالجليل»
ـ «شيطانة»
عبدالجليل كان يعرف الحكاية من أوّلها، وهو صديق العمر الذي لازمه منذ صباه البكر.. مَرَّة ألحَّ عليه الشعور بالإثم حتى فكَّر أن يلقي بنفسه في النهر عندما دهمه إحساس غامر بالتخاذل إزاء شراسة الطلّاب الكبار. ولكن عبدالجليل تولّى حمايته حتى طالت ساقاه وغلظ صوته وامتلأ وجهه بالبثور وتكثَّف الشعر تحت أنفه.
قال له عبدالجليل:
ـ «اسمع يا سليمان، سوسن طموحة، ولكنها قليلة الخبرة، وأنت تلعب معها لعبة خطرة. تضع في رأسها أحلاماً عسيرة وفي فمها كلمات كبيرة.».
انتبه سليمان.. ربّما كان عبدالجليل يحسده على امتلاكه سوسن. عبدالجليل لا يعرف غير تلك المرأة البدينة السوداء ذات الأسنان الذهبية. سليمان هو الوحيد الذي ارتفع بذوقه عن الشلّة.
مَدَّ له عبدالجليل كرّاسة اصفرَّ غلافها، وقال:
ـ «كرّاستك، تركتها فوق مكتب بالأمس. متى تتمّها؟»
ابتسم سليمان وهو يقرأ الكلمات القليلة التي خطّها في أول

صفحـة:

ـ «سوسـن فتـاة جميلـة سيِّئة الحـظ، ولكنهـا تحـنّ للحيـاة الشـريفة. تغيَّـرت حياتهـا عندمـا قابلـت «س» الـذي أحبَّتـه بـكل جوارحهـا، ورَجَتْـه أن ينتشـلها مـن الوحـل.».

***

فـي المقهـى كان الكـرّاس لا يـزال فـي يـده.. سَـلَّمَ الحـذاء إلـى ماسـح الأحذيـة وقـال لعبدالجليـل:

ـ «آخـر مـرّة زرتهـا وجدتهـا راقـدة محمومـة، وكانـت تلفـظ كل مـا يدخـل فـي جوفهـا.. خسيسـة تلـك المـرأة جليلـة».

قالـت لـي «لمـاذا لا تحملهـا إلـى الدكتـور.. تخـاف أن تسـير معهـا فـي الطريـق.. إذن، اطلـب الدكتـور ليحضـر هنـا».

قال له عبدالجليل:

ـ «ربّمـا حملت بوليّ العهد.».

ولكن سليمان قاطعه بحدّة قائلاً:

ـ صحبتهـا إلـى الطبيـب، قـال عندهـا ملاريـا قديمـة، ومعنوياتهـا هابطـة، وهـي لا تـذوق الطعـام إلا قليـلاً.

«سـمعتها تـردِّد أنهـا تحتقـر نفسـها، وأنـه لا أمـل لهـا فـي دنيـا ولا فـي آخـرة.»

«هل تصدِّق أنها ستنتحر؟».

ـ «كلّهـن يقلـن هـذا.. اسـمع يـا سـليمان: البنـت تريـد أن تورِّطـك، إنهـا تحـنّ لبيـت لا يطـرق بابـه سـوى رجـل واحـد، وهـا أنـت تحضـر

لها مجلّات وكتباً وتحدِّثها عن مزايا الشرف!!».
ـ يجب أن تتمرَّد على واقعها أوّلاً.».
ـ «وعندما تتمرَّد، ماذا يحدث؟ هل تطلب منها أن ترضى بحظِّها من الدنيا لأن واقعها مقدَّر ومكتوب منذ الأزل؟».
ـ «وماذا أفعل؟».
ـ «دعها».
لم يجرؤ أن يقول لعبدالجليل إنها أعطته ما يزهو به وسط أقرانه أيّام العطلات حول مائدة الوست المنصوبة وزجاجات (الشري)، وأنه يشعر معها أنه سيّد الرجال، وأنه ينتظر معجزة. عبدالجليل لا يعرف أنه، أيّام الدراسة عندما كان سليمان يشارك زملاءه تطاولهم على المقدَّسات، كان يتوسَّل إلى السماء بعد ذلك في غرفته ألا تأخذ هفواته مأخذاً جديّاً.. وهو الآن ينتظر معجزة... الزمن كفيل بخلاصها، ولكن عبدالجليل كان ينهره قائلاً:
ـ «دعها يا سليمان، هناك غيرها، لا تتورَّط أكثر من ذلك.».
كان يدَّخر النقود لمباراة كرة القدم في الغد، ولكنه بارح المقهى وحيداً، وترك عبدالجليل يثرثر مع أحد أقربائه. وجد نفسه يسير في الطريق المؤدّي إلى بيت جليلة. اشترى سجائر وحلوى ومضى قدماً في الطريق المألوف. وعندما اقترب لاحظ جمعاً من النسوة والصبية والمخنَّثين يولولون. اقترب أكثر، التفتت نحوه المرأة العجوز وقالت له: «ست الجيل صبَّت على نفسها الجاز وأشعلت النار واحترقت في الظهر، ماتت في الإسبتالية

فـي المسـاء».
تشـوَّهت.. ماتت.. انتحرت.. لم تكن تكذب!
داخ وأحـسَّ بالجـدران تطبـق عليـه، ولكنـه تماسـك، ووضـع نفسـه داخـل عربـة (تاكسـي) وحمـل هَـمّ الليـل والأرق والغثيـان، قـال للسـائق:
«اذهب بي بعيداً».
نظر إليه السائق طويلاً، ثم قاد سيارته على مهل..

# نخلة على الجدول

## الطيب صالح

«يفتح الله!».

«عشرون جنيهاً يا رجل، تحلّ منها ما عليك من دين. وتصلح بها حالك. وغدا العيد، وأنت لم تشتر، بعد، كبش الضحية! وأقسم لولا أنني أريد مساعدتك، فإن هذه النخلة لا تساوي عشرة جنيهات».

وتململ حمار حسين التاجر في وقفته، ولم يكن صاحبه قد ترجَّل عنه، فإنه لم يرد أن يظهر لشيخ محجوب تلهُّفه على شراء النخلة ذات البنات الخمس التي يسميها السودانيون في الشمال «الأساسق»، وقد قامت وسطها النخلة الأم، ممشوقة متغطرسة، تتلاعب بغدائرها النسمات الباردة التي هَبَّت من الشمال تحمل قطرات من مياه النيل.. ورأى الحمار الأبيض البدين حمارة أنثى ترعى عن بعيد بين سيقان الذرة. فنهق نهيقاً أجهش ممتدّاً، ثم رفع رجله الخلفية اليسرى ووضعها، ورفع رجله الأمامية اليمنى ووقف على حافة حافره، وتشاغل بخصل من نبات «السِّعدة» الريّانة التي نمت على حافة الجدول، وكأنه قد تبرَّم بهذه المساومة التي لم يكن من ورائها طائل. والحقّ أن

حسين التاجر، بثيابه البيضاء الفضفاضة، وعباءته السوداء التي اشتراها في زيارة له إلى الخرطوم، وعمامته من «الكرب» نمرة واحد، وحذائه الأحمر الذي لم تخرج أيدي صنّاع «المراكيب» في الفاشر أجود منه، وحماره الأبيض البدين اللامع، والسرج الأحمر المدهَّن، والفروة البنية التي تدلّت وكادت تمسّ الأرض، كان صورة مجسَّمة للكبرياء والغطرسة.

ولكن شيخ محجوب لم يُحِرْ جواباً، وكان يبدو في وقفته تلك كالمشدوه يرنو إلى أفق بعيد متناءٍ، ورويداً رويداً خفتت في أذنيه ضوضاء «أهل الخير» الذين تجمّعوا ليتوسَّطوا بين التجار وشيخ محجوب. وخفت صوت الساقية الحزين المتِّصل.

ولفّ ضباب الذكريات معالم الأشياء الممتدّة أمام ناظري شيخ محجوب: الناس، والبهائم، وغابة النخيل الكثّة الملاصقة، وأحواض الذرة الناضجة التي لم تحصد بعد، والأحواض الجرداء العارية قطعت منها الذرة، وسرحت على بقاياها قطعان الضّأن والماعز. كل ذلك تحوَّل إلى أشباح يتراقص في وسطها جريد نخلة محجوب. وفي أقلّ من لمحة الطرف استعرض الرجل حاضره. أجل. غداً عيد الأضحى حين يخرج الناس مع شروق الشمس في ثيابهم النظيفة الجديدة، ويصلّون مجتمعين على مقربة من ضريح الشيخ صالح. وإذ يعودون إلى بيوتهم تنضح وجوههم بالبِشْر والسعادة، وتسيل دماء الأضاحي. ويقبل الأضياف ويخرجون. ويتردَّد في الحَيّ صدى ضحكاتهم، أما

هو.. أما بيته..؟ إنه لا يملك ثوباً نظيفاً يخرج به إلى الصلاة، وليس عند زوجته غير «ثوب زراق» اشتراه لها قبل شهرين نال منه البلى وتراكمت عليه الأوساخ. أما ابنته خديجة فقد كادت تفتِّت قلبه ببكائها من أجل ثوب جديد تعرضه على لداتها، وتعيِّد به مع صاحباتها. ومن أين له جنيهات ثلاث يشتري بها خروفاً يضحّي به؟

وتمتم شيخ محجوب في صوت لا يكاد يُسمع. شيء يشبه التوسُّل والابتهال: «يفتح الله» وزَمَّ شفتيه في عصبية، وعاد بعقله خمسة وعشرين عاماً إلى الوراء. ألا ما أعجب تقلُّبات هذا الزمن! لقد كان يومئذ شاباً قوياً أعزب لم يبلغ الثلاثين بعد، يعمل في ساقية أبيه مقابل كسوته وشرابه، فلم يكن يحتاج إلى المال، ولم يكن يعرف له قيمة. وفي ذات صباح مشرق من أصباح الصيف، مَرَّ بابن عمه اسماعيل، وكان الأخير منهمكاً بقلع الشتل ليغرسه في أماكن أخرى من أرض الساقية. ووقع نظر محجوب على شتلة صغيرة رماها إسماعيل بعيداً، على أنها خالية من «الأضراس» لا تصلح، فالتقطها محجوب ونفض عنها التراب، وقال لابن عمه ضاحكاً: «باكر تشوف دي تبقى تمرة زي العجب» وتبسَّم إسماعيل في سخرية، واستغرق في عمله. وعلى حافة الجدول قريباً من الساقين، شقَّ محجوب حفرة صغيرة وضع فيها «النخيلة» وواراها التراب، وفتح لها الماء بعد أن تلا آيات من القرآن وردَّد في شيء من الخشوع:

«بسم الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله». مثلما يفعل أبوه كلما غرس شتلة أو حصد نبتاً. ولم ينسَ أن يصبّ في الحفرة قليلاً من ماء الإبريق الذي يتوضّأ به أبوه تيمُّناً وتبرُّكاً. وأنزل محجوب غصّة صعدت في حلقه، ثم مَرَّر أصابع يده النحيلة المعروقة بين شعيرات لحيته المتفرِّقة. ألا ما كان أبرك ذلك العام! بعد ستّة أشهر فقط من غرسه «النخيلة» تزوَّج من ابنة عمه، ولم يكن يملك من مال الدنيا شروى نقير. ولا هو يدري، الآن، كيف تمَّت المعجزة. إنه لم يكن يظنّ أبداً أنه سيتزوَّج في يوم من الأيام، هو الذي عاش أيام صباه منبوذاً محتقراً من أهله مجفوّاً من الحسان، يتَّهمه كل أحد بالغباء والخيبة. وطالما ترنَّم وهو يخوض الماء في لذعة البرد، عاري الرأس، عاري الصدر:

«الدنيا بتْهينك والزمانْ يوريكْ

وقل المالْ يفرقكْ من بناتْ واديك»

غير أنه تزوَّج، ولبس حريرة العرس، وتمسَّح بالدلكة، ووضع على رأسه «الضريرة»، وأحاطت به الصبايا يهزجن بالأغاني. ولكن شعر بالعظمة والكبرياء وقتها. كل ذلك بعد غرسه النخلة بستّة أشهر. وفي العام التالي ولدت زوجته بنتاً سمّاها آمنة تيمُّناً بمقدمها، ووفاءً لذكرى جدّته التي كانت تعطف عليه من بين أهله جميعاً. وحينما وصل به تيّار الذكريات إلى مولد آمنة، ترقرق في عينيه الدمع. أين، الآن، آمنة؟ إنها زوجة لابن أخته

الـذي حملهـا إلـى أقاصـي الصعيـد فـي الجزيـرة، وقـد كانـت تبـرّه وتعطـف عليـه.

ليـت حَسَـناً كان، مثلهـا، عطوفـاً بـاراً! حسـن! وعـضّ الرجـل علـى شـفته السـفلى بعنـف حتـى كاد يغـرس أسـنانه فـي لحمهـا المتهـدِّل.

حسـن ابنـه الوحيـد، سـافر قبـل خمسـة أعـوام إلـى مصـر، ومـن وقتهـا لـم يرسـل لهـم حتـى خطابـاً واحـداً يطمئنهـم فيـه عـن صحَّتـه. لقـد حـاول الرجـل جاهـداً أن ينسـاه، ويمحـوه مـن ذاكرتـه، ويعـدّه مـن الأمـوات. وكانـت زوجتـه تبكـي كلمـا ردَّد محجـوب فـي صـوت حزيـن متهـدِّج بيـت (الدوبيـت) الـذي كان لـه خيـر سـلوى كلّمـا جاشـت بنفسـه الذكـرى، وكلمـا تمثَّـل ابنـه طفـلاً صغيـراً حلـواً يبـول فـي حجـره، ثـم صبيـاً يسـاعده فـي أعمـال السـاقية، ثـم شـاباً يافعـاً يشـبّ عـن الطـوق، ويهجـر الأهـل والـدار، وينسـى حقـوق الأبـوّة، ولا يسـأل عـن الأحيـاء ولا الأمـوات. أجـل ـ واللـه ـ «الـزول أن أبـاك خليـه واقنـع منـه، وكـم للـه مـن دفـن الجنـى وفـات منـه».

وكأن القـدر أراد أن ينسـيهم كل شـيء يربطهـم بحسـن، فرمـى آخـر مـا فـي جعبتـه مـن سـهام قاسـية مسـمومة ظـلّ يسـدّدها منـذ عاميـن تباعـاً دون توقُّـف، وأصـاب السـهم الأخيـر النعجـة «البرقـاء» التـي ربّاهـا حسـن، وجمـع لهـا الحشـيش وأشـركها طعامـه وأنامهـا فـي فراشـه. ماتـت ومـا عـادت تثغـو فـي بكـرة الصبـح حيـن كان حسـن يقفـز نشـيطاً خفيفـاً مـن فراشـه فيطعمهـا ويسـقيها ويأخذهـا معـه إلـى السـاقية، ترعـى وتمـرح وتتلـف الـزرع ريثمـا يفـرغ هـو مـن عملـه.

ماتـت، وكذلـك اجتـاح المحـل والقحـط كل القطيـع الـذي ربّـاه شـيخ محجـوب.

ثـم رفـرف طائـف مـن السـعادة علـى الوجـه الخشـن المجعَّـد، وجـه محجـوب، وغابـت المـرارة الـى أحدثتهـا ذكـرى حسـن عندمـا تذكَّـر الرجـل قطيـع الضـأن الـذي ربّـاه فـي العـام ذاتـه الـذي شـهد مولـد آمنـة. قطيـع كامـل مـن نعجـة واحـدة اشـتراها بمـا تجمَّـع عنـده مـن ثمـن حيضـان البصـل. كان يعاملهـا كمـا يعامـل أبنـاءه، يحلـب لبنهـا بنفسـه ويكـوِّم القـش فـي مراحهـا ويفـكّ لهـا صغارهـا، ويلبـث السـاعة والسـاعتين يداعبهـا وينظِّـف وبرهـا، وتغمـره السـعادة وهـو يشـاهدها تناغـي صغارهـا وتشـرب المـاء المخلـوط بالدريـش. وتتناطـح فيمـا بينهـا. كان يطلـق عليهـا الأسـماء كمـا يسـمّي النـاس أطفالهـم، يعـرف كل واحـدة منهـا بسـيماها: ذات الذيـل الأبيـض. وذات البقعـة السـوداء علـى أم الظهـر كسـرج الدابّـة، والخـروف ذو القـرون المكسـورة، والخـروف ذو القـرون الملتويـة.

وبعـد عاميـن مـن زواجـه اشـترى عِجْلـة صغيـرة عجفـاء والاهـا بالرعايـة والحبـوب حتـى اسـتوت بقـرة جميلـة كحيلـة العينيـن لهـا غـرة فـي جبينهـا تجرّ السـاقية وتـدرّ اللبـن. وفـي أثنـاء ذلـك أثمـرت نخلـة الجـدول، أوّل شـيء يمتلكـه فـي حياتـه.

وسـارت الحيـاة رغـداً كأنمـا اسـتجاب اللـه دعـاءه يـوم شـقّ فـي الأرض علـى حافـة الجـدول وغـرس النخلـة. لقـد اسـتغنى عـن أبيـه، وبنـى لفنسـه بيتـاً يؤويـه مـع عائلتـه، وصـار ثريّـاً يعـدّ المـال مثـل أي

تاجر، يجلس في السوق منتصباً تملأه الثقة أمام كوم الذرة. يكيل منه للمشترين وينتهر زملاءه غير هيّاب ولا مكترث. وصار يلبس النظيف، ويأكل الطيب، وينام على الفراش الليِّن، ويتدثّر في برد الشتاء ببطانية ثقيلة من الصوف أنفق فيها جنيهين.
وحينماكان الناس يتبرَّعون في الأعراس بخمسة قروش كان يتبرَّع هو بعشرة، وبزجاجة مليذة من سمن الضأن النقي، وكِيْلةً من أجود أنواع التمر «القنديل»، حتى لُقِّب بـ(الظريف) بعد أن كان يلقب بـ(الغبي). ولولا تعلُّقه بزوجته لتزوَّج بنتاً بكراً يتهافت عليها خيرة شبّان البلد.
كل هذا عفّى آثاره الزمن. لقد مات الزرع، ويبس الضرع، وعَمَّ القحط فأغرق الرخاء، وحبا الشيب فطغا على الشباب، وكان النيل يفيض بين ضفتيه زاخراً موّاراً، يسقي الأرض ويخرج ما في باطنها من الخير، فما عاد يفيض إلا بحساب ومقدار. أتراها الخزانات التي أقاموها عليه فحجزت الماء؟ أم تراها نبوءة الشيخ ود دوليب تحقَّقت؟ لقد أنذر الناس في يوم من الأيام أنه سيأتي عليهم يوم، يصير فيه اللبن كثيراً تافهاً مثل الماء، وتصير كيلة الذرة بقرشين، ويصبح ثمن النعجة ريالين. ولكن الناس ـ كدأبهم أبداً ـ سيضيقون بهذا الخير، وسينهمكون في الغيّ، وينسون الله فيأخذهم الله بذنوبهم، وفكَّر شيخ محجوب برهة. وحدَّث نفسه بأنه لم يرتكب كثيراً من المعاصي. صحيح أنه كان يشرب الخمر أحياناً ويرقص في الأعراس ويخالس

الحسان النظر على غفلة من أم حسن. ولكنه لم يؤخِّر فرضاً، ولم يهتك عرضاً، ولم يفعل شيئاً من هذه المعاصي التي يقول فقهاء القرية إنها كبائر تُغضِب الله. لابدَّ أنه الكبر الذي فَتَّ من عضده وأرخى من مفاصله. فما عاد يحتمل لذعة البرد ولا قائظ الحَرّ. ولم يكن حريصاً على ما عنده من خير، فبدَّده أوّلاً بأوّل. وفي غمرة أتعابه ومريرة شيخوخته هجره ابنه حسن، وهو أحوج ما يكون إلى ساعده الفتي. وهكذاظلَّ محجوب يكابد الفاقة وحده، فاستدان ورهن وباع. وليس عنده اليوم من مال الدنيا إلا بقرة واحدة وعنزتان وهذه النخلة التي ظلَّ جاهداً يحاول استبقاءها.

وقطع عليه ذكرياته نهيق حمار التاجر، وصوت صاحب الحمار وهو يقول له: «يا راجل أنت ساكت زيّ الأبله، مالك؟ ما تدّينا كلمة واحدة خلّينا نمشي؟» وكان رمضان قد جاء من طرف الساقية، وقال لمحجوب إن عشرين جنيهاً ثمن معقول، خاصة وهو أحوج ما يكون إلى المال. وفكَّر الرجل برهة متردِّداً بين الرفض والقبول: عشرون جنيهاً يستطيع أن يحلّ منها دينه، ويشتري ضحيّة العيد، ويكسو نفسه وأهل بيته.

ولكن ريحاً قوية هبَّت تتلاعب بجريدة النخلة، فأخذ يوشوش ويتعارك ويتلاطم كغريق يطلب النجاة. وبدت النخلة لمحجوب، في وقفتها تلك، رائعة أجمل من أي شيء في الوجود. وهفا قلبه لابنه في مصر. ترى هل يحنّ لنداء الرحم؟ هل تؤثِّر في

قلبه الدعوات التي أرسلها محجوب في هدأة الليل؟ وأحسّ الرجل بفيض من الأمل يملأ كيانه ويطغى على إحساسه، وترقرق في عينيه دمع حبسه جاهداً، وتمتم: «يفتح الله. أنا تمرتي ما ببيعها» وردَّد الرجل في نفسه: «يفتح الله»، وقاده ذلك إلى التفكير في سورة الفتح من القرآن الكريم: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» ـ الفاتحة ـ الفرج.

وأحسَّ ـ لأول مرة ـ بأنَّ في عبارة «يفتح الله» شيئاً أكثرمن كلمة تنهي بها المبايعة، وتقفل الباب في وجه من يريد الشراء. إنها مفتاح لمن أعسره الضيق، وأمضَّه البؤس، وأثقلت كاهله أعباء الحياة. وما كان أحوج محجوب إلى الفتح والفرج حينئذ!.

وجذب التاجر عنان حماره في صلف، ثم همز بطن الحمار بكعب رجله، وقال في صوت بارد كوقع الصوت: «يفتح الله، يفتح الله، باكر بتجي تدوِّر الدين».

وقبل أن ينطلق الحمار بعيداً أبصر محجوب ابنته الصغيرة تهرول نحوه مضطربة فرحة، فتحرَّك في قلبه أمل بدا عسيراً مستحيلاً أبعده عنه، ولم ينتظر الطفلة ريثما تصل، بل أسرع نحوها يسألها عن الخبر: «شنو؟ مالك؟ وحاولت الصبية أن تفضّ إليه النبأ بصوت متكسِّر ألثغ: «الناس.. دالو ود ست البنات دا من مصر.. وداب لنا معاه دواب من حسن أخوي».

جواب من حسن؟ وانطلق الرجل كالمجنون لايفكِّر ولا يعي، ينبض قلبه معربداً بين جنبيه. يطغى الأمل بين حناياه مرّة على

اليأس، ويفيض اليأس تارة فيغرق الأمل، وابنته الصغيرة تمسك بطرف ثوبه المتَّسخ، تسرع جاهدة لكي تمشي معه، وهي في أثناء ذلك ذلك تتباكى محتجّة على خطوات أبيها المسرعة.

وفي بيت «ناس ست البنات»، انتظر محجوب بين صفوف المستقبلين، وفي غمرة اضطرابه لم يفت عينه المستطلعة رجال يعرفهم جاؤوا يسألون عن أبنائهم وأقاربهم، نسوة يعرفهن جئن يسألن عن أزواجهن وأبنائهن. كلهم آمال مثل آماله، تجاذب اليأس ويغالبها اليأس، ولم تخطئ عينه الشاب الذي عاد من مصر، ود ست البنات يرتدي ملابس نظيفة ككلّ عائد من السفر، ويتكلَّم لهجة غريبة على شيخ محجوب، بادي الثقة بادي الكبرياء. وأخيراً لمح الشاب شيخ محجوب بين المستقبلين فدلف نحوه مبتسماً، وشعر الرجل بالضيق والحرج، إذ تحوّلت كل الأبصار نحوه. ولم يعِ شيخ محجوب من كلام محدِّثه إلا «حسن مبسوط ـ قال لك تعفي عنه. أرسل لك ثلاثين جنيه وطَرْد ملابس».

وفي الطريق إلى بيته تحسَّس الرجل رزمة المال التي صرَّها جيداً في طرف ثوبه. ثم غرس أصابعه في الطرد السمين تحت إبطه، وانحدر طرفه من علٍ إلى غابة النخل الكثيفة الممتدّة عند أسفل البيوت. وتميَّز في وسطها نخلته، ممشوقة متغطرسة جميلة تتلاعب بجريدها نسمات الشمال، وخُيِّل إليه أن سعف النخلة يرتجف مسبِّحاً: «يفتح الله، يفتح الله».

# المقاعد الأمامية

## الزبير علي

كان ذلك اليوم هو اليوم الأخير والحفل الأخير لعرض فيلم «محاكمات نور مبرج». دار السينما مكتظفة بالروّاد حتى لم يبق موضع لمتفرِّج جديد ولكن، رغم ذلك فقد كانت الصفوف المتراصّة أمام شبّاكَي الدرجتين الأولى والثانية تزحف في بطء قاتل نحو الشبّاكين، والجميع في شوق وتلهُّف للوصول وشراء التذاكر قبل نفادها.

ـ ده اليوم السابع والأخير والزحمة بالشكل ده؟ أنا خايف الشبّاك يقفل قبل ما أصل، ونبقى اتحرمنا من التحفة دي.

ـ والله يظهر ده الحيحصل.. ردَّ عبدالله وهو يتبع «علي» خارج الصفّ، ويتقدّم معه كلّما تحرّك خطوة إلى الأمام.

كانت الصالة الأنيقة البيضاوية الشكل تضيق بمن فيها، وقد أصبح جوّها خانقاً لزجاً رغم المراوح العديدة المثبَّتة في السقف، والتي كانت تدور وتدور في سرعة فائقة، ولكن بلا جدوى، فقد كانت كمية الهواء النقي الذي تشتنشقه عشرات الرئات التي تكتظّ بها الصالة وتحيله إلى هواء فاسد محترق أقلّ بكثير مما يكفي لكل هذا العدد.

وخرج واحد فقط من صفّ الدرجة الأولى ممسكاً بتذكرته

في يده، فتحرَّك الباقون نصف خطوة إلى الأمام كأنهم يريدون أن يقنعوا أنفسهم بأنهم أصبحوا أقرب الآن من الوصول إلى الشبّاك.

وتململ علي وهو وينظر إلى مقدّمة الصفّ، وعبدالله يتبعه كأنه يشجّعه في لعبة شدّ الحبل، وفجأة حدث هرج ولغط، وخرج الجميع من الصف وتجمهروا أمام الشبّاك الذي كان قد أوصِد ووضعت أمامه لافتة صفراء كريهة (كامل العدد).

وتدافع علي مع الآخرين ليأخذ مكانه في مؤخِّرة صفّ الدرجة الثانية. إن مقاعد الدرجة الثانية ليست مرقَّمة ولا منتظمة، ولكن ليس هناك مجال للاختيار فالفيلم تحفة حقيقية، وهذه هي الحفلة الأخيرة، ولا يدري أحد متى يعاد عرضه مرة أخرى، وواصل علي التقدُّم البطئ في الطابور، وعبدالله يتبعه آليّاً، وعيناه تلتهمان لوحات الصور المعلَّقة على جدران الصالة البيضاوية لأفلام جديدة، معظمها لم يصل السودان بعد.. كان بين علي والشبّاك أكثر من عشرة أشخاص عندما أُغلِق، ووضعت أمامه أيضاً لافتة كريهة أخرى (كامل العدد)، وباءت بالفشل محاولات علي وعبدالله للدخول بأيّة وسيلة. حتى تذاكر السوق السوداء نفدت عن آخرها، وبوجه متجهِّم كان علي يسير نحو سيّارته «المرسيدس» وبجانبه عبدالله، عندما هتف عبدالله بغتة وتوقَّف عن السير:

ـ اسمع ـ يا علي ـ فكرة. ممكن نشوف الفيلم وما نضيع

الفرصة.. وبدون حماس رَدَّ علي: فكرة شنو يا عبدالله؟ يا أخي في طريقة ما جرَّبناها عشان ندخل؟ وقال عبدالله وكأنه يستجمع أطراف شجاعته

ـ ندخل شعب!

ـ قلت شنو يا علي؟

ولم يردّ علي، ولكنه واصل سيره حتى وصل العربة، وهَمَّ بفتح بابها عندما لحق به عبدالله.

ـ أنا بفتكر دي الطريق الوحيدة الممكن نشوف بيها الفيلم ده.

ورَدَّ علي في امتعاض:

ـ إذا كانت دي الطريقة الوحيدة اسمح لي أنا، ما عايز اخشّ وما مستعدّ اتعرَّض لي بهدلة ومرمطة ومضايقات ما ليها أوّل ولا آخر.

ـ ياخي المسألة ما زيّ ما بتصوّرها، الحاجة الثانية كلّها ساعتين ونصف الساعة أو تلاتة، ومش خسارة إنك تحتمل أي مضايقة عشان تشوف فيلم زيّ ده.

ـ ما قادر أتصوّر إنّي أخش شعب أبداً، وافرض شافونا ناس من معارفنا، يقولوا علينا شنو؟

ـ يقولوا شنو يا علي؟ هو نحن عملنا حاجة عيب؟ ايه الشيء المخجل في دخولنا شعب؟ أنت زمن كنت طالب ما كنت بتخشّ شعب؟

ـ أيوه.. بس الزمن دك ودلوقت المسألة مش واحدة..

ولـم يتـرك عبدالله علـي إلا بعـد أن تبعـه نحـو بـاب الدخـول للدرجـة الثالثة.

كانـت جميـع الأضـواء قـد أُطفئـت والقاعـة تسـبح فـي الظـلام، ولـم تبـق إلا اللافتـات الحمـراء المضيئـة التـي تشـير إلـى أبـواب الدخـول والخـروج، فقـد كان العَـرَض قـد بـدأ.

لأوَّل وهلـة كان يُخَيَّـل للداخـل أنـه لا مـكان لجلـوس أي وافـد جديـد، ولكـن بعـد أقلّ مـن دقيقـة كانـت الصفـوف الطويلـة المظلمـة تبتلـع كل الوافديـن، وتسـتعدّ لاسـتقبال روّاد جدد.

مـن الدقائـق الأولـى شـعر علـي ببدايـة المضايقـات، فزيـادة علـى صلابـة الكنبـة ومسـندها غيـر المريـح كان يجلـس أمامـه شـخص ضخـم لا يـكاد يهـدأ لحظـة واحـدة مـن الميـل نحـو الجالـس بجـواره متحدِّثـاً بصـوت مسـموع، وطـاف، ببصـره، فـي حسـرة حيـث يجلـس روّاد المقاعـد الخلفيـة فـي هـدوء واطمئنـان، وتمنّـى لـو كان بينهـم. وأشـعل أحدهـم سـيجارة ذات رائحـة نفّـاذة، لا تخطئهـا الأنـف فتملمـل علـي وهمـس فـي أذن عبداللـه:

ـ بقى دي حالة؟ وده جوّ الواحد ممكن يستمرّ فيه لأقل فترة؟

ـ ياخي طول بالك، وما تشغل نفسك بالحاجات دي.

وأقبـل صبـي البوفيـه حامـلاً صينيـة كبيـرة مليئـة بأكـواب الشـاي الأحمـر السـاخن، وأخـذ يختـرق الصفـوف ويتمايـل بهـا فـي طـرب، ويتبـادل النـكات والمداعبـات مـع الـروّاد وهـو يمـدّ لهـم أكـواب الشـاي، وعندمـا اقتـرب مـن علـي تـرك علـي متابعـة العَـرَض وأخـذ

يتلفَّت في قلق نحوه، فقد كان يتوقَّع في أي لحظة أن يتعثَّر الصبي بشيء أو يفقد توازنه فيسكب كل محتويات أكوابه على رأسه وجسمه.. وهمس علي في أذن عبدالله:

ـ غايتو.. المرة الأولى والأخيرة ندخل هنا. وتشاغل عبدالله بمتابعة العَرَض دون أن يردّ، وحدثت أكثر من مشاجرة صغيرة بين الروّاد، وكانت الأصوات ترتفع وتعلو، ويقف واحد واثنان وعشرة، ويتدخَّل الجميع فتنتهي المشاجرة لتبدأ من جديد في مكان آخر وتنتهي بنفس الصورة.

كان عرض الإعلانات قد بدأ، وكان هناك نموذج لمنزل في غاية الأناقة والروعة، والمعلِّق ينصح باستعمال نوع معيَّن من الطلاء للأثاثات، عندما صاح أحد الرواد بأعلى صوته مداعباً صديقاً له يجلس غير بعيد منه:

ـ زمبة.. دي زي بيتكم تمام يا زمبة!!

وانفجر الجميع في ضحك من القلب، وشعر علي برغبة شديدة في الضحك، ولكنه بذل مجهوداً كبيراً ليحوِّل ضحكته إلى ابتسامة صغيرة، وتوالى العَرَض، وبدأ التمهيد لعرض الفيلم. كان الاهتمام قد بدا جلياً على روّاد الدرجة الثالثة لأوّل مرة منذ دخولهم، فقد بدأوا يعدّلون في جلساتهم، وأخذ الذين يلبسون العمائم يخلعونها، وبدأ صخبهم وضجيجهم يخفتان رويداً رويداً حتى تلاشيا تماماً عند بداية الفيلم. لا نأمة ولا تعليق ولا صوت إلا نادراً جداً، وكلما كان الموقف في الفيلم موقفاً قوياً ومؤثِّراً

كان الصمت والهدوء شاملين، وانسجم على مع الفيلم، وكاد ينسى أنه يجلس في مقاعد الشعب حتى يتذكَّر ذلك بعد فترة إثر تعليق ساخر يطلقه أحد الرواد فيضجّ الباقون بالضحك.

وعندما انتهى عرض الفيلم قال عبدالله وهما في طريقهما إلى السيارة المرسيدس:

ـ إيه رأيك ـ يا علي ـ لو نجي يوم تاني كمان نخش شعب؟؟

وابتسم علي ابتسامة خفيفة دون أن يردّ وأدار محرِّك السيارة.

# الأرض الصفراء

الطيب زروق

منذ يومين فقط كانت خطواته فيها كثير من الحيوية والنشاط. لم يكن جسمه يعرق كثيراً هكذا.. بضع حبات فقط من العرق كانت منتشرة في أجزاء متفرِّقة من جسده الطويل المشدود الذي يشبه المومياء، وانفاسه لم تكن بأي حال لاهثة مضطربة كما هي الآن. والأوردة الكثيرة المتشابكة في ذراعيه لم تكن هكذا منتفخة بدمه الأزرق مما جعلها تبدو كأمعاء حيوان صغير. وأمّا ثوبه المتلفِّح به فلم يكن شديد القذارة بهذه الدرجة. نعم، كان قذراً بما فيه الكفاية. ولكنه ـ على الأقلّ ـ كان أنظف كثيراً مما هو عليه الآن. التراب الذي تراكم على وجهه الطويل جعله قبيحاً وقذراً: العينان محاطتان بهالتين من التراب الأصفر الناعم، والشعيرات القليلة في فتحتي الأنف اكتسبتا لوناً بين الأصفر والبني. والشفتان لم تخلُ واحدة منهما من التشقُّق. وكان الدم المتجمِّد من تشقُّق الشفة السفلى يرسم منظراً كريهاً عليها وعلى الوجه المستطيل الجاف الذي لم تمسّه قطرة واحدة من الماء منذ أكثر من يومين. جدار البطن الأمامي كان جافاً متكرمشاً مثل جلد الثعبان المسلوخ، وقد أوشك أن يلتصق

بالجدار الخلفي للبطن، ونتج عن ذلك تجويف كبير يثير التقزُّز. وكانت هناك ابنته، صغيرة جداً وقذرة مثله، ولكنها كانت حلوة. لم يزد عمرها على الثلاث سنوات، وكانت ساقهااليمنى مربوطة بقطعة كبيرة من القماش في لون التراب، ولكن، في أجزاء كثيرة منها، كان يلطخها دم أحمر كثير.

كان يحملها على كتفه وهو يمشي: وجهه صارم، فيه قسوة، وعيناه غائرتان وقد أوشكتا على الاختفاء داخل تجويفهما، الأنف المستقيم كان مرفوعاً إلي أعلى في كبرياء عجيب، كان ينظر إلى الأمام ويمشي ويمشي، وابنته المحمولة على كتفه كانت تبكي في صوت خفيض للغاية. فالجوع كان قد شلَّ كل حركة فيها. حتى الرغبة في البكاء كان من غير الممكن أن تستجيب لها. والدم النازف من جرح ساقها كان يعذِّبها عذاباً متَّصلًا، ولم يكن هناك شيء يمكن أن تفعله، أو يفعله أبوها. الأرض الجرداء المنبسطة، والتلال الكثيرة التي كان يمرّ بها، والأعشاب الجافة التي كان يدوس عليها بقدميه الداميتين، واختفاء كل أثر من آثار الحياة في تلك البقعة... كل ذلك كان كفيلاً بأن يحطّ كل بارقة أمل تجد سبيلها إليه. ولكنه مع ذلك كان عظيم الأمل. لو لم تكن معه هذه الصغيرة لهانَ الأمر كثيراً. القيظ لم يرحمها، والأرض التي تفور وتغلي تحت أقدامه كانت تجعله يسرع في السير. لم تكن هناك شجرة يحتميان بظلها للحظات يتابع بعدها السير.. مجرد شجيرات صغيرة هنا وهناك

تحيـط بهـا الأشـواك مـن كل جانـب، شـجيرات لا ظـلّ لهـا. كان الخـلاء يمتـد أمامـه إلـى مـا لا نهايـة، لا أثـر للحيـاة، ولكنـه كان يسير والصغيـرة علـى كتفـه تئـنّ فـي صـوت حزيـن للغايـة، ولكـن عينيهـا أصبحتـا كرتيـن مـن الدمـوع. لـم يفتـح أحدهمـا فمـه بكلمـة واحـدة منـذ صبـاح الأمـس، لـم يكـن هنـاك مـا يرجـى مـن الـكلام. ولكنهـا قالـت فجـأة:

ـ يابا.

ولـم يفتـح فمـه، كان يمشـي.. لعلّـه يسـمعها. كانـت أنهـار العـرق قـد ازدادت وأخـذت تسـيل علـى صـدره فـي غـزارة.

ـ يابا.

وسـمعها هذه المرّة. وعادت هي تقول:

ـ مـا خلاص، وصلنا يابا؟

وأجابهـا بعـد مجهـود ضخـم، إذ إن لسـانه كان جافّـاً. وهـو نفسـه لـم يكـن يرغـب فـي الـكلام.

ـ خـلاص يا بنتي.. قرّبنا.

تابـع السـير فـي خطـوات بطيئـة؛ إذ إن الإجهـاد كان قـد أنهكـه إلـى حَـدّ كبيـر. كان يحـسّ أنـه لـن يقـوى علـى السـير بعـد ذلـك، ولكـن كان عليـه أن يسـير حتـى لـو سـقط ميتـاً. التوقُّـف لحظـة واحـدة معنـاه التعجُّـل بموتهمـا معـاً. كان يعـرف تمامـاً، وكان يعـرف أن الطفلـة التـي يحملهـا علـى كتفـه ميتـة لا محالـة، والدمـاء تنـزف مـن جرحهـا الكبيـر الملـوَّث.

ومضت دقائق كثيرة توقَّف بعدها عن السير فجأة.

توقَّـف عـن السـير، وفتـح عينيـه اللتيـن كانتـا نصـف مغمضتيـن، فبـانَ فيهمـا ثمّـة بريـق، وحـدَّق أمامـه وقـد سرت فـي جسـده رعشـة، وكان فمه الجاف الملوَّث بالـدم والتـراب مفتوحاً قليـلاً في دهشـة، وابنتـه المعلَّقـة فـي كتفـه كانـت تسـأله عـن سـبب هـذا التوقُّـف، ولكنـه لـم يكـن يسـمعها أبـداً، كان ينظـر إلـى الأمـام غيـر مصدِّق. لـم يكـن يخطـر ببالـه أن سـوف يجـد أمامـه، وعلـى بعـد خطـوات، ذلـك المنـزل، ذلـك الكـوخ الخَـرِب الـذي يـراه الآن حقيقـة كبيـرة لا تقبـل الشـكّ إطلاقـاً. منـزل؟ منـزل؟ كان الأمـر فـوق إدراكـه وتصـوُّره.

وتابـع السير هـذه المـرّة فـي خطـوات جبـارة، وقـد انتابتـه حمّـى الانتصـار، وسَـرَت روح جديـدة متوثِّبـة فـي جسـده الميِّـت. وابتـلَّ فمـه باللعـاب وهـو يبصـر عمـوداً طويـلاً مـن الدخـان ينطلـق مـن إحـدى فتحـات المنـزل.

وقـف أمـام البـاب الصغيـر الـذي صُنِـع مـن سـيقان الأشـجار وجلـود البقـر، ولـم ينتظـر. كان البـاب مفتوحـاً، وأطـلَّ منـه رأس رجـل شـديد القـذارة منكـوش الشـعر، وقـد نبـت شـعر كثيـف فـي أجـزاء متفرِّقـة مـن ذقنـه الملطّخـة بالهبـاب:

ـ نعم.

وأجاب الرجل: ضيف..

ولـم يقـل صاحـب البيـت شـيئاً، أخـذ ينظـر إلـى الرجـل والطفلـة

المحمولـة علـى كتفـه، ثـم تنحّـى قليـلاً عـن مدخـل البيـت وهـو يقـول:

ـ ادخل.

ومـن داخل البيت جاء صوت امرأة:

ـ منو ده؟

وأجاب زوجها:

ـ ضيف.

وجـاءت المـرأة وصوتهـا القبيـح يسـبقها ويفسـح لهـا الطريـق. كل شـيء فيهـا كان يوحـي بالشـر: الأنـف الطويـل المعقـوف الـذي لا يتناسـب بـأي حـال مع الوجـه المسـتدير ذي القـروح الكثيـرة التـي التـأم بعضهـا، فنتـج عـن ذلـك ندبـات شـدَّت جلـد أحـد جانبـي الوجـه، لدرجـة صـار معهـا النصـف الأيمـن مـن الفـم مفتوحـاً تبـرز منـه أسـنان قبيحـة، وبـدت العيـن اليمنـى أكثـر اتِّسـاعاً وجحوظـاً مـن العيـن اليسـرى. كانـت هيئتهـا علـى العمـوم توحـي باللـؤم والقسـوة. قالت:

ـ من وين؟

وأجاب الرجل:

ـ من التكة.

ـ هـ ـ م؟

ـ الجمـل مات في الدرب. قاصدين المديرية.

وتناولـت المـرأة كـوزاً ملأتـه بالمـاء وأعطتـه للرجـل. أمسـك الرجـل

بكـوز المـاء وناولـه لابنتـه التـي شـربت كل مـا فيـه عـن آخـره، وصبـت المـرأة المـاء مـرّة أخـرى حتـى منتصـف الكـوز وناولتـه للرجـل. كان المـاء قليـلاً لا يكفـي لبَـلّ حلقـه ولكنـه شـربه، وطلـب المزيـد، ولكـن المـرأة هـزَّت رأسـها:

ـ ما في .. لينا يومين عايشين على الموية، الصيد قلّ.

وكان زوجها يهزّ رأسه من حين إلى آخر، وهو ينظر إلى الرجل وطفلته. أما امرأته فقد بدا عليها التأثّر والحزن. وحقيقة لم تكن هناك أية علاقة بين قبحها وهيئتها التي تدلّ على القسوة وبين مظاهر الحزن الطيبة التي بدت عليها الآن. كان ذلك القبح قناعاً خادعاً يخفي أشياء كثيرة حسنة تتمتَّع بها هذه المرأة.

وغادرت المكان إلى داخل البيت في سرعة، وكأنها تذكَّرت شيئاً، وغابت لمدّة دقائق، ثم عادت وهي تحمل في يديها بعض الكسرة الناشفة وقدمتها للرجل وهي تقول:

ـ ده اللي فاضل لينا.

وتناوله الرجل وأعطى صغيرته، وأخذا يأكلان الخبز الجافّ.

وعندما غادرا البيت تلقَّفتهما الشمس المحرقة مرّة ثانية، وكانت الطفلة على كتفه، وكان وهو يسير ينظر إلى الأمام، والأرض الصفراء تمتدّ أمامه، تغلي وتفور من شدّة القيظ.

# كرسي القماش

علي المك

اعتدت أن تختلف إلى مكتبك كلّ صباح. مثل الساعة الدقيقة أنت تفد إلى المكتب في الثامنة من الصباح. في الشتاء كما في الصيف، ولم تغيِّر عادتك تلك أبداً. حين كنت تعمل في الدامر أو الفاشر أو في كسلا.. حقاً أنك قد خبرت أكثر أقاليم بلادك، ولكنك لا تعرف ما هو الفرق. النهار في المكتب، والمساء في النادي.. وهناك دائماً تاجر وزملاء وجزّار وحلّاق، ورئيس صارم أو غير صارم و.. و..

وها هي العاصمة: موطنك. عدت إليها بعد طول تجوال، عملت فيها سنة أو بعض سنة حتى أدرَكك المعاش. تقول أدركك المعاش، كما يدرك الموت الناس. أَوَ ليس المعاش كالموت؟ ألا يعني أن خدمتك قد انتهت، وكما تنتهي الحياة؟ أو ليست الحياة هي العمل؟ هذا أوّل أيّام الإجازة الأخيرة، ولن تستيقظ بعد الآن مبكِّراً، ولن تمضي إلى المكتب فتكون فيه في الثامنة، لفرط ما جرت بك عربات التاكسي حفظت كل ركن فيه: الشارع، أعمدة النور، ومقهى (جورج)، وإعلانات السينما. وهي المتغيِّرة دائماً، وكل شيء عداها ثابت. ثابت كل شيء،

وكوبـري النيـل الأبيـض. آه، مـا أجمـل الإغفـاء فـي السيارة حيـن تصعـده جريـاً، ويعتـدل الهـواء حيـن يصافـح صـدر النهـر، ويغشـاك رطبـاً منعشـاً، ويسلمك إلـى النـوم. لقـد كبـرت وليـس عنـدك سيـارة. البركـة فـي البيـت.. ومـاذا ستعمل الآن؟

«مع السـلامة يـا سيِّد فضـل.. واللـه تعلمنـا منـك الكثيـر، سـنفتقدك كثيـراً». قـال زميـل فـي المكتـب، وأنـت تعلـم أنـه كاذب، فمستقبله فـي الخدمـة معقـود علـى تقاعـدك بالمعـاش. ياللنفـاق! وهـل أخفـى ابتسـامته الخبيثـة ابـن الــ...؟ ولكـن المعـاش هـو المـوت يدرككـم جميعـاً، ولـكل أجـل كتـاب، وهـذا هـو العـزاء. وأنـت أيضـاً كاذب، ولـو كنـت تؤمـن بهـذا الـكلام مـا غضبـت، ولقبلـت كلامـه بـروح سـمح.

وهــل كنــت محبوبــاً ياسـيِّد «فضــل»؟ أتذكــر الصرامــة والحــزم وسؤالك الملحّ أبـداً: «لمـاذا تأخَّـرت؟ هـل نمـت؟ آه، هـواء الصباح عليـل يلـذّ فيـه النـوم؟ أم أن الخمـر كانـت قويـة الليلـة الماضيـة؟». وكان مثـل هـذا الـكلام يغيـظ الأفنديـة، ولكنهـم يسـكتون خشـية عقـاب، وأنـت نفسـك تخشـى المديـر، كل سـيِّد ولـه سـيِّد، حيـن كان يطـلّ عليـك أو يسـتدعيك تتصبـب عرقـاً وتجـفّ، آه يـا «فضـل» حقـاً قـال لـك «سـنفتقدك يـا سـيِّد فضـل»؟ ابـن الــ... هذاالرجـل لا يحسـن كتابـة خطـاب أو مذكِّـرة، ولـم يعمـل مـع السـلف الصالـح مـن الإنجليـز. يـا سـلام، تذكـر سـمث وجونـز ورانـدل.. واللـه لا يهـمّ طالمـا كانـت الخدمـة كلهـا صائـرة إلـى انهيـار كامـل. وأيـن نحـن

مـن أيـام (السـلف الصالـح)؟ هاصـت واللـه، وأصبـح سـادتها أولاد الجامعـات «لـكل زمـان رجـال يـا سـيدّ فضـل»، كان ذلـك الشـاب يقـول لـك هـذا دائمـاً، هـو فـي مثـل سـنّ ابنـك، ولكنـه متعلّـم، وأيّ علـم؟ نـوم فـي المدينـة الجامعيـة وعـدس وفـول وجلـوس فـي المـدرَّج أو فـي المقهـى، ودرجـة جامعيـة، ثـم تراهـم يقفـزون سـلّم الوظائـف قفـزاً.. دنيـا واللـه دنيـا. وهـل مَـرَّ زمـان كنتـم سـادته يـا سيِّـد فضـل؟ مـن قبـل هـؤلاء الإنجليـز حتـى إذا خرجوامـن البـلاد جـاء أولاد الجامعـات.

تـدرك أن الشـمس فـي مدينـة (أم درمـان) هـي النـار المحرقـة، بعـد الثامنـة مـن الصبـاح تغلـي البيـوت بفعـل الشـمس فـلا تطـاق، ويلتمـس النـاس المكاتـب ذات المـراوح ومكيّفـات الهـواء، ليـس حبّـاً فـي العمـل والانتظـام فيـه، بـل هـم ينشـدون الهـواء البـارد والاسـتجمام. تحـس ـ ربّمـا، لأول مـرة ـ أن البقـاء فـي هـذه البيـوت هـو المـوت، وعليـك أن تبقـى فـي جوارهـا: أم العيـال. أليـس فـي العمـل رحمـة؟ هـذه المـرأة الولـود الخصيبـة كأنهـا دلتـا النيـل! إن لـم لـم يكـن هنـاك مـن حَـلّ فالأجـدر أن تجلـس فـي الظـلّ علـى الشـارع، وتطالـع صحـف الصبـاح، وترقـب السـابلة والعربـات تجـري وتجـري ولكـن، لأيّـة غايـة؟

حينمـا أخرجـت كرسـي القمـاش مـن المخـزن ونفضـت عنـه غبـار

السنين، كانت ذرّات التراب تذكِّرك بأيام (الفاشر)( 1) حيث كان صُنْعُه وخمسة كراسٍ أخرى تكسَّرت جميعاً، وبقي هو. صُنِع الكرسي في السجن، جفَّ ظهر سجين وهو يصنعه لفرط ما عكف عليه وانحنى، جفّ ظهره لترتاح ظهور الموظّفين: الخواجات منهم وأبناء البلد، وقد يعجب هؤلاء بفنّه وقدرته، فنّ نابع من الصبر والقهر معاً. وقد تسحر ألبابهم خطوط قماشه الحمراء والصفراء ودهان خشبه الأبيض «ربما كان صانعك قاتلاً أو سارقاً أو هاتك أعراض، وربما تموت ويبقى الكرسي.. وكم من سارق طليق وهاتِكِ عِرْضٍ في عزّة ونعيم! و.. و... » وينتشر الغبار كثيفاً بعد كل ضربة.

«كان زمان، أيامَ صُنعتَ يا كرسي القاش. كانت الدجاجة بخمسة قروش والخروف بخمسين قرشاً. وفي القشلاق الخمر والنساء، وفي فصل الأمطار تمتلئ الترعة حتى تفيض، وينتشر على التلال بساط أخضر من العشب، وأنك شهدت الصبيان يشربون الماء من حياض الجياد والحمير.

والماء شحيح و«أتيمة» تصنع الخمر وتشرب أكثرها، وتأكل نصف خروف، ولقد أحسنت أمرأتك الصنع حين رفضت البقاء في الفاشر. وتركت فراشك خالياً منها وغير خال من (سعاد الفزانية)، وأنت الباشكاتب المهاب. زمان مضى يا كرسي

1 - هي عاصمة مديرية شمال دارفور

القماش، شخت أنت، وشخت أنا... ».
وهأنتذا تجلس على الكرسي في الظل. وتعاين في الشارع، والناس في الشارع، وتمدّ رجليك، والظلّ يجاهد الشمس، وهمس في بطء تفترسه:
ـ سيّد فضل، صباح الخير.. ماذا بك؟
ـ لا شيء.. لا شيء.
ـ أنت لست مريضاً؟
ـ كلّا.
ـ إذن، في إجازة؟
ـ نعم.
ـ شيء عظيم.. أتفكِّر في السفر؟
ـ لا.
ـ جميل، بعد قليل تهطل الأمطار ويعتدل الجو.
ـ لماذا يصرّ جارك على كل هذا الكلام؟ أم أن هذه عادة أهل السوق من التجار؟ يا لعنة الله عليهم.. ويستطرد الجار:
ـ عظيم يا سيّد فضل، ومتى تنتهي الإجازة؟
ـ هذه إجازة نهائية.
ـ يا سلام.. لن تعود إلى العمل إذن.. والله خسارة!
وتغيَّر وجه الجار العزيز، وأضحى قاتم اللون من بعد صفائه ـ أو هكذا تصوّرته ـ وتصلَّبت تقاطيع وجهه، زَمَّ شفتيه، قطّب جبينه.

«يا مسكين يا فضل» تقول في نفسك، ثم تتساءل «هل المعاش هو الموت؟ أنت قادر ومقتدر ومعافى، خلا نوبات السعال التي تغشاك ويضيق بها خلقك من بعد صدرك، وتستطيع أن تعمل حتى تبلغ مئة عام».

وانصرف الجار العزيز، وتراه يهزّ رأسه من أسف، كنت بالنسبة لهم شيئاً وأصبحت لا شيء، كنت الباشكاتب المهاب.. يا خسارة، ضاعت الرعبة، وحلَّ محلها العطف والرثاء! وتنطلق السيارات أمامك. إلى أين يذهب الناس؟ أكلُّهم يعمل؟ أم أنهم سئموا الحياة في البيوت؟ ألهم أزواج وعيال؟ تبّاً لها العجوز! مازالت تتطيّب وتصلح من شأن نفسها. المشكلة أن تغريك في هذا النهار الطويل فتضعف وتنهار. الظلّ في الشارع خير من البيت.

أبواق السيارات تتدفَّق فوق الشارع. والنظر سيارات وزحام. لأوّل مرة تدرك أن هذا الشارع القديم لم تمسّه يد إصلاح، ويبدو أن الأشياء لا تتغيَّر كما ينبغي، أهذا يومك الأول؟ أَوَ تمضي باقي حياتك على هذا المنوال؟ وما بقي منها هذه الحياة؟ لقد انتهيت عند الحكومة فلفظتك إلى الشارع» تحدِّث نفسك. مشاهد تتكرَّر، وأناس يروحون ويجيئون، وسيارات تفلق الدماغ. وما العمل الحكومي؟ أليس هو تجربة يوم واحد تتكرَّر ثلاثين أو أربعين سنة؟ وفجأة ينقطع حبل تفكيرك:

ـ السلام عليكم.

يتردَّد الصوت، وتنتفض فاتحاً عينيك عن آخرهما، تحدِّق فيمن ألقى بالتحية، وتردّ:

ـ وعليكم السلام يا...

بماذا تريد أن تناديه؟ أأنت تعرفه؟ من هو هذا الرجل؟ كثيرون هم (أنصار السلام)، هؤلاء يحيونك حتى إن كانت نائماً، ثم إنك لا تعرفه. يقولون إن (السلام سنّة) ولذا يتمسّك بها هؤلاء القوم. وقد تلقف عابر السبيل تحيّتك عن رضا، ثم مضى لحال سبيله:

ـ يا ساتر يا رب.. حاسب!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ـ يا عالم.

ـ لا حول الله.. يا ساتر.

أصوات تعلو، وإذا بعربة محمَّلة بالجنود، قلانسهم حمراء ـ دونما استثناء ـ تدهس طفلة كانت تهمّ بعبور الشارع، وتهبّ واقفاً، ويهتز كرسي القماش كأنه نال راحة من بعد أن ارتفع عنه ثقلك. من أي البقاع جاءوا؟ في لمح البصر، كيف احتشدوا بهذه السرعة؟! ألم يكن الشارع شبه خال عدا أشخاص يسيرون متفرِّقين؟ وها هي أصوات الناس تسبح قرب أذنيك:

ـ عربات الجيش تندفع مسرعة دائماً.

ـ السائق مخطئ.. دونما ريب مخطئ.. الله.

ـ أبداً.. أبداً.. هي غلطة البنت، لم تقف لتتأكَّد من خلوّ

الشـارع.

ـ ولكنها ماتت.

ـ كيف تموت بلا سبب وجيه؟

ـ هذا أوجه الأسباب في هذا الزمان.

ـ أيعاقب القانون السائق أم العربة؟

وقـد بـدأ الجنـود بقلانسـهم الحمـراء يتقافـزون مـن سـطح العربـة، وتنظـر بيـن الـرؤوس والأكتـاف والرقـاب فـإذا بجثّـة الفتـاة ملقـاة علـى طـرف الطريـق، كان رداؤهـا أخضـر، وكانـت تحمـل كتابـاً تطايـرت صفحاتـه، وعليهـا رسـوم حيوانـات وحـروف كبيـرة ذات ألـوان، وكرّاسـة تعلَّقـت بإطـار العربـة فمـا اسـتطاعت منـه الفـكاك. وكان وجههـا ملطّخـاً بالـدم، وقـد غشـي المـوت عينيهـا، وأنـت تعرفـه: المـوت «باللـه، كيـف تمـوت المسـكينة وهـي ذاهبـة إلـى المدرسـة؟ أحمـد اللـه، أنـه أبقـاك علـى ظهرهـا (الدنيـا) أكثـر مـن نصـف قـرن. وهـا هـي ذي طفلـة مجتهـدة تمـوت بـلا سبب وجيـه!»

أصـوات تختلـط:

ـ بل هذا أوجه الأسباب في هذا الزمان.

ـ أحضروا غطاء.

ـ احملوها إلى المستشفى.

ـ يجب أن يفحصها طبيب.

ـ ولكنها ماتت....

ـ مـن المسـؤول إذاً؟ السـائق، أم الفرامـل، أم هـم الجنـود؟ أم هـي

القلانس الحمراء؟

ـ هيا.. هيا.. قبل أن يأتي البوليس فَنُتَّهم بالقتل.

كانت يدا السائق قد تجمَّدتا على عجلة القيادة، وانكفأ عليها بوجهه لا يريد أن يظهره، وتجمَّع الجنود فأقاموا حائطاً حول المتجمهرين.

***

ها هو الظل قد تقلَّصَ بعد أن افترسته الشمس، صعوداً، وليس أمامك من شيء سوى أن تعود إلى الدار، وتحمل الكرسي ثم تضعه على جدار الحجرة بعناية كأنما قصدت أن يصيب راحة من بعد العناء، وترقد على السرير، والنهار صامت بعد أن اغتذى بدم فتاة، وقد تطلّ عليك زوجك بعد حين: أيّهما الجحيم؟ الشارع أم هو البيت؟ فلتنتظر قدوم يومك الثاني في حياتك الجديدة!

# صدر في سلسلة كتاب الدوحة

| | | |
|---|---|---|
| 1 | طبائع الاستبداد | عبد الرحمن الكواكبي |
| 2 | برقوق نيسان | غسان كنفاني |
| 3 | الأئمة الأربعة | سليمان فياض |
| 4 | الفصول الأربعة | عمر فاخوري |
| 5 | الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام | علي عبدالرازق |
| 6 | شروط النهضة | مالك بن نبيّ |
| 7 | صلاح جاهين - أمير شعراء العامية | محمد بغدادي |
| 8 | نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب | أبو القاسم الشابي |
| 9 | حرية الفكر وأبطالها في التاريخ | سلامة موسى |
| 10 | الغربال | ميخائيل نعيمة |
| 11 | الإسلام بين العلم والمدنية | الشيخ محمد عبده |
| 12 | أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته | بدر شاكر السياب |
| | • فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل | ترجمة: غادة حلواني |
| 13 | امرأتنا في الشريعة والمجتمع | الطاهر حداد |
| 14 | الشيخان | طه حسين |
| 15 | ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية | محمود درويش |
| 16 | يوميات نائب في الأرياف | توفيق الحكيم |
| 17 | عبقرية عمر | عباس محمود العقاد |
| 18 | عبقرية الصدّيق | عباس محمود العقاد |
| 19 | رحلتان إلى اليابان | علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ |
| 20 | لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية) | ميخائيل الصقال |
| 21 | ثورة الأدب | د. محمد حسين هيكل |
| 22 | في مديح الحدود | ريجيس دوبريه |
| 23 | الكتابات السياسية | الإمام محمد عبده |
| 24 | نحو فكر مغاير | عبد الكبير الخطيبي |
| 25 | تاريخ علم الأدب | روحي الخالدي |
| 26 | عبقرية خالد | عباس محمود العقاد |
| 27 | أصوات الضمير | خمسون قصيدة من الشعر العالمي |

# صدر في سلسلة كتاب **الدوحة**

















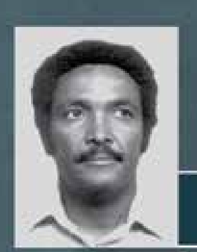


يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني **www.aldohamagazine.com**



مختارات من

# الأدب السوداني



علي المك

هذا الكتاب محاولة لجمع مختارات من الأدب السوداني في صعيد واحد. ونقد هذا وتقويمه، الرضا عمّا فيه أو السخط عليه، كلّها أمور قد تنشأ في أذهان من يطّلعون عليه، وللقارئ الكريم الحرّية كلّها في أن يخرج منه بما شاء واصطفى.




وزارة الثقافة والفنون والتراث

الدوحة - قطر

www.aldohamagazine.com